أنطون تشيخوف
قصص قصيرة

ترجمة: أبوبكر يوسف

انطون بافلوفتش تشيخوف

بقلم : مكسيم جوركي

ذات مرة دعاني لزيارته في قرية «كوتشوك — كوى» ، حيث كانت لديه قطعة ارض صغيرة ومنزل ابيض من طابقين . وهناك عرض عليّ «ضيعته» وهو يتحدث بحيوية :

— لو كان لديّ نقود كثيرة لأقمت هنا مصحا للمدرسين الريفيين المرضى . اتدري ، ولكنت شيدت مبنى مضيئا . . مضيئا جدا ، بنوافذ كبيرة واسقف عالية . ولكنت زودته بمكتبة رائعة ، وبمختلف الآلات الموسيقية ، وبمنحل ومزرعة خضروات وبستان فواكه . ولكان من الممكن تنظيم محاضرات في الزراعة والارصاد ، فالمدرس يا عزيزي بحاجة الى معرفة كل شيء ، نعم كل شيء !

وفجأة صمت ، وسعل ، ونظر اليَّ نظرة جانبية وابتسم ابتسامته الناعمة الرقيقة ، التى كانت تجذب دائما اليه بلا فكاك وتثير اهتماما حادا خاصا بما يقول .

— هل مللت من سماع تخيلاتى ؟ أما انا فأحب الحديث في هذا . آه لو تعلم مدى حاجة الريف الروسي الى المدرس الجيد الذكي المثقف ! ينبغي علينا في روسيا ان نحيطه بظروف خاصة ، ويجب ان نفعل ذلك بأسرع ما يمكن اذا كنا ندرك أنه بدون شعب مثقف ثقافة واسعة

ستنهار الدولة كالبيت المشيد من طوب لم يحرق جيدا ! فالمدرس ينبغي ان يكون فنانا ، ومصورا ، متيما بعمله . اما عندنا فهو عامل يدوي ، شخص قليل الثقافة ، يمضي الى تعليم الأولاد فى الريف بنفس الرغبة التى قد يمضي بها الى المنفى . انه جائع ، مقهور ، خائف من ان يفقد كسرة الخبز ، بينما ينبغي ان يكون فى وسعه الاجابة على كل اسئلة الفلاح ، ينبغي ان يرى فيه الفلاحون قوة جديرة بالاهتمام والاحترام ، وحتى لا يجرؤ أحد على الصياح فيه . . . على اذلال كرامته ، كما يفعل الجميع لدينا : الشرطى ، والبائع الغني ، والقس ، وشيخ البلد وراعي المدرسة ، ومدير الناحية ، وذلك الموظف المسمى بمفتش المدارس ، ولكنه لا يهتم بتحسين الاوضاع التعليمية بل فقط بالتنفيذ الحرفي لتعليمات المنطقة . ان من الحماقة ان تدفع ملاليم لرجل مدعو لتربية الشعب . . اتفهم ؟ تربية الشعب ! لا يجوز ان نسمح بأن يسير هذا الشخص فى الاسمال ، ويرتعش من البرد فى المدارس الرطبة المتهدمة ، وان يختنق بدخان المدافئ السيئة ويصاب بالبرد ، وفى الثلاثين من عمره يكون قد اصيب بالتهاب الزور والروماتيزم والسل . . عار علينا هذا ! ان مدرسنا يعيش ثمانية او تسعة أشهر فى السنة كالراهب المعتزل ، لا يجد من يتبادل معه كلمة ، انه يتبلد من الوحدة بدون كتب ، بدون ما يرفه به عن نفسه . ولو دعا اليه رفاقه لاتهم بعدم الولاء . . هذه الكلمة الغبية التى يرهب بها الخبثاء الحمقى ! . . كل هذا كريه . . انه امتهان لانسان يؤدى عملا فى غاية الاهمية . اتدرى . . عندما ارى المدرس أشعر بالحرج منه بسبب وجله ، وبسبب

ملابسه الرثة ، ويخيل اليَّ انني ايضا مذنب بصورة ما فى بؤس المدرس هذا . . صحيح !

وصمت ، واستغرق فى التفكير ، ثم اشاح بيده وقال :

— ياله من بلد اخرق احمق روسيانا هذه !

وارتمت على عينيه الرائعتين ظلال الحزن العميق ، وأحاطت بهما اشعة التجاعيد الدقيقة فأعطت لنظرته عمقا . وتطلع حوله ثم قال ساخرا من نفسه :

— انظر ، ها قد القيت عليك مقالة افتتاحية كاملة من جريدة ليبرالية . هيا ، سأسقيك شايا مكافأة على صبرك . . .

كان كثيرا ما يفعل ذلك . . يتحدث بحرارة وجدية واخلاص ، ثم يسخر فجأة من نفسه ومن حديثه . وفى هذه السخرية الرقيقة الحزينة تحس بالتشاؤم الرهيف لشخص يعرف قيمة الكلمة ، قيمة الاحلام . وفى هذه السخرية ايضا كان يلوح تواضع رقيق ولباقة حساسة . . .

ومضينا الى البيت على مهل وفى صمت . كان ذلك يوما صافيا حارا . وتعالى هدير الامواج وتراقصت عليها اشعة الشمس . وتحت الجبل عوى كلب برقة وهو يشعر بالرضا لسبب ما . وتأبط تشيخوف ذراعى وقال ببطء وهو يسعل :

— انه لشىء مخجل ومحزن ، ولكنه صحيح . فكثير من الناس يحسدون الكلاب . . .

وعلى الفور اضاف وهو يضحك :

— اننى اتفوه اليوم بكلمات هرمة . . اذن فأنا أشيخ !

كثيرا جدا ما كنت أسمعه يقول :

— أتدرى . . هناك مدرس قد وصل . . مريض ،

متزوج . . أليس لديك امكانية لمساعدته ؟ لقد رتبت أمره حتى الان .

أو :

— اسمع يا جوركي ، هناك مدرس يريد ان يتعرف عليك . ولكنه مريض لا يستطيع ان يخرج . هلا ذهبت اليه ؟

او :

— هناك مدرسات يطلبن ارسال كتب اليهن . . .

واحيانا كنت اجد عنده هذا «المدرس» . وعادة كان المدرس ، وقد احمر وجهه من احساسه بالحرج ، يجلس على طرف المقعد ، وهو ينتقي الكلمات بعناء شديد ويحاول ان يتحدث بصورة أسلس و«اكثر ثقافة» ، او يركز كل قواه ، بوقاحة الاشخاص المفرطى الحياء ، فى محاولة الا يبدو غبيا فى نظر الكاتب ، فيغمر تشيخوف بطوفان من الاسئلة التى لم تخطر له على بال فيما يبدو قبل هذه اللحظة .

وكان انطون بافلوفتش يصغى بانتباه الى هذا الحديث المرتبك ، وتلمع فى عينيه الحزينتين ابتسامة ، وترتعش التجاعيد على صدغيه ، ثم يروح بصوته العميق الناعم مثل الزجاج المصنفر ، يتحدث بكلمات بسيطة واضحة قريبة من الحياة . . كلمات تجعل جليسه يتبسط على الفور ، فيكف عن محاولة ان يبدو ذكيا ، مما يجعله فورا اكثر ذكاء وطرافة . . .

واذكر أن مدرسا — وكان طويلا ، نحيلا ، بوجه اصفر جائع ، وانف طويل احدب مائل نحو ذقنه بحزن — كان جالسا قبالة انطون بافلوفتش يحدق فى وجهه بعينين

سوداوين بلا حراك ، ويقول بصوت غليظ متجهما :

— من مثل انطباعات الوجود هذه ، على امتداد الموسم التربوى ، يتشكل ذلك المركب السيكولوجي الذى يقضي تماما على اية امكانية للموقف الموضوعى من العالم المحيط . والعالم بالطبع ليس الا تصوراتنا عنه . . .

وهنا انطلق الى ميدان الفلسفة وراح يخطو فيه أشبه برجل ثمل فوق جليد زلق .

وسأله تشيخوف برقة وبصوت خافت :

— قل لى من فضلك ، من الذى يضرب الاولاد فى ناحيتكم ؟

فقفز المدرس من مقعده منفعلا ولوح بيديه باستنكار :

— ماذا تقول ! أنا ؟ أبدا ! اضربهم ؟

وزفر بزعل .

فمضى انطون بافلوفتش يقول وهو يبتسم مهدئا :

— لا داعي للانزعاج . . وهل انا اقصدك ؟ ولكنى اذكر — قرأت ذلك فى الصحف — ان احدا ما يضرب الاولاد فى ناحيتكم بالذات . . .

فجلس المدرس ومسح العرق من وجهه ، وتنهد بارتياح وقال بصوت غليظ اجش :

— صحيح ! لقد حدث ذلك . انه مكاروف . اندري ليس فى ذلك ما يدهش . انه شيء فظيع ولكن يمكن تفسيره . فهو متزوج ، ولديه اربعة اولاد ، وزوجته مريضة . وهو ايضا مسلول . راتبه عشرون روبلا . . . اما المدرسة فقبو ، والمدرس فى غرفة واحدة . وفى ظروف كهذه ستضرب حتى الملائكة دون ادنى ذنب ، والاولاد ليسوا

ملائكة ابدا ، صدقني !

واذا بهذا الانسان الذى كان لتوه قد صعق تشيخوف دون شفقة برصيده من الكلمات الذكية ، يتحدث فجأة ، وهو يهز انفه الاحدب ، بكلمات بسيطة ثقيلة كأنما احجار ، ملقيا الضوء الساطع على الحقيقة اللعينة الرهيبة لتلك الحياة التى يحياها الريف الروسى . . .

وعندما ودع المدرس مضيفه امسك بكلتا يديه يد تشيخوف الصغيرة الجافة ذات الانامل الدقيقة وهزها وهو يقول :

— عندما جئت اليك كنت كأنى قادم الى رؤسائى ، أشعر بالوجل والرعشة ، فانتفخت كالديك الرومى ، اردت ان اريك اننى ايضا لى شأن . . وها أنذا امضي فكأني افارق شخصا طيبا ، قريبا ، يفهم كل شىء . ياله من شىء عظيم ان تفهم كل شىء ! شكرا لك ! اننى ذاهب . واحمل معى فكرة طيبة جيدة : ان العظماء هم ابسط واكثر فهما وأقرب بارواحهم الينا من كل هؤلاء الحقراء الذين نعيش بينهم . وداعا ! لن أنساك ابدا . . .

واختلج أنفه ، وانطبقت شفتاه فى ابتسامة طيبة ، وفجأة أضاف :

— وعموما فالأوغاد هم أيضا تعساء ، عليهم اللعنة !

وعندما انصرف نظر انطون بافلوفتش فى اثره وابتسم قائلا :

— شاب طيب . لن يعلّم طويلا . . .

— لماذا ؟

— سيكيدون له . سيطردونه . .

* * *

يخيل اليَّ ان أي شخص احتك بأنطون بافلوفتش كان يشعر لا اراديا بالرغبة فى أن يبدو أبسط وأصدق وأقرب الى حقيقته ، وقد لاحظت اكثر من مرة كيف كان الناس يخلعون أردية العبارات الكتبية والكلمات الموضة ، تلـك الأردية البراقة ، وغيرها من الاشياء الرخيصة التى يتزين بها الشخص الروسي رغبة منه فى أن يبدو كالأوروبـى ، مثلما يتحلى الرجل المتوحش بالمحار وأسنان الاسماك . ولم يكن انطون بافلوفتش يحب أسنان الاسماك او ريش الديوك . كان كل شيء براق ، مطنطن ، وغريب يضعه الشخص ليضفى «مزيدا من الاهمية» على نفسه يثير فيه الخجل . وقد لاحظت انه فى كل مرة يرى امامه شخصا مسرف الزينة تتولاه الرغبة فى تخليصه من كل التوافه المضنية التى لا لزوم لها ، والتى تشوه الوجه الحقيقى والروح الحية لجليسه . لقد عاش انطون تشيخوف حياته كلها على موارد روحه ، وكان دائما صادقا مع نفسه ، كان حرا داخليا ، ولم يكن ابدا يولى اعتبارا لما ينتظره البعض من انطون تشيخوف ، او لما يطالبه به البعض الاخر ، الاكثر فظاظة . ولم يكن يحب الخوض فى «الاحاديث السامية» . . تلك الاحاديث التى يسلى بها انساننا الروسي الرقيق نفسه بدأب ، ناسيا انه من المضحك ، ولكن ليس من البراعة فى شيء ، ان تتحدث عن الحلل المخملية فى المستقبل دون ان يكون لديك فى الحاضر سروال لائق .

كان تشيخوف جميلا فى بساطته ، فأحب كل ما هو بسيط ، حقيقي ، صادق ، وكانت لديه طريقة مميزة

فى تبسيط الناس .

فذات مرة زارته ثلاث نساء متأنقات ببذخ . وملأن غرفته بحفيف التنورات الحريرية ورائحة العطور القوية ، وجلسن بعظمة قبالة مضيفهن ، متظاهرات بأنهن مهتمات جدا بالسياسة . وبدأن فى «اثارة الاسئلة» .

— انطون بافلوفتش . . ما رأيك بم ستنتهى الحرب ؟

وتنحنح انطون بافلوفتش ، وفكر قليلا ، ثم قال بصوت ناعم ونبرة جادة رقيقة :

— على الارجح . . بالسلام . . .

— نعم ، طبعا ! ولكن من الذى سينتصر ؟ اليونانيون أم الاتراك ؟

— اعتقد انه سينتصر من هم اقوى . . .

فمضت النساء يتسابقن فى السؤال :

— ومن هم الاقوى فى رأيك ؟

— من يتغذون أفضل ومن هم أكثر ثقافة . . .

فهتفت احداهن :

— ما أبرع هذا الجواب !

وسألت سيدة اخرى :

— ومن تحب أكثر . . اليونانيين ام الاتراك ؟

فتطلع اليها انطون بافلوفتش برقة ، وأجاب بضحكة قصيرة مهذبة :

— انا أحب المرملاد * . . وأنت ، هل تحبينه ؟

---

* المرملاد — حلوى سكرية طرية من مربى الفواكه . **المعرب** .

فهتفت المرأة بحيوية :

— جدا !

وأكدت السيدة الأخرى برصانة :

— رائحته جميلة للغاية !

وانهمكن ثلاثتهن فى حديث حي ، فأظهرن فى مسألة المرملاد اطلاعا رائعا ومعرفة دقيقة بالموضوع . وكان من الواضح انهن راضيات تماما لأنه لا لزوم لاجهاد الذهن والتظاهر بأنهن مهتمات جديا بالأتراك واليونانيين الذين لم يتطرق اليهم تفكيرهن قبل هذه اللحظة .

وعندما هممن بالانصراف وعدن انطون بافلوفتش بمرح :

— سنرسل اليك مرملاد .

وعندما انصرفن قلت انا :

— كنت رائعا فى حديثك .

فضحك انطون بافلوفتش بصوت خافت وقال :

— ينبغي ان يتحدث كل شخص لغته . . .

وفى مرة اخرى وجدت عنده وكيل نيابة شابا ، وسيما . كان واقفا امام تشيخوف يهز رأسه بخصلات شعره المتموج ويقول بحماس :

— انكم يا انطون بافلوفتش ، بقصتكم «مع سبق الاصرار» ، تضعون أمامي قضية صعبة للغاية . فلو انى اعترفت بوجود ارادة شريرة لدى دينيس جريجوريف تتصرف بوعى ، لوجب عليَّ دون ادنى تحفظ ان ازج بدينيس فى السجن كما تملى بذلك مصالح المجتمع . ولكنه متوحش ، ولم يدرك جريرة ما فعله ، انني اشفق عليه ! ولو أني عاملته كشخص تصرف دون فهم ، واستسلمت لمشاعر

الشفقة . فكيف اذن اضمن للمجتمع ان دينيس لن يعود الى فك صواميل القضبان ويتسبب فى حوادث القطارات ؟ تلك هي المسألة ! فما العمل ؟

صمت ، ودفع جسمه الى الخلف وحدق فى وجه انطون بافلوفتش بنظرة متفحصة . وكانت حلته الرسمية جديدة ، ولمعت الازرار النحاسية على صدره بنفس الثقة والغباء الذى لمعت به العينان الصغيرتان على الوجه الناعم لحامي العدالة الشاب هذا .

وقال انطون بافلوفتش بجدية :

— لو كنتُ قاضيا ، لبرأتُ دينيس . . .

— على أي اساس ؟

— كنت اقول له : «انت يا دينيس لم تبلغ بعد مرتبة المجرم الواعي . . . اذهب . . وابلغ ! » .

فضحك وكيل النيابة ، ولكنه عاد على الفور الى الجدية المهيبة وقال :

— كلا يا انطون بافلوفتش المحترم . ان القضية التى اثرتموها لا يمكن ان تحل الا فى صالح المجتمع الذى انا مطالب بحماية حياته وممتلكاته . دينيس متوحش ، هذا صحيح ، ولكنه مجرم . . تلك هى الحقيقة !

وفجأة سأله تشيخوف برقة :

— هل يعجبك الفونوغراف ؟

— اوه نعم ! جدا ! اختراع مدهش ! — اجاب الشاب بحيوية .

فقال انطون بافلوفتش بحزن :

— اما انا فلا اطيق الفونوغرافات !

— ولماذا ؟

— انها تتحدث وتغنى دون ان تحس بشىء . وكل ما يخرج منها يخرج بصورة كاريكاتيرية ، ميتة . . وهل تهتم بالتصوير ؟

واتضح ان وكيل النيابة من هواة التصوير المولعين . وشرع على الفور يتحدث عنه بحماس ، وقد نسى تماما الفونوغراف ، بالرغم من وجه الشبه بينه وبين «هذا الاختراع المدهش» . . هذا الشبه الذى لمسه تشيخوف بدقة . ومن جديد رأيت انسانا صغيرا حيا ومسليا يطل من الحلة الرسمية وهو لا يزال بعد يشعر بنفسه فى الحياة كالجرو اثناء الصيد .

وبعد ان ودع الشاب قال انطون بافلوفتش متجهما :

— امثال هذه البثور على . . . مقعد العدالة هم الذين يتصرفون بمصائر البشر .

وصمت قليلا ثم اضاف :

— وكلاء النيابة يحبون جدا صيد السمك . وخاصة سمك الراف .

كان تشيخوف يتمتع بفن اكتشاف الجوانب المبتذلة وابرازها اينما كانت . . . هذا الفن الذى لا يتملكه الا شخص متشدد المطالب ازاء الحياة ، هذا الفن الذى تخلقه فقط الرغبة الحارة فى رؤية الناس بسطاء ، جملاء متجانسين . وكان دائما للابتذال قاضيا قاسيا وحادا .

. . . فى الصبا يبدو الابتذال شيئا مضحكا وتافها فحسب ، ثم يحيط بالانسان تدريجيا ، ثم يتغلغل بضبابه الرمادى فى عقله ودمه كالسم والدخان الخانق ، فيصبح الانسان اشبه بلافتة قديمة اكلها الصدأ . . تبدو وكأنها تصور

شيئا ما ، ولكن ما الذى تصوره ؟ لا تستطيع ان تميز .
ومنذ البداية استطاع انطون تشيخوف فى قصصه الأولى ان يكتشف فى بحر الابتذال الكابى مزحاته المأساوية الكئيبة : يكفى ان تقرأ بانتباه قصصه القصيرة «الفكاهية» حتى تقتنع بأنه ما اكثر ما كان المؤلف يراه بحزن ويخفيه بخجل من اشياء قاسية ومنفرة وراء الكلمات والمواقف المضحكة .

كان نقيا فى تواضعه ولم يكن يسمح لنفسه بأن يقول للناس بصوت عال وبصورة سافرة : «فلتكونوا . . اكثر استقامة !» بل كان يأمل عبثا بأن يفطنوا بانفسهم الى الحاجة الماسة لهم بأن يكونوا اكثر استقامة . وكان ، وهو يمقت كل ما هو مبتذل وقذر ، يصف كل حقارات الحياة بلغة نبيلة لشاعر ، وبضحكة ناعمة لفكاهي ، ومن وراء المظهر الخارجى الرائع لقصصه القصيرة لا يكاد يبدو مغزاها الداخلى المشبع باللوم المرير .
ويضحك الجمهور المحترم وهو يقرأ قصة تشيخوف القصيرة «ابنة ألبيون» * وربما لا يرى فى هذه القصة امتهانا حقيرا من اقطاعي شبعان لانسان وحيد غريب عن كل من حوله وما حوله . وفى كل قصة قصيرة من قصص انطون بافلوفتش الفكاهية اسمع آهة خافتة عميقة من قلب نقي ، انساني حقا ، آهة اشفاق يائسة على الناس الذين لا يعرفون كيف يحترمون كرامتهم الانسانية ، ويعيشون كالعبيد مستسلمين

---

* «البيون» اسم قديم اطلق على انجلترا . **المعرب** .

دون مقاومة للقوة الغاشمة ، ولا يؤمنون بأى شيء اللهم الا بضرورة ان يتناولوا كل يوم حساء أكثر دسامة بقدر المستطاع ، ولا يحسون بشيء ، اللهم الا بالخوف من ان يضربهم شخص ما قوي ووقح .

لم يدرك احد بمثل هذا الوضوح والرهافة ، مثلما ادرك تشيخوف ، مأساوية توافه الحياة ، ولم يستطع احد قبله ان يرسم للناس بهذا الصدق الذى لا يرحم صورة مشينة وكئيبة لحياتهم فى الفوضى الكابية للواقع اليومى العادى الضيق الافق .

كان الابتذال عدوه ، وقد ناضل ضده طوال حياته ، وهو الذى سخر منه وصوره بقلمه الرصين الحاد ، وكان قادرا على اكتشاف عفن الابتذال حتى هناك ، حيث يبدو للوهلة الاولى ان كل شيء مرتب جيدا جدا ، بصورة مريحة ، بل وحتى باهرة . . وانتقم منه الابتذال على ذلك بحركة طائشة سيئة عندما وضع جثمانه — جثمان الشاعر — فى عربة قطار لنقل «القواقع البحرية» .

ان هذه العربة الخضراء القذرة كالبقعة تبدو لى انما ابتسامة كبيرة ظافرة للابتذال من عدوه المتعب ، اما «الذكريات» العديدة للصحف الرخيصة فتبدو حزنا منافقا احس من خلفه بالزفير البارد الكريه الرائحة لذلك الابتذال عينه ، المسرور فى قرارة نفسه بموت عدوه .

عندما تقرأ قصص انطون تشيخوف تحس وكأنك فى يوم حزين من أيام اواخر الخريف ، عندما يكون الهواء شفافا للغاية ، وتبرز بحدة معالم الاشجار العارية والبيوت

الضيقة والناس الرماديين . كل شيء غريب . . وحيد ، جامد عاجز . اما الافاق الزرقاء البعيدة فتبدو خاوية ، وعندما تتحد بالسماء الشاحبة ، تنفث بردا مقبضا على الارض المغطاة بالوحل المتجمد . وعقل الكاتب كشمس الخريف ، يضيء بوضوح قاس ، الطرق المكسرة ، والشوارع المتعرجة ، والمنازل الضيقة القذرة ، التى يختنق فيها من الضجر والكسل اناس صغار تافهون يملأون بيوتهم بالهرولة الفارغة الناعسة . ها هى «حبوّبة» ، تلك المرأة الرقيقة الوديعة القادرة على الحب بهذه الدرجة من العبودية وبهذه الوفرة . . ها هى تتراكض بذعر كفأر رمادى . وبوسعك ان تصفعها على خدها ولكنها لن تجرؤ حتى على الانين بصوت عال ، هذه العبدة المسكينة . وبجوارها تقف بحزن «أولجا» من مسرحية «الشقيقات الثلاث» . . وهى ايضا وفيرة الحب وتخضع بلا تذمر لنزوات زوجة اخيها الكسول المنحلة الوضيعة ، وتشهد كيف تتحطم حياة شقيقتيها فتبكى ولا تستطيع ان تساعد احدا بشيء ، وليس فى قلبها ولو كلمة احتجاج حية قوية ضد الوضاعة .

وها هى مدام «رانيفسكايا» الفياضة الدموع وغيرها من اصحاب «بستان الكرز» السابقين . . أناس انانيون كالاطفال وذابلون كالشيوخ . لقد تأخروا فلم يموتوا فى الوقت المناسب ، وها هم يشتكون دون ان يروا او يفقهوا شيئا من حولهم . . اناس طفيليون عاجزون عن التعلق بالحياة من جديد . وها هو الطالب الفاشل «تروفيموف» يتكلم ببلاغة عن ضرورة العمل ويتسكع دون عمل ، ويتسلى من الملل بالاستهزاء الاحمق بـ«فاريا» التى تكدح دون كلل من اجل رفاهية العاطلين .

اما «فيرشينين» * فيحلم بان الحياة ستكون رائعة بعد ثلاثمائة سنة ، ويعيش دون ان يلاحظ ان كل ما حوله يتحلل ، وان «سوليونى» * مستعد بدافع الملل والحماقة لان يقتل البارون البائس «توزنباخ» * .

وامام عينيك يمر صف طويل من العبيد والعبدات اسرى حبهم وغبائهم وكسلهم ، اسرى نهمهم لخيرات الحياة . يمر عبيد الخوف الغامض من الحياة ، والقلق المبهم ينتابهم ويملأون الحياة بالحديث الركيك عن المستقبل ، اذ يشعرون انه لا مكان لهم فى الحاضر . . .

واحيانا تدوى وسط كتلتهم الرمادية طلقة . . انه «ايفانوف» * * او«تريبليف» * * * . قد ادركا اخيرا ما ينبغى عليهما عمله فماتا .

والكثيرون منهم يحلمون احلاما جميلة بروعة الحياة بعد مائتي سنة ، ولا يتبادر الى ذهن اي منهم السؤال البسيط : من ذا الذى سيجعلها رائعة اذا كنا سنحلم فقط ؟

ومن جوار كل هذه الكتلة الرمادية المملة من الاشخاص العاجزين ، مر رجل كبير ذكي متنبه الى كل شيء ، فتطلع الى سكان وطنه المملين هؤلاء ، وبابتسامة حزينة ونبرة ناعمة ، ولكنها نبرة لوم عميق ، وبصوت جميل صادق

---

* فيرشينين وسوليونى وتوزنباخ من ابطال مسرحية «الشقيقات الثلاث» . **المعرب** .

* * ايفانوف بطل مسرحية «ايفانوف» . **المعرب** .

* * * تريبليف بطل مسرحية «النورس» . **المعرب** .

قال وعلى وجهه وفى صدره اعتمل أسى يائس :

— ما اسوأ حياتكم يا سادة !

حرارتى مرتفعة لليوم الخامس ، ولكنى لا اريد ان ارقد . والمطر الفنلندي يسقط على الارض غبارا مبللا . وفى طابية «إينّو» تدوي المدافع التى يقومون بتجربتها . وفى الليل يلعق السحب لسان الكشاف الطويل . فياله من مشهد مقزز لأنه لا يجعلك تنسى هذا الكابوس الشيطانى : الحرب .

كنت اقرأ تشيخوف . لو أنه لم يمت منذ عشر سنوات لربما قتلته الحرب * بعد ان تكون قد سممته اولا بكراهية البشر . وتذكرت يوم جنازته .

نقل تابوت الكاتب الذى احبته موسكو «برقة» فى عربة قطار خضراء كتب على بابها باحرف كبيرة : «لنقل القواقع البحرية» . ومضى جزء من الحشد الصغير الذى اجتمع فى المحطة لاستقبال جثمان تشيخوف وراء تابوت الجنرال كيللر المنقول من منشوريا ** ، ودهشوا جدا عندما رأوا ان جنازة تشيخوف يصحبها اوركسترا الموسيقى العسكرية . وعندما اكتشفوا الخطأ بدأ بعض المرحين منهم يضحكون بصوت خافت ويهأهئون . وسار وراء تابوت تشيخوف حوالى مائة شخص لا اكثر ، واذكر منهم جيدا اثنين من المحامين ،

* الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . **المعرب** .

** توفى تشيخوف فى يوليو ١٩٠٤ ابان الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) التى دارت بين اليابان وروسيا القيصرية من اجل السيطرة على الشرق الاقصى . **المعرب** .

وكانا كلاهما فى حذائين جديدين وربطتى عنق زاهيتين كالعرسان . وسمعت وانا اسير خلفهما احدهما — ويدعى مكلاكوف — يتحدث عن ذكاء الكلاب ، والاخر ، وكنت لا اعرفه ، يمتدح مزايا فيلته الصيفية وجمال الطبيعة حولها . وكانت سيدة ما فى ثوب ليلكى وبمظلة من الدانتلا تؤكد لعجوز يرتدى نظارة باطار سميك :

— اوه ، كم كان رقيقا بصورة مدهشة وذكيا . . .

وسعل العجوز بشك . كان يوما حارا متربا . وفى مقدمة الموكب تهادى ضابط شرطة بدين بعظمة على فرس بيضاء بدينة . وكان كل هذا وكثير غيره مبتذلا بقسوة ولا يتفق ابدا وذكرى هذا الفنان الكبير المرهف الحس .

كتب تشيخوف فى احدى رسائله الى العجوز سوفورين * :

«ليس هناك ما هو اكثر مللا ولا شاعرية ، كما يقال ، من الصراع العادى فى سبيل البقاء ، والذى يحرمك من بهجة الحياة ويدفع بك الى الكآبة» . . .

وكان «الصراع فى سبيل البقاء» قد تحول لديه منذ الصبا الى صورة بائسة باهتة من صور الهموم اليومية الصغيرة بحثا عن لقمة الخبز لا لنفسه فقط ، بل عن لقمة خبز

---

* الكسى سوفورين (١٨٣٤ — ١٩١٢) ناقد مسرحى وصحفى وناشر . اسس دار نشر ، وجريدة ، ومسرح سوفورين (مسرح بطرسبرج الصغير) . وكانت تربطه علاقات وثيقة بأدباء عصره وخاصة تولستوى وتشيخوف . **المعرب** .

كبيرة . وقد بذل كل قوى صباه لهذه الهموم المجردة من الفرحة ، وانه لشيء يدعو الى الدهشة ، اذ كيف استطاع ان يحتفظ بروح الفكاهة ؟ لم ير الحياة الا كسعي ممل للبشر من اجل الشبع والسكينة . وبالنسبة له كانت المآسى العظيمة تختبئ تحت طبقة سميكة من الواقع العادي . وعندما تحرر قليلا من مشاغل رؤية الاشخاص الشباع من حوله ، عندها فقط نظر ببصر ثاقب الى جوهر هذه المآسى .

لم أر شخصا ادرك اهمية العمل كأساس للثقافة بهذا العمق والشمول مثلما ادرك تشيخوف . وقد تجلى ذلك لديه فى جميع التفاصيل الصغيرة للحياة المنزلية : فى اختيار الاشياء ، وفى ذلك الحب النبيل للاشياء الذى يستبعد تماما السعى الى تكديسها ولا يمل فى الوقت نفسه من الاعجاب بها كثمرة لابداع الروح البشرية . كان يحب البناء وزراعة البساتين وتزيين الارض ، ويحس بشاعرية العمل . وبأى حدب مؤثر كان يراقب نمو اشجار الفواكه وخمائل الزينة التى غرسها بنفسه فى حديقته ! وكان يقول وهو مشغول ببناء بيته فى اووتكا :

— لو ان كل انسان صنع فى قطعة ارضه كل ما يستطيع لأصبحت ارضنا رائعة !

كان المرض يثير فيه احيانا مزاج الوسوسة بل وحتى بغض البشر . وفى مثل هذه الايام يصبح نزقا فى احكامه وصعبا فى معاملته للناس .

وذات مرة ، وكان مستلقيا على الكنبة ، يسعل سعالا جافا ويعبث بالترمومتر ، قال :

— ان تحيا من اجل ان تموت ليس شيئا مسليا ابدا ، ولكن ان تحيا وانت تدرك انك ستموت قبل الاوان . . فهذا شيء احمق تماما . . .

وفي مرة اخرى ، وكان جالسا بجوار نافذة مفتوحة ينظر الى الافق البعيد ، الى البحر ، قال فجأة بغضب :

— تعودنا ان نعيش ونحن نأمل بطقس جيد ، وبمحصول وفير ، وبقصة غرامية لطيفة ، نأمل بالثروة او بالحصول على منصب مأمور شرطة ، ولكنى لا الاحظ ان احدا يأمل بان يزداد ذكاء . ونقول لانفسنا : عندما يأتى قيصر جديد ستتحسن الاحوال ، وبعد مائتى عام ستتحسن أكثر ، ولا احد يهتم بان يأتى هذا الاحسن غدا . وعموما فالحياة فى كل يوم تصبح أكثر تعقيدا ، وتمضى فى اتجاه ما من تلقاء نفسها ، اما الناس فيزدادون غباء بصورة ملحوظة ، ويصبح عدد متزايد من الناس على هامش الحياة .

وفكر قليلا ، وقطب جبينه ، ثم اردف :

— مثل العجزة الشحاذين فى الاعياد الدينية . . .

كان طبيبا ، ومرض الطبيب دائما اشد وطأة من مرض مرضاه . . فالمرضى يشعرون فقط بتدمير الداء لاجسادهم اما الطبيب فعلاوة على ذلك يعرف بعض المعلومات عن هذه العملية . وهذه احدى الحالات التى يمكن فيها اعتبار المعرفة عاملا على تقريب ساعة الموت .

كانت عيناه تبدوان جميلتين عندما يضحك . . تصبحان رقيقتين بأنوثة وناعمتين بلطف . وكان ضحكه بلا صوت تقريبا — جميلا بصفة خاصة . وعندما كان يضحك كان

يستمتع بالضحك وينتشى . ولا أعرف احدا آخر يستطيع ان يضحك هكذا . . ضحكا «روحيا» . . .

ذات مرة ، وكنت حاضرا ، ابدى تولستوي اعجابه بقصة تشيخوف «الحبّوبة» على ما اعتقد . وقال :

— انها مثل الدانتلا التى نسجتها فتاة عفيفة . كان هناك فى الماضى امثال هولاء الفتيات ناسجات الدانتلا ، «العوانس» . . كن يضعن فى الزخرف كل حياتهن ، وكل احلامهن بالسعادة . وبالزخارف كن يحلمن بالحبيب الغالى ، وينقلن الى رسوم الدانتلا كل حبهن الطاهر المبهم . . .

كان تولستوي يتحدث بتأثر عميق والدموع تترقرق فى عينيه .

وكانت حرارة تشيخوف فى هذا اليوم مرتفعة ، وجلس متوقد الخدين وقد احنى رأسه وراح ينظف عويناته باهتمام . وصمت طويلا ، واخيرا تنهد وقال خجلا بصوت خافت :

— هناك اخطاء مطبعية . . .

يمكن كتابة الكثير عن تشيخوف ، ولكن لابد من الكتابة بتركيز شديد ودقة ، الامر الذى لا اجيده . وما اطيب لو كتب عنه كما كتب هو قصة «السهوب» . . تلك القصة الخفيفة ذات العبير ، والساهمة الحزينة على الطريقة الروسية . انها قصة ليست للاخرين بل للنفس .

وما اطيب ان تتذكر انسانا كهذا . . فعلى الفور يعود النشاط الى حياتك ، ومن جديد يدخل اليها معنى واضح . . .

١٩١٤

فرحة

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا .

اندفع ميتيا كولداروف الى شقة والديه منفعلا منفوش الشعر ، ومضى يروح ويجيىء بسرعة فى جميع الغرف . وكان الوالدان قد أويا الى الفراش . ورقدت اخته فى سريرها تقرأ آخر صفحة فى الرواية . اما اخوته التلاميذ فكانوا نائمين .

وقال والداه بدهشة :

— من اين جئت ؟ ماذا بك ؟

— أوه ، لا تسألا ! لم أتوقع ابدا ذلك ! كلا ، لم أتوقعه ابدا ! انه . . انه غير معقول !

وقهقه ميتيا ، وجلس فى الفوتيل وهو لا يقوى على الوقوف من فرط السعادة .

— هذا غير معقول ! لا يمكن ان تتصوروا ! انظروا !

قفزت اخته من الفراش ، واسدلت على كتفيها البطانية واقتربت من أخيها . واستيقظ التلاميذ .

— ماذا بك ؟ انك شاحب جدا !

— هذا من الفرحة يا ماما ! فالآن أصبحت روسيا كلها تعرفنى ! كلها ! من قبل لم يكن احد غيركم

يعرف انه يوجد فى الدنيا المسجل الاعتبارى * ديمترى كولداروف ، اما الآن فروسيا كلها تعرف ذلك ! ماما ! يا الهى !

قفز ميتيا ، وجرى فى غرف البيت ثم عاد الى مجلسه .

— ولكن ماذا حدث ؟ هلا أوضحت لنا !

— انكم تعيشون كالوحوش البرية ، لا تقرأون الصحف ، ولا تهتمون ابدا بما ينشر ، بينما فى الجرائد اشياء رائعة ! فاذا حدث شىء يصبح معروفا على الفور ، ولا يخفى ابدا ! كم انا سعيد ! يا الهى ! الجرائد لا تكتب الا عن مشاهير الناس فقط ، واذا بهم فجأة يكتبون عنى !

— ماذا تقول ! اين ؟

امتقع الأب . ونظرت الأم الى الايقونة ورسمت علامة الصليب . وقفز التلاميذ فى قمصان النوم القصيرة فقط واقتربوا من أخيهم الاكبر .

— نعم ! كتبوا عنى ! الآن تعرفنى روسيا كلها ! خبئى يا ماما هذا العدد واحتفظى به للذكرى ! سوف نقرأه احيانا . انظروا !

وأخرج ميتيا من جيبه عددا من جريدة وأعطاه لأبيه وهو يدس اصبعه فى موضع محاط بخط قلم ازرق .

— اقرأ !

وارتدى الوالد النظارة .

---

* المسجل الاعتبارى رتبة من ادنى الرتب المدنية فى روسيا القيصرية . **المعرب** .

— هيا اقرأ !

ونظرت الأم الى الايقونة ورسمت علامة الصليب .

وتنحنح الأب وشرع يقرأ :

— «فى ٢٩ ديسمبر ، فى الساعة الحادية عشرة مساء كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف . . .

— هل رأيتم ؟ هل رأيتم ؟ اكمل ! . .

— . . . كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف خارجا من الحانة الواقعة فى شارع مالايا برونّايا ، فى منزل كوزيخين ، وهو فى حالة سكر . . .

— شربت مع سيميون بتروفتش . . . وصفوا حتى أدق التفاصيل ! اكمل ! بعده ! اسمعوا ! . .

— وهو فى حالة سكر فزلت قدمه وسقط تحت حصان حوذى كان واقفا هنا ، ويدعى ايفان دروتوف من قرية دوريكينا بناحية يوخنوف . وذعر الحصان فخطا من فوق كولداروف وسحب من فوقه الزحافة التى كان جالسا فيها ستيبان لوكوف التاجر من الدرجة الثانية بموسكو ، وانطلق عبر الشارع وتمكن البوابون من الامساك به . ونقل كولداروف الذى كان فاقد الوعى الى قسم الشرطة حيث اجرى له كشف طبى . واتضح ان الضربة التى تلقاها فى مؤخرة رأسه . . .

— انها من اصطدامى بذراع الزحافة يا بابا . اكمل ، اقرأ بعد ذلك !

— . . . التى تلقاها فى مؤخرة رأسه تعتبر من الضربات الخفيفة . وقد تم تحرير محضر بالواقعة . واجرى للمصاب اسعاف أولى . . .»

— نصحونى بان أبلل مؤخرة رأسى بالماء البارد .

حسنا ، هل رأيتم ؟ هه ؟ هكذا ! الخبر الآن ينتشر فى روسيا كلها ! هات الجريدة !

وخطف ميتيا الجريدة وطواها ، ودسها فى جيبه .

— سأسرع الى آل هكاروف لأريها لهم . . . ينبغى ان أريها ايضا لآل ايفانيتسكى ، ولنتاليا ايفانوفنا ، ولأنيسيم فاسيليتش ! انا ذاهب ! وداعا !

وارتدى ميتيا العمرة ذات الشريط المعقود وانطلق الى الشارع منتشيا فرحا .

١٨٨٣

الكبش والآنسة

(مشهد قصير من حياة «السادة المحترمين»)

كانت سحنة السيد المحترم الشبعانة اللامعة تنطق بالملل القاتل . كان قد غادر لتوه أحضان مورفيوس * بعد الظهر ولا يدرى ماذا يفعل . لم تكن به رغبة فى التفكير او التثاؤب . . . اما القراءة فملها منذ عهد سحيق ، وكان الوقت لا يزال مبكرا للذهاب الى المسرح ، ومنعه الكسل من الذهاب للتزحلق . فما العمل ؟ بم يسلى نفسه ؟

وأبلغه الخادم يجور :

— هناك آنسة ما جاءت ! تسأل عنكم .

— آنسة ؟ هم . . ترى من هى ؟ على العموم سيان ، ادعها . . .

ودخلت غرفة المكتب بهدوء فتاة وسيمة ، سوداء الشعر ، ترتدى ملابس بسيطة . . بل وبسيطة جدا . وعندما دخلت حيت بانحناءة . واخذت تقول بصوت مرتعش :

— ارجو المعذرة . انا . . قالوا لى ان حضرتكم . . انه من الممكن ان أجدكم فى الساعة السادسة فقط . .

---

* اله الاحلام عند الاغريق القدماء . **المعرب** .

انا . انا . ابنة مستشار القصر * بالتسيف . . .

— تشرفنا . . تفضلى اجلسى ! اية خدمة ؟ اجلسى لا تخجلى !

— لقد جئتكم فى طلب . . . — مضت الآنسة تقول وهى تجلس فى ارتباك وتعبث بازرارها بيدين مرتعشتين — لقد جئت . . لكى أطلب منكم بطاقة سفر مجانية الى موطنى . سمعت انكم تعطون . . وانا أريد ان أسافر ، وليس معى . . انا لست غنية . . بطاقة من بطرسبرج الى كورسك . . .

— هم . . هكذا . . ولماذا تريدين السفر الى كورسك ؟ ألا يعجبك الحال هنا ؟

— لا ، هنا يعجبنى ، ولكن . . أهلى . اريد ان اسافر الى أهلى . لم أرهم منذ مدة طويلة . . كتبوا لى ان ماما مريضة . . .

— هم . . وانت هنا موظفة أم طالبة ؟

وأخبرته الآنسة بالمكان الذى كانت تعمل فيه وعند مَن ، وكم كانت تتقاضى ، وبحجم العمل الذى كانت تؤديه . . .

— هكذا . . . كنت تعملين . . نعم ، لا يمكن القول ان مرتبك كان كبيرا . . لا يمكن القول . . ليس من الانسانية الا تصرف لك بطاقة مجانية . . هم . . اذن فانت

---

* رتبة مدنية من الدرجة السابعة فى روسيا القيصرية تعادل رتبة المقدم العسكرية . **المعرب** .

مسافرة الى اهلك . . . حسنا ، وربما كان لديك فى كورسك حبيب ، هه ؟ حبّوب ؟ هىء ، هىء ، هوء . . خطيب ؟ آه ، تخجلين ؟ أوه ، لا داعى ! هذا شىء محمود . . فلتسافرى . . حان الوقت لكى تتزوجى . . . ومن هو ؟

— موظف . . . .

— شىء محمود . . سافرى الى كورسك . . يقال انه على بعد مائة فرسخ من كورسك تنتشر رائحة حساء الكرنب وتزحف الصراصير . . . هىء ، هىء ، هوء . . لا بد ان الحياة مملة فى كورسك هذه ؟ لا تخجلى ، انزعى القبعة ! نعم ، هكذا ! يا يجور ، هات شايا . لا بد ان الحياة مملة فى هذه الـ . . ام . . ما اسمها . . كورسك ؟

لم تكن الآنسة تتوقع مثل هذا الاستقبال الرقيق فشع وجهها بالسرور ، ووصفت للسيد المحترم كل ما فى كورسك من الوان التسلية . . . وأخبرته ان لديها أخا موظفا ، وعمها مدرس ، وابناء أخيها تلاميذ . . وقدم يجور الشاى . . وتناولت الآنسة الكوب بوجل ، وراحت ترشفه دون صوت وهى تخشى ان تصدر عنها مصمصة . . . وكان السيد المحترم يتطلع اليها وهو يبتسم بسخرية . . ولم يعد يشعر بالملل . .

وسألها :

— هل خطيبك وسيم ؟ وكيف تعرفتما ببعض ؟

وأجابت الآنسة بخجل على هذين السؤالين . واقتربت بمجلسها من السيد المحترم فى ثقة ، وروت له وهى تبتسم كيف تقدم الخطاب هنا فى بطرسبرج لخطبتها فرفضتهم . . . تحدثت طويلا . وانهت حديثها بان اخرجت من جيبها رسالة من والديها وقرأتها على السيد المحترم . ودقت الساعة

الثامنة .

— والدك خطه لا بأس به . . بأية زخارف ينمق الحروف ! هىء ، هىء . . حسنا ، لقد حان وقت انصرافى . . لا بد ان المسرح بدأ عرضه . . وداعا يا ماريا يفيموفنا .

فسألت الآنسة وهى تنهض :

— اذن استطيع ان آمل ؟

— بماذا ؟

— بان تعطونى بطاقة مجانية . . .

— بطاقة ؟ هم . . ليس لدىّ بطاقات . يبدو انك اخطأت يا سيدتى . . هىء ، هىء ، هىء . . اخطأت العنوان ، دخلت غير المدخل . . بالقرب منى يسكن ، حقا ، احد العاملين فى السكك الحديدية ، اما انا فأعمل فى بنك ! يا يجور ، مرهم ان يعدوا العربة ! وداعا يا ma chère * ماريا سيميونوفنا ! سعيد جدا . . سعيد جدا . . .

ارتدت الآنسة معطفها وخرجت . . وعند المدخل الآخر قيل لها انه سافر الى موسكو فى السابعة والنصف .

١٨٨٣

---

* يا عزيزتى (بالفرنسية فى الاصل) . **المعرب** .

المغفلة

منذ ايام دعوت الى غرفة مكتبى مربية اولادى يوليا فاسيليفنا لكى أدفع لها حسابها .

قلت لها :

— اجلسى يا يوليا فاسيليفنا . هيا نتحاسب . انت فى الغالب بحاجة الى النقود ، ولكنك خجولة الى درجة انك لن تطلبيها بنفسك . . . حسنا . . . لقد اتفقنا على ان ادفع لك ثلاثين روبلا فى الشهر . . .

— أربعين . . .

— كلا ، ثلاثين . . هذا مسجل عندى . . كنت دائما أدفع للمربيات ثلاثين روبلا . حسنا ، لقد عملت لدينا شهرين . . .

— شهرين وخمسة ايام . . .

— شهرين بالضبط . . هكذا مسجل عندى . . اذن تستحقين ستين روبلا . . . نخصم منها تسعة ايام آحاد . . فانت لم تعلمى كوليا فى ايام الآحاد بل كنت تتنزهين معه فقط . . ثم ثلاثة ايام اعياد .

تضرج وجه يوليا فاسيليفنا ، وعبثت اصابعها باهداب الفستان ولكن . . لم تنبس بكلمة !

— نخصم ثلاثة اعياد ، اذن المجموع اثنا عشر روبلا . . وكان كوليا مريضا اربعة ايام ولم تكن دروس . . كنت تدرسين لفاريا فقط . . . وثلاثة ايام كانت اسنانك تؤلمك فسمحت لك زوجتى بعدم التدريس بعد الغداء . . اذن اثنا عشر زائد سبعة — تسعة عشر . . نخصم ، الباقى . . هم . . واحد واربعون روبلا . . مضبوط ؟

احمرت عين يوليا فاسيليفنا اليسرى وامتلأت بالدمع ، وارتعش ذقنها . وسعلت بعصبية وتمخطت ، ولكن . . لم تنبس بكلمة !

— قبيل رأس السنة كسرت فنجانا وطبقا . نخصم روبلين . . الفنجان أغلى من ذلك ، فهو موروث ، ولكن فليسامحك الله ! علينا العوض . . نعم ، وبسبب تقصيرك تسلق كوليا الشجرة ومزق سترته . . نخصم عشرة . . وبسبب تقصيرك ايضا سرقت الخادمة من فاريا حذاء . ومن واجبك ان ترعى كل شيء ، فانت تتقاضين مرتبا . وهكذا نخصم ايضا خمسة . . . وفى ١٠ يناير اخذت منى عشرة روبلات .

فهمست يوليا فاسيليفنا :

— لم آخذ !

— ولكن ذلك مسجل عندى !

— طيب ، ليكن . .

— من واحد واربعين نخصم سبعة وعشرين . . الباقى اربعة عشر . . .

امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع . . . وطفرت حبات العرق على انفها الطويل الجميل . يا للفتاة المسكينة !

وقالت بصوت متهدج :

— أخذت مرة واحدة . . أخذت من حرمكم ثلاثة روبلات . . لم آخذ غيرها . .

— حقا ؟ انظر ، وانا لم اسجل ذلك ! نخصم من الاربعة عشر ثلاثة ، الباقي احد عشر . . ها هى نقودك يا عزيزتى ! ثلاثة . . ثلاثة . . واحد ، واحد . . تفضلى !

ومددت لها احد عشر روبلا . . فتناولتها ووضعتها فى جيبها باصابع مرتعشة . وهمست :

— Merci * .

فانتفضت واقفا واخذت أروح واجىء فى الغرفة . واستولى علىّ الغضب .

سألتها :

— merci على ماذا ؟

— على النقود . . .

— يا للشيطان ، ولكنى نهبتك ، سلبتك ! لقد سرقت منك ! فعلام تقولين merci ؟

— فى اماكن اخرى لم يعطونى شيئا . . .

— لم يعطوك ؟ ! ليس هذا غريبا ! لقد مزحت معك ، لقنتك درسا قاسيا . . سأعطيك نقودك ، الثمانين روبلا كلها ! ها هى فى المظروف جهزتها لك ! ولكن هل يمكن ان تكونى عاجزة الى هذه الدرجة ؟ لماذا لا تحتجين ؟ لماذا تسكتين ؟ هل يمكن فى هذه الدنيا

---

* مرسى ، شكرا . **المعرب** .

الا تكونى حادة الانياب ؟ هل يمكن ان تكونى مغفلة الى هذه الدرجة ؟

ابتسَمَتْ بعجز فقرأتُ على وجهها : «يمكن !» .

سألتها الصفح عن هذا الدرس القاسى وسلمتها ، لدهشتها البالغة ، الثمانين روبلا كلها . فشكرتنى بخجل وخرجت . . . وتطلعت فى اثرها وفكرت : ما أسهل ان تكون قويا فى هذه الدنيا !

١٨٨٣

وفاة موظف

ذات مساء رائع كان ايفان ديمتريفيتش تشرفياكوف ، الموظف الذى لا يقل روعة ، جالسا فى الصف الثانى من مقاعد الصالة ، يتطلع فى المنظار الى «اجراس كورنيفيل» . وراح يتطلع وهو يشعر بنفسه فى قمة المتعة . وفجأة . . . وكثيرا ما تقابلنا «وفجأة» هذه فى القصص . والكتّاب على حق ، فما احفل الحياة بالمفاجآت ! وفجأة تقلص وجهه ، وزاغ بصره ، واحتبست انفاسه . . . وحول عينيه عن المنظار وانحنى و . . . . أتش ! ! ! عطس كما ترون . والعطس ليس محظورا على احد فى اى مكان . اذ يعطس الفلاحون ، ورجال الشرطة ، بل وحتى احيانا المستشارون السريون . الجميع يعطس . ولم يشعر تشرفياكوف باى حرج ، ومسح انفه بمنديله ، وكشخص مهذب نظر حوله ليرى ما اذا كان قد ازعج احدا بعطسه . وعلى الفور احس بالحرج . فقد رأى العجوز الجالس امامه فى الصف الاول يمسح صلعته ورقبته بقفازه بعناية ويدمدم بشىء ما . وعرف تشرفياكوف فى شخص العجوز الجنرال بريزجالوف الذى يعمل فى مصلحة السكك الحديدية .

وقال تشرفياكوف لنفسه : «لقد بللته . انه ليس رئيسى ،

بل غريب ، ومع ذلك فشيء محرج . ينبغي ان اعتذر» .
وتنحنح تشرفياكوف ومال بجسده الى الامام وهمس في اذن الجنرال :
— عفوا يا صاحب السعادة ، لقد بللتكم . . . لم اقصد . .
— لا شيء ، لا شيء .
— استحلفكم بالله العفو . انني . . . لم اكن اريد !
— اوه ، اسكت من فضلك ! دعني اصغي !
واحرج تشرفياكوف فابتسم ببلاهة ، وراح ينظر الى المسرح . كان ينظر ولكنه لم يعد يحس بالمتعة . لقد بدأ القلق يعذبه . واثناء الاستراحة اقترب من بريزجالوف وتمشى قليلا بجواره ، وبعد ان تغلب على وجله دمدم :
— لقد بللتكم يا صاحب السعادة . . . اعذروني . . انني لم اكن اقصد ان . . .
فقال الجنرال :
— اوه كفاك ! . انا قد نسيت وانت ما زلت تتحدث عن نفس الامر !
وحرك شفته السفلى بنفاد صبر .
وقال تشرفياكوف لنفسه وهو يتطلع الى الجنرال بشك :
«يقول نسيت بينما الخبث يطل من عينيه . ولا يريد ان يتحدث . ينبغي ان اوضح له انني لم اكن ارغب على الاطلاق . . . وان هذا قانون الطبيعة ، والا ظن انني اردت ان ابصق عليه . فاذا لم يظن الآن فسيظن فيما بعد ! . .»
وعندما عاد تشرفياكوف الى المنزل روى لزوجته ما بدر عنه من سوء تصرف . وخيل اليه ان زوجته نظرت الى الامر

باستخفاف ، فقد جزعت فقط ، ولكنها اطمأنت عندما علمت ان بريزجالوف «غريب» .

وقالت :

— ومع ذلك اذهب اليه واعتذر . والا ظن انك لا تعرف كيف تتصرف فى المجتمعات !

— تلك هى المسألة ! لقد اعتذرت له ، ولكنه . . . كان غريبا . . . لم يقل كلمة مفهومة واحدة . ثم انه لم يكن هناك متسع للحديث .

وفى اليوم التالى ارتدى تشرفياكوف حلة جديدة ، وقص شعره ، وذهب الى بريزجالوف لتوضيح الامر . . وعندما دخل غرفة استقبال الجنرال رأى هناك كثيرا من الزوار ورأى بينهم الجنرال نفسه الذى بدأ يستقبل الزوار . وبعد ان سأل عدة اشخاص رفع عينيه الى تشرفياكوف . فراح الموظف يشرح له :

— بالامس فى «اركاديا» لو تذكرون يا صاحب السعادة عطست و . . بللتكم عن غير قصد . . اعذر . . .

— يا للتفاهات . . الله يعلم ما هذا ! — وتوجه الجنرال الى الزائر التالى — ماذا تريدون ؟

وفكر تشرفياكوف ووجهه يشحب : «لا يريد ان يتحدث . اذن فهو غاضب . . . كلا ، لا يمكن ان ادع الامر هكذا . . سوف اشرح له . . .»

وبعد ان انهى الجنرال حديثه مع آخر زائر واتجه الى الغرفة الداخلية ، خطا تشرفياكوف خلفه ودمدم :

— يا صاحب السعادة ! اذا كنت اتجاسر على ازعاج سعادتكم فانما من واقع الاحساس بالندم ! . لم اكن

اقصد ، كما تعلمون سعادتكم !
فقال الجنرال وهو يختفى خلف الباب :
— انك تسخر يا سيدى الكريم !
وفكر تشرفياكوف : «اية سخرية يمكن ان تكون ؟ ليس هنا اية سخرية على الاطلاق ! جنرال ومع ذلك لا يستطيع ان يفهم ! اذا كان الامر كذلك فلن اعتذر بعد لهذا المتغطرس . ليذهب الى الشيطان ! سأكتب له رسالة ، ولكن لن آتى اليه . اقسم لن آتى !»
هكذا فكر تشرفياكوف وهو عائد الى المنزل . ولكنه لم يكتب للجنرال رسالة . فقد فكر وفكر ولم يستطع ان يدبج الرسالة . واضطر فى اليوم التالى الى الذهاب بنفسه لشرح الامر .
ودمدم عندما رفع اليه الجنرال عينين متسائلتين :
— جئت بالامس فأزعجتكم يا صاحب السعادة ، لا لكى اسخر منكم كما تفضلتم سعادتكم فقلتم . بل كنت اعتذر لانى عطست فبللتكم . . . ولكنه لم يدر بخاطرى ابدا ان اسخر . وهل اجسر على السخرية ؟ فلو رحنا نسخر ، فلن يكون هناك احترام للشخصيات اذن . . .
وفجأة زأر الجنرال وقد اربد وارتعد :
— اخرج من هنا ! !
فسأل تشرفياكوف هامسا وهو يذوب رعبا :
— ماذا ؟
فردد الجنرال ودق بقدمه :
— اخرج من هنا ! !
وتمزق شىء ما فى بطن تشرفياكوف . وتراجع الى

الباب وهو لا يرى ولا يسمع شيئاً ، وخرج الى الشارع وهو يجرجر ساقيه . . . وعندما وصل آليا الى المنزل استلقى على الكنبة دون ان يخلع حلته . . . . ومات .

١٨٨٣

الصبي الشرير

هبط ايفان ايفانيتش لابكين ، الشاب اللطيف الهيئة ، وآنا سيميونوفنا زامبليتسكايا ، الشابة ذات الانف الصغير المقعي ، على الشاطيء المنحدر ، وجلسا على اريكة . وكانت هذه الاريكة تقوم قرب الماء تماما وسط خمائل الصفصاف اليافعة الكثيفة . مكان ساحر ! ما ان تجلس هنا حتى تختفي عن العالم ، فلا تراك الا الاسماك والعناكب المائية الراكضة كالبرق فوق صفحة المياه . وكان الشاب والشابة مزودين بالسنانير والشباك وعلب ديدان الطعم وغيرها من ادوات الصيد . وما ان جلسا حتى شرعا على الفور في صيد السمك .

وبدأ لابكين يقول وهو يتلفت :

— كم انا سعيد باننا اخيرا أصبحنا وحدنا . أريد ان أقول لك الكثير يا آنا سيميونوفنا . . الكثير جدا . . عندما رأيتك اول مرة . . سنارتك تغمز . . أدركت عندها لأى غرض أحيا ، أدركت اين معبودى الذى ينبغى ان اكرس له كل حياتى الكادحة الشريفة . . يبدو انها سمكة كبيرة تغمز . . . ما ان رأيتك حتى أحببتك ، لاول مرة ، أحببت حبا جارفا ! انتظرى لا تجذبى ، دعيها تغمز . . خبريني يا

عزيزتى ، استحلفك ، هل استطيع ان أمل — لا بان تبادليني الحب ، كلا — فانا لا استحق ، انا حتى لا اجرؤ على التفكير في ذلك . . . هل استطيع ان أطمع فى . . . اسحبــى !

رفعت آنا سيميونوفنا يدها عاليا بالسنارة وشدتها وصرخت . ولمعت في الهواء سمكة فضية خضراء .

— يا الهى ، فرخ ! آى ، آه . . اسرع ! أفلتت !

افلتت السمكة من السنارة ، وتلوت على العشب قافزة نحو محيطها و . . غاصت في الماء !

وبينما كان لابكين يطارد السمكة أمسك عفوا بذراع آنا سيميونوفنا بدلا من السمكة ، وعفوا ضمها الى شفتيه . . . وشدت هى ذراعها ، ولكن بعد فوات الاوان : فقد انطبقت الشفتان عفوا في قبلة . حدث ذلك عفوا . وتلت القبلة قبلة اخرى ، ثم الايمان والتأكيدات . . . يا لها من لحظات سعيدة ! ولكن ليس هناك شيء سعيد بصورة مطلقة في هذه الحياة الدنيوية . فالشيء السعيد عادة يحمل في طياته السم ، او يسممه شيء ما خارجى . وهذا ما كان في هذه المرة ايضا . فبينما كان الشاب والشابة يتبادلان القبلات سمعا فجأة ضحكا . نظرا الى النهر واصابهما الذهول : فقد كان هناك صبــى يقف في الماء عاريا مغمورا حتى وسطه . كان ذاك هو التلميذ كوليا ، شقيق آنا سيميونوفنا . كان واقفا في الماء ينظر الى الشاب والشابة وهو يبتسم بخبث . وقال :

— آه . . تتبادلان القبل ؟ طيب ! سأقول لماما .

فدمدم لابكين وهو يتضرج بالحمرة :

— امل بانك كانسان شريف . . . ان التلصص شيء وضيع ، والوشاية شيء منحط ، حقير ، كريه . . . اعتقد انك كانسان شريف ونبيل . . .

فقال الانسان النبيل :

— هات روبلا وعندئذ لن أقول ! والا فسأقول .

واخرج لابكين من جيبه روبلا واعطاه لكوليا ، وضم هذا قبضته المبللة على الروبل ، وصفّر ، ثم سبح مبتعدا . ولم يعد العاشقان الشايان الى تبادل القبل بعد ذلك فى هذا اليوم .

وفى اليوم التالى جلب لابكين اصباغا وكرة من المدينة لكوليا ، وأهدته اختته كل علب الادوية الفارغة التى كانت تمتلكها . ثم اضطرا الى اهدائه ازرار أكمام قميص بوجوه كلاب . ويبدو ان هذا كله أعجب الصبى الشرير ، ولكى يحصل على المزيد مضى يراقبهما . وأينما ذهب لابكين وآنا سيميونوفنا كان يذهب . ولم يتركهما دقيقة واحدة .

وصر لابكين على اسنانه وقال :

— وغد ! ما أصغره ومع ذلك فياله من وغد كبير ! ترى كيف سيصبح فيما بعد ؟ !

وطوال شهر يونيو نغص كوليا على العاشقين المسكينين حياتهما . كان يهددهما بالوشاية ، ويراقبهما ويطالب بالهدايا . ولم يكن يكفيه ما يحصل عليه ، وفى آخر الامر بدأ يتحدث عن ساعة جيب . فماذا ؟ اضطرا الى ان يعداه بساعة .

وذات مرة ، اثناء الغداء ، عندما قدموا البسكوت المحشو بالحلوى ، قهقه كوليا فجأة ، وغمز بعينه وسأل لابكين :

— أقول ؟ ؟ هه ؟

واحمر لابكين بشدة ، وبدلا من البسكوت راح يمضغ الفوطة . وهبت آنا سيميونوفنا واقفة من امام المائدة وركضت الى غرفة اخرى .

وظل العاشقان فى هذا الوضع حتى آخر أغسطس ، حتى ذلك اليوم الذى طلب فيه لابكين اخيرا يد آنا سيميونوفنا . أوه ، كم كان يوما سعيدا ! فبعد ان تحدث لابكين مع والدى العروس وحصل على موافقتهما ، كان اول ما فعله ان انطلق الى الحديقة ومضى يبحث عن كوليا . وعندما وجده كاد يعول من الفرحة وأمسك بهذا الولد الشرير من أذنه . وجاءت آنا سيميونوفنا ركضا ، فقد كانت هى الاخرى تبحث عن كوليا ، وأمسكت بأذنه الثانية . كان ينبغى ان تروا اية متعة ارتسمت على وجهى العاشقين عندما راح كوليا يبكى ويضرع اليهما :

— يا أحبائى ، يا اعزائى ، لن اعود الى ذلك . آى ، آى ، سامحانى .

وبعد ذلك اعترفا بأنهما لم يشعرا ابدا طوال فترة حبهما بمثل هذه السعادة ، بمثل هذه المتعة الغامرة ، التى أحسا بها عندما كانا يشدان أذنى هذا الولد الشرير .

١٨٨٣

جهاز العروس

رأيت في حياتى بيوتا كثيرة ، كبيرة وصغيرة ، حجرية وخشبية ، قديمة وجديدة ، ولكن واحدا منها هو الذى انطبع فى ذاكرتى بصفة خاصة . كان منزلا صغيرا ، من طابق صغير واحد وثلاث نوافذ ، يشبه الى حد كبير عجوزا حدباء صغيرة بقلنسوة . كان مطليا بالجير الابيض ، بسطح قرميدى ومدخنة متساقطة الطلاء ، وكان غارقا كله فى خضرة اشجار التوت والاكاسيا والحور التى غرسها أسلاف واجداد اصحابه الحاليين . لم يكن يرى من وراء الخضرة . وعموما فلم تمنعه وفرة الخضرة هذه من ان يكون بيتا حضريا . ويقف فناؤه الواسع فى صف واحد مع الافنية الاخرى ، الواسعة والخضراء ايضا ، ويدخل فى نطاق شارع موسكوفسكايا . وفى هذا الشارع لا تمر العربات ابدا ، ومن النادر ان يسير به احد .

وشيش النوافذ فى هذا البيت مغلق دائما ، فسكانه لا يحتاجون الى الضوء . انهم فى غنى عنه . والنوافذ لا تفتح ابدا ، لان سكان البيت لا يحبون الهواء المنعش . فالناس المقيمون دائما وسط اشجار التوت والاكاسيا واحراش الارقطيون لامبالون تجاه الطبيعة . المصطافون وحدهم هم

الذين حباهم الله القدرة على فهم جمال الطبيعة ، اما بقية البشرية فتغط فى جهل عميق فيما يخص هذا الجمال . لا يقدر الناس ما لديهم من ثروة . ما نملكه لا نحافظ عليه ، بل والاكثر من ذلك ان ما تملكه اليد تزهده النفس . وحول المنزل جنة دنيوية : خضرة ، وطيور مغردة ، اما فى المنزل فيا للأسف ! فى الصيف يكون الجو فيه قائظا خانقا ، وفى الشتاء حارا كما فى الحمام ، مكتوما ، ومملا ، مملا . . .

زرت هذا المنزل اول مرة منذ زمن بعيد ، زيارة واجب . . فقد جئت حاملا التحية من صاحب البيت العقيد تشيكماسوف الى زوجته وابنته . واذكر جيدا تلك الزيارة الاولى ، اذ يستحيل ان أنساها .

تصوروا امرأة صغيرة رخوة ، فى حوالى الاربعين ، تنظر اليك برعب ودهشة وانت تدلف من المدخل الى الصالة . فأنت «غريب» ، ضيف ، «شاب» . . وفى هذا الكفاية لكى تثير الدهشة والرعب . وليس فى يدك هراوة او فأس او مسدس ، بل تبتسم بود ، ولكنهم يلقونك بارتياب .

وتسألك بصوت متهدج امرأة كهلة ، فتعرف فيها صاحبة البيت تشيكماسوفا :

— من الذى يشرفنى ويسرنى ان أراه ؟

فتقول لها من انت ، وتشرح سبب مجيئك ، فتحل صيحة «آه» الفرحة المدوية واتساع العيون محل الرعب والدهشة . وتنتقل هذه «الآه» كالصدى من المدخل الى الصالة ، ومن الصالة الى غرفة الجلوس ، ومن غرفة الجلوس الى

المطبخ . . . وهكذا حتى القبو نفسه . وسرعان ما يمتلئ البيت الصغير «بالآهات» الفرحة المتعددة النبرات . وبعد حوالى خمس دقائق تجد نفسك جالسا فى غرفة الجلوس ، على كنبة كبيرة وثيرة ساخنة ، وتسمع شارع موسكوفسكايا وقد راح يتأوه كله .

فاحت رائحة مسحوق العثة وحذاء جديد من جلد العنز كان ملفوفا فى منديل وموضوعا على مقعد بجوارى . وعلى النوافذ نبات الجيرانيوم وستائر حقيرة من قماش الموسلين . وعليها ذباب شبعان . وعلى الحائط صورة مطران مرسومة بالزيت ومغطاة بزجاج احدى زواياه مكسورة . ومن المطران يمتد عدد من الاجداد بوجوه غجرية صفراء ليمونية . وعلى الطاولة كستبان وبكرة خيط وجورب حريمى لم تكتمل حياكته ، وعلى الارض بترونات تفصيل وبلوزة سوداء بخيوط تسريج . وفى الغرفة المجاورة امرأتان عجوزان بدا عليهما الاضطراب والذهول وهما تلتقطان من الارض البترونات وقطع الاقمشة القطنية . . . .

وقالت تشيكماسوفا :

— عفوا ، عندنا فوضى فظيعة !

كانت تشيكماسوفا تتحدث معى وهى تتطلع شزرا وبحرج الى الباب الذى كانوا لا يزالون خلفه يرفعون البترونات . وكان الباب ايضا تارة ينفرج بحرج مقدار شبر ، وتارة يوصد .

وقالت تشيكماسوفا مخاطبة الباب :

— حسنا ، وماذا تريدين ؟

فسأل صوت نسائى من وراء الباب :

— Où est mon cravatte, lequel mon père m'avait envoyé de Koursk? *

— Ah, est ce que, Marie, que... **

آه ، هل يمكن . . .

Nous avons donc chez nous un homme très peu connu par nous... ***

اسألى لوكيريا .

وقرأت فى عينى تشيكماسوفا المتضرجة من المتعة : «انظر كيف نتحدث الفرنسية جيدا !» .

وسرعان ما فتح الباب ، فرأيت فتاة طويلة نحيلة ، فى حوالى التاسعة عشرة ، فى فستان طويل من الموسلين وحزام مذهب ، اذكر انه كانت تتدلى منه مروحة صدفية . دخلت الغرفة ، وجلست وتضرجت . فى البداية تضرج أنفها الطويل المجدور قليلا ، ومن انفها انتقلت الحمرة الى عينيها ، ومن عينيها الى صدغيها .

وقالت تشيكماسوفا بصوت منغم :

— ابنتى ! وهذا يا مانيتشكا هو الشاب الذى . . .

وتعرفت بها وأعربت عن دهشتى بصدد البترونات الكثيرة . وخفضت الام وابنتها بصرهما .

---

* أين ربطة عنقى التى أرسلها لى أبـى من كورسك ؟ (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

** آه ، هل يا ماريا . . . (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

*** عندنا شخص لا نعرفه الا قليلا جدا . . . (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

وقالت الأم :

— فى عيد الصعود أقيمت هنا سوق . ونحن دائما نشترى من السوق قماشا ، ونقضى السنة كلها فى خياطته حتى السوق التالية . اننا لا نخيط عند احد ابدا . فزوجى بيوتر سيميونتش لا يكسب كثيرا ، لذلك لا نسمح لانفسنا بالبذخ . نضطر الى الخياطة بأنفسنا .

— ولكن من لديكم يلبس كل هذه الثياب ؟ ألستما اثنتين فقط ؟

— آه . . وهل هذا يمكن لبسه ؟ هذا ليس للبس ! انه جهاز العروس !

فقالت الابنة وهى تتضرج :

— آه يا maman ماذا تقولين ؟ حضرته قد يظن بالفعل . . . لن أتزوج ابدا ! ابدا !

قالت ذلك ، بينما توقدت عيناها وهى تنطق كلمة «أتزوج» .

ثم جاءوا بالشاى والخبز المقدد والمربى والزبد ، وبعد ذلك أطعمونى توت العليق بالقشدة . وفى الساعة السابعة مساء قدموا العشاء من ستة أطباق . واثناء العشاء سمعت تثاؤبا عاليا . . ففى الغرفة المجاورة تثاءب احد ما بصوت عال . ونظرت الى الباب بدهشة ، اذ لا يمكن أن يتثاءب هكذا الا رجل .

وأوضحت تشيكماسوفا وقد لاحظت دهشتى :

— هذا أخو بيوتر سيميونتش . . يجور سيميونتش . . انه يعيش معنا من العام الماضى . اعذره ، فهو لا يستطيع الخروج لمقابلتك . . انه خجول . . يتجنب الغرباء . . ينوى

الاعتزال فى دير . . اساءوا اليه فى الخدمة . . ولهذا قرر من الأسى . . .

وبعد العشاء أرتنى تشيكماسوفا وشاحا طرزه يجور سيميونتش بنفسه ، لكى يتبرع به للكنيسة . وطرحت مانيتشكا عنها الخجل لحظة وأرتنى كيس تبغ طرزته لأبيها . وعندما تظاهرت بأننى مبهور بمهارتها تضرجت وهمست فى أذن أمها بشىء ما . فتهللت أسارير الأم وعرضت علي ان اذهب معها الى غرفة المخزن . وهناك رأيت حوالى خمسة صناديق كبيرة وكثرة من الصناديق الصغيرة والعلب .

وهمست لى الأم :

— انه . . . جهاز العروس ! خيطناه بأنفسنا .

وبعد ان تفرجت على هذه الصناديق الجهمة رحت أودع اصحاب الدار الكرماء . واخذوا علىّ عهدا بأن أزورهم مرة اخرى فى وقت ما .

وقد أوفيت بعهدى هذا بعد حوالى سبع سنوات من زيارتى الاولى ، عندما أرسلت الى هذه المدينة كخبير قانونى فى احدى القضايا . وعندما دلفت الى البيت المألوف سمعت نفس الآهات . . . وعرفونى . . وكيف لا ! لقد كانت زيارتى الاولى حدثا كبيرا فى حياتهم ، وحيث تكون الاحداث قليلة تبقى فى الذاكرة طويلا . وعندما دخلت قاعة الجلوس رأيت الام ، التى اصبحت اكثر بدانة وأبيضّ شعرها ، تزحف على الارض وهى تفصّل قماشا أزرق ، وكانت الابنة جالسة على الكنبة تطرز . نفس البترونات ، ونفس رائحة مسحوق العثة ، ونفس اللوحة بزاويتها المكسورة . ومع ذلك كان هناك بعض التغيير . فبجوار صورة المطران علقت صورة

بيوتر سيميونتش ، وارتدت السيدات ثياب الحداد . لقد مات بيوتر سيميونتش بعد اسبوع من ترقيته الى رتبة جنرال .

وبدأت الذكريات . . . وأجهشت زوجة الجنرال وهى تقول :

— حلت بنا فاجعة كبيرة ! بيوتر سيميونتش — هل تعلم ؟ — لم يعد على قيد الحياة . أصبحنا انا وهى يتامى ، وعلينا ان نعنى بشئوننا بأنفسنا . اما يجور سيميونتش فلا نستطيع ان نقول عنه أى شيء طيب . لم يقبلوه فى الدير بسبب . . . مشروباته القوية . والآن أصبح يشرب اكثر من جراء الحزن . اننى انوى الذهاب الى رئيس النبلاء للشكوى . تصور انه فتح الصناديق عدة مرات و . . . استولى على جهاز مانيتشكا وتبرع به للسائلين . بدد محتويات صندوقين ! واذا استمر الحال هكذا فستبقى ابنتى مانيتشكا بدون جهاز اطلاقا . . . .

فقالت مانيتشكا وهى تشعر بالخجل :

— ماذا تقولين يا maman ! حضرته قد يتصور الله يعلم ماذا . . . انا لن اتزوج ابدا ، ابدا !

وتطلعت مانيتشكا الى السقف بالهام وأمل ، ويبدو انها لم تكن تؤمن بما تقوله .

وفى المدخل مرق ظل لرجل صغير بصلعة كبيرة وفى سترة بنية ، ينتعل خفا بدلا من الحذاء ، وخشخش هناك كالفأر .

وقلت لنفسى : «لا بد انه يجور سيميونتش» .

ونظرت الى الأم وابنتها معا . لقد هرمتا كلتاهما بشدة وهزلتا . وتموجت رأس الأم بلون فضى ، اما ابنتها فانطفأ

لونها وذبلت ، وبدا وكأن الأم لا تكبرها الا بخمس سنوات لا اكثر .

— اننى أنوى الذهاب الى رئيس النبلاء — قالت العجوز وقد نسيت انها تحدثت عن ذلك من قبل — أريد ان اشتكى له ! يجور سيميونتش يستولى منا على كل ما نخيطه ، ويتبرع به فى مكان ما للتكفير عن ذنوبه . ابنتى مانيتشكا أصبحت بدون جهاز !

وتضرجت مانيتشكا ولكنها لم تنبس بكلمة .

— نضطر الى خياطة كل شىء من جديد ، ونحن والله يعلم لسنا اغنياء . انا وهى يتامى !

ورددت مانيتشكا :

— نحن يتامى !

فى العام الماضى القت بى المقادير مرة اخرى الى البيت المعهود . وعندما دلفت الى غرفة الجلوس رأيت العجوز تشيكماسوفا . كانت جالسة على الكنبة تخيط شيئا ما ، وكانت ترتدى فستانا اسود بحواشى الحداد . وجلس بجوارها رجل عجوز فى سترة بنية وخف بدلا من الحذاء . وعندما رآنى قفز واقفا وركض خارجا من الغرفة .

وابتسمت العجوز ردا على تحيتى وقالت :

— Je suis charmée de vous revoir, monsieur. *

وسألتها بعد قليل :

— ماذا تخيطين ؟

---

* سعيدة جدا برؤيتكم ثانية يا سيدى (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

فقالت هامسة :

— هذا قميص . سأخيطه واحمله الى أبينا لأخبئه عنده ، والا أخذه يجور سيميونتش . اصبحت الآن اخبىء كل شيء عند أبينا . . .

ثم نظرت الى صورة ابنتها الموضوعة امامها على الطاولة ، وتنهدت ثم قالت :

— اننا يتامى !

ولكن اين ابنتها ؟ اين مانيتشكا ؟ لم أسألها . لم أشأ ان اسأل هذه العجوز المجللة بسواد الحداد . وطوال مكوثي في البيت واثناء انصرافي لم تخرج مانيتشكا للقائي ، ولم أسمع لا صوتها ولا خطواتها الخافتة الوجلة . . . كان كل شيء واضحا ، وتملكني انقباض شديد .

١٨٨٣

ابنة ألبيون *

اقتربت من دار الاقطاعى جريابوف عربة رائعة ذات عجلات من المطاط وحوذى سمين ومقعد من المخمل . وقفز من العربة رئيس نبلاء الناحية فيودور أندريتش أتسوف . وفى المدخل استقبله خادم نعسان .

وسأل رئيس النبلاء :

— السادة فى البيت ؟

— لا يا سيدى . السيدة ذهبت مع الاولاد فى زيارة ، اما السيد فذهب مع الموزموزيل المربية لصيد السمك . منذ الصباح .

وقف أتسوف قليلا وفكر ، ثم توجه الى النهر ليبحث عن جريابوف . ووجده على بعد فرسخين من البيت حين اقترب من النهر . وعندما تطلع أتسوف من الشاطئ المرتفع الى اسفل ورأى جريابوف ندت عنه ضحكة . . . فقد كان جريابوف ، وهو رجل ضخم ، ذو رأس كبير جدا ، جالسا على الرمل متربعا على الطريقة التركية ، يصطاد السمك .

---

* ألبيون — اسم قديم لانجلترا . **المعرب** .

وكانت قبعته منزلقة على قفاه ، ومالت ربطة عنقه جانبا .
وبجواره وقفت انجليزية طويلة نحيفة بعينين جاحظتين كعيني سرطان البحر وانف كبير كمنقار الطيور ، يبدو اشبه بالشص منه بالانف . وكانت ترتدى فستانا أبيض من الموسلين بدت من خلال نسيجه الشفاف بوضوح كتفاها الصفراوان النحيلتان . ومن حزامها الذهبى تدلت ساعة ذهبية . وكانت هى ايضا تصطاد . ومن حولهما خيم صمت كصمت القبور . كانا كلاهما ساكنين كالنهر الذى طفت عليه عوامتا سنارتيهما .

وضحك أتسوف قائلا :

— الرغبة كبيرة والنتيجة مريرة . . مرحبا يا ايفان كوزمتش .

فقال جريابوف دون ان يحول عينيه عن الماء :

— آه . . أهو انت ؟ وصلت ؟

— كما ترى . . . وانت ما زلت تزاول التفاهات ! لم تتخل عنها بعد ؟

— يا للشيطان . . . طول النهار أصيد ، منذ الصباح . الصيد اليوم سيئ لا أدرى لماذا . لم اصطد شيئا لا انا ولا هذه البعبع . نجلس ونجلس ولا نمسك حتى بشيطان واحد . . كارثة !

— ابصق على ذلك ، هيا نشرب فودكا !

— انتظر . . ربما اصطدنا شيئا . قرب المساء يتحسن الصيد . . انني جالس هنا يا أخى منذ الصباح ! ملل فظيع لا استطيع ان اصفه لك . يا للشيطان الذى جعلنى اتعلق بهذا الصيد ! انني أعرف انه هراء ، ومع ذلك اجلس ! اجلس مثل أحد الاوغاد ، مثل المحكوم بالاشغال الشاقة ، وأحدق فى الماء كالأحمق ! ينبغى ان اذهب للمحصد

ولكنى اصيد السمك . بالامس فى خابونيفو أقام البطريرك قداسا ولم أذهب ، بل جلست هنا مع هذه الحفشة . . مع هذه الشيطانة . . . .

— ما هذا . . هل جننت ؟ — قال أتسوف بخجل وهو ينظر ناحية الانجليزية . — تسب فى حضرة سيدة . . بل وتسبها هى . . . .

— فلتذهب الى الشيطان ! سيان ، فهى لا تفقه حرفا بالروسية . سواء بالنسبة لها ان تمدحها ام تسبها ! انظر الى أنفها ! انه وحده يجعلك تسقط فاقد الوعى ! نجلس اياما طويلة معا فلا تتفوه بكلمة ! تقف كفزاعة الطيور ، وتبحلق فى الماء بعيونها الجاحظة .

تثاءبت الانجليزية وغيرت الطعم ، ثم القت بالسنارة فى الماء .

ومضى جريابوف يقول :

— اننى ادهش كثيرا يا أخى . تعيش فى روسيا منذ عشر سنوات ولا تعرف كلمة واحدة بالروسية ! . . بينما يذهب اى اقطاعى صغير من عندنا اليهم وعلى الفور يبدأ يرطن بلغتهم . . اما هم فالشيطان يدرى ما هذا ! انظر الى أنفها ! الى انفها انظر !

— حسنا ، كفاك . . . هذا محرج . . ماذا فعلت هذه المرأة حتى تنهال عليها ؟

— انها ليست امرأة بل آنسة . . لا بد انها تحلم بالعرسان هذه الدمية الملعونة . . وتفوح منها رائحة عطن . . كم امقتها يا أخى ! لا استطيع ان انظر اليها دون انفعال ! ما ان تحدق فيّ بعينيها الكبيرتين حتى ينتفض بدنى كله

كأن مرفقى ارتطم بالدرابزين . انها ايضا تحب صيد السمك . انظر : انها تصطاد وتتعبد ! وتنظر الى كل شيء باحتقار . . . تقف هذه الماكرة وتحس نفسها انسانا ، اى سيد الطبيعة . فهل تدرى ما اسمها ؟ ويلكا تشارلزوفنا تفايس ! تفو . . لا يمكن نطقه !

وعندما سمعت الانجليزية اسمها حولت أنفها ببطء صوب جريابوف وقاسته بنظرة احتقار . ورفعت عينيها عن جريابوف الى أتسوف وغمرته بالاحتقار ايضا . وجرى كل ذلك فى صمت وعظمة وبطء .

فقال جريابوف وهو يقهقه :

— هل رأيت ؟ كأنها تقول : ها كم ! آه أيتها البعبع ! اننى لا أبقي على هذه الدودة الا من اجل الاطفال . ولولاهم لما سمحت لها بالاقتراب من ضيعتى لعشرة فراسخ . . . أنفها بالضبط كمنقار الصقر . . وخصرها ؟ هذه الدمية تذكرنى بمسمار طويل . أود لو أمسكتها ودققتها فى الارض . مهلا . . يبدو ان سنارتى تغمز . . .

وقفز جريابوف وشد السنارة . وتوتر الخيط . . . وشدها جريابوف مرة اخرى فلم يخرج الشص .

فقال وهو يتأفف :

— يا للشيطان ! اشتبكت ! يبدو اشتبكت بحجر . . .

وارتسمت المعاناة على وجه جريابوف . وراح يزفر ويتحرك بقلق وهو يدمدم باللعنات ويشد الخيط . ولكن الشد لم يعد بنتيجة . وامتقع جريابوف ، وقال :

— يا للأسف ! ينبغى ان انزل الى الماء .

— دعك من هذا !

— لا يمكن . . . قرب المساء يتحسن الصيد . . يا لها من مهزلة ، فليسامحنى الله . سأضطر الى نزول الماء ، سأضطر ! وآه لو تعلم كم اننى لا أود نزع ثيابى ! يجب ان نطرد الانجليزية . . . من المحرج ان أخلع ملابسى امامها . فهى مع ذلك سيدة !

ونزع جريابوف القبعة وربطة العنق . وقال مخاطبا الانجليزية :

— يا ميس ، إ—إ—إ . . . يا ميس تفايس . . جى فو برى * . . . كيف أوضح لها ؟ كيف أقول لك لكى تفهمى ؟ اسمعى . . . الى هناك ! اذهبى الى هناك ! أتسمعين ؟

وغمرت ميس تفايس جريابوف بالاحتقار وصدر عنها صوت أنفى .

— ماذا ؟ لا تفهمين ؟ أقول لك امشى من هنا ! أريد ان اخلع ملابسى ايتها المصيبة ! امشى الى هناك ! الى هناك !

وشد جريابوف الميس من ذراعها وأشار لها الى الخمائل وجلس ، يريد بذلك ان يقول لها : اذهبى الى الخمائل واختبئى هناك . . . ولعّبت الانجليزية حاجبيها بحيوية وقالت بسرعة جملة انجليزية طويلة . وانفجر الاقطاعيان ضاحكين .

— هذه اول مرة فى حياتى اسمع صوتها . . يا له من صوت ! انها لا تفهم ! ماذا أفعل معها ؟

---

* من الفرنسية : Je vous pris — ارجوك . **المعرب** .

— دعك منها ! هيا بنا نشرب فودكا !

— لا يمكن . . الصيد الآن سيكون أحسن . . فى المساء . . . ولكن ما العمل ؟ يالها من مهزلة ! سأضطر ان اخلع ملابسى فى حضورها . . .

والقى جريابوف بالسترة والصديرى ، وجلس على الرمل ليخلع حذاءه .

فقال رئيس النبلاء وهو يكتم ضحكه فى قبضته :

— اسمع يا ايفان كوزميتش ، ان هذا يا صديقى تهكم ، امتهان .

— لم يطلب منها أحد الا تفهم . فليكن درسا لهم ، لهؤلاء الأجانب !

نزع جريابوف حذاءه ، وتجرد من ملابسه الداخلية وأصبح كما ولدته أمه . وأمسك أتسوف ببطنه واحمر من الضحك والخجل . ولعّبت الانجليزية حاجبيها وطرفت عيناها . . . وعلى وجهها الاصفر طافت ابتسامة احتقار متعالية .

وقال جريابوف وهو يربت على فخذيه :

— ينبغى ان أبرِّد جسمى قليلا . قل لى يا فيودور أندريتش من فضلك ، لماذا يظهر الطفح على صدرى كل صيف ؟

— اسرع بالنزول يا حيوان ، او استر نفسك بشىء !

فقال جريابوف وهو ينزل الى الماء راسما علامة الصليب :

— لو انها تخجل هذه الفاجرة ! . . بررر . . الماء بارد . . انظر كيف تلعّب حاجبيها ! ولا تبتعد . . . تتعالى على الغوغاء ! هىء—هىء—هىء . . لا تعتبرنا بشرا !

وعندما غاص فى الماء الى ركبتيه ، شد قامته الهائلة

وغمز بعينه قائلا :

— دعها تعلم يا أخى اننا لسنا فى انجلترا !

وغيرت ميس تفايس الطعم ببرود ، وتثاءبت ، والقت بالسنارة . وحول أتسوف نظره . وفك جريابوف الشص المشتبك وغطس فى الماء ، ثم خرج وهو يشهق ، وبعد دقيقتين كان جالسا على الرمل يصطاد من جديد .

١٨٨٣

البدين والنحيف

في محطة سكة حديد نيقولاي التقى صاحبان : احدهما بدين والآخر نحيف . كان البدين قد تغدى لتوه في المحطة ولمعت شفتاه من الدهن كما تلمع ثمار الكرز الناضجة . وفاحت منه رائحة النبيذ والحلويات المعطرة . أما النحيل فكان خارجا لتوه من عربة القطار محملا بالحقائب والصرر وعلب الكرتون . وفاحت منه رائحة لحم الخنزير والقهوة الرخيصة . ولاحت من وراء ظهره امرأة نحيفة طويلة الذقن . . زوجته ، وتلميذ طويل بعين مزرورة . . ابنه .

وهتف البدين عندما رأى النحيف :

— بورفيري ! أهو أنت ؟ يا عزيزي ! كم مر من أعوام لم أرك !

ودهش النحيف :

— يا سلام ! ميشا ! يا صديق الطفولة ! من أين جئت ؟

وتبادل الصاحبان القبلات ثلاثا ، وحدق كل منهما في الآخر بعينين مغرورقتين بالدموع . وكانا كلاهما في حالة من الذهول اللذيذ .

وقال النحيف بعد القبلات :

— يا عزيزى ! لم اتوقع ابدا ! يالها من مفاجاة ! هلا نظرت اليّ جيدا ! جميل كما كنت ! حبوب وغندور كما كنت ! آه يا الهى ! كيف أحوالك ؟ أصبحت غنيا ؟ تزوجت ؟ انا تزوجت كما ترى . . وهذه زوجتى ، لويزا . . من عائلة فانسنباخ . . . بروتستانتية . . . اما هذا فابنى ، نفانائيل ، تلميذ بالصف الثالث . يا نفانيا ، هذا صديق طفولتى ! درسنا معا فى المدرسة .

وفكر نفانائيل قليلا ثم نزع قبعته .

ومضى النحيف يقول :

— درسنا معا فى المدرسة ! اتذكر كيف كانوا يغيظونك ؟ بلقب هيروستراتوس لأنك احرقت بالسيجارة كتاب عهدة ، وكانوا يغيظوننى بلقب افيالتوس لأننى كنت أحب النميمة . ها — ها . . كم كنا صغارا ! لا تخف يا نفانيا . . . اقترب منه . . . وهذه زوجتى ، من عائلة فانسنباخ . . . بروتستانتية .

وفكر نفانائيل قليلا ، ثم اختبأ خلف ظهر أبيه .

وسأل البدين وهو ينظر باعجاب الى صديقه :

— كيف حالك يا صديقى ؟ أين تخدم ؟ وماذا بلغت فى الخدمة ؟

— اخدم يا عزيزى ! بلغت محكم هيئة * منذ سنة واحمل وسام ستانسلاف . الراتب سيئ . . فليكن ! زوجتى تعطى دروسا فى الموسيقى ، وأنا أصنع علب سجائر من الخشب . علب ممتازة ! ابيعها الواحدة بروبل . ومن

---

* رتبة مدنية من الدرجة الثامنة فى روسيا القيصرية . **المعرب** .

يشترى عشر علب او أكثر اقدم له خصما . نذبر امورنا كيفما كان . اتدرى ، كنت أخدم فى الادارة ، وقد نقلت الى هنا الآن كرئيس قسم تبع نفس الوزارة . . . سوف أخدم هنا . وانت ، كيف ؟ اظنك بلغت مستشار دولة ؟ هه ؟

فقال البدين :

— لا يا عزيزى ، بل أعلى . . لقد بلغت المستشار السري * . . أحمل نجمتين .

وفجأة أمتقِـع النحيف ، وتجمد ، ولكن سرعان ما التوى فمه فى جميع الاتجاهات ليصنع ابتسامة عريضـة للغاية . وبدا وكأن الشرار قد تطاير من وجهه وعينيـه . اما هو فانكمش وتحدب وضاق . وانكمشت حقائبه وصرره وعلبه وتجعدت . . . واستطال ذقن زوجته الطويل . وشـد نفانائيل قامته وزرر جميع ازرار سترته . . .

— انني يا صاحب السعادة . . . مسرور جدا ! صديق الطفولة ، يعنى ، واذا به يصبح من السادة الأكابر ! هىء — هىء .

فامتعض البدين وقال :

— دعك من هذا ! ما هذه النبرة ؟ اننا اصدقاء الطفولة ، فما معنى عبادة الألقاب هذه !

فضحك النحيف ضحكة صفراء وازداد انكماشا :

— العفو . . ماذا تقولون . . ان اهتمام سعـــادتكم

---

* رتبة مدنية عالية فى روسيا القيصرية تعادل رتبة اللواء . **المعرب** .

الكريم . . . هو كالبلسم الشافى . . . هذا هو ابنـى نفانائيل يا صاحب السعادة . . . وزوجتى لويزا ، بروتستانتية الى درجة ما . . .

واراد البدين أن يعارض بشىء ما ، ولكن وجه النحيف كان يطفح بالتبجيل والتعبير المعسول والخنوع الى درجة اثارت الغثيان فى نفس المستشار السرى . فأشاح بوجهه عن النحيف ومد له يده مودعا .

وصافح النحيف ثلاث أصابع وانحنى بجسده كله وضحك كالصينى : «هىء — هىء — هىء» . وابتسمت الزوجة . ومسح نفانائيل الأرض بقدمه وسقطت منه القبعة . وكانوا ثلاثتهم فى حالة من الذهول اللذيذ .

١٨٨٣

دموع لا يراها العالم

— آه يا سادة يا كرام لو نتعشى الآن . . .

قال القائد العسكرى المقدم ريبروتيوسوف ، وهو رجل طويل نحيف كعمود البرق ، وكان خارجا من النادى مع جماعة من أصحابه ذات ليلة مظلمة من شهر أغسطس . ومضى يقول :

— فى المدن المحترمة ، مثل ساراتوف ، يمكنك دائما أن تتعشى فى النادى ، أما هنا ، فى مدينتنا العفنة تشيرفيانسك ، فبخلاف الفودكا والشاى بالذباب لا تحصل على شىء . ليس هناك ما هو اسوأ من أن تشرب ولا تجد ما تمز به !

— نعم ، لا بأس الآن بشىء ما ، هكذا يعنى . . . — أمَّن مفتش المعهد الدينى ايفان ايفانيتش دفويتوتشيف وهو يلتف بمعطفه الأصفر اتقاء للريح — الساعة الآن الثانية ، والحانات مغلقة ، آه لو يعنى فسيخة مملحة . . أو فطر مخلل . . أو يعنى شىء ما هكذا . . .

وحرك المفتش اصابعه فى الهواء ، ورسم على وجهه أكلة ، يبدو أنها شهية جدا ، لأن كل من نظروا الى وجهه لعقوا شفاههم . وتوقفت الجماعة عن السير وأخذت تفكر .

وفكرت طويلا ، ولكن تفكيرها لم يتفتق عن شيء يؤكل . واضطرت الى الاكتفاء بالأحلام فقط .

وتنهد نائب مأمور المركز بروجينا — بروجينسكى وقال :

— يا له من ديك رومى عظيم ذلك الذى أكلته بالأمس عند جولوبيسوف . . . بالمناسبة يا سادة ، ألم يزر أحد منكم وارسو ؟ هناك يفعلون هكذا . . يأخذون سمك الشبوط العادى ، وهو حي . . يتلوى ، ويلقون به فى اللبن . . . ويظل هذا الوغد يعوم فى اللبن يوما ، وبعد ذلك يغمسونه فى القشدة ويقلونه فى مقلاة تطشطش . . وعند ذلك لا حاجة يا أخى لأناناسك ! أى والله . . خاصة اذا شربت كأسا أو كأسين . . تأكل ولا تحس . كأنك فى غيبوبة . . . الرائحة وحدها تجنن ! . .

فأردف ريبروتيوسوف بنبرة مشاركة قلبية :

— فاذا اضفت اليه خيارا مملحا . . . عندما كنا معسكرين فى بولندا كان يحدث أن تحشر فى جوفك حوالى المائتين من البيلمينى مرة واحدة . . . تملأ بها طبقا كاملا ، وترش عليها الفلفل والشبت والبقدونس و . . . لا أستطيع ان أعبر لكم !

وتوقف ريبروتيوسوف فجأة واستغرق فى التفكير . تذكر حساء السمك الذى أكله عام ١٨٥٦ فى دير الثالوث الأقدس . وكانت ذكرى هذا الحساء لذيذة الى درجة ان القائد العسكرى شم فجأة رائحة السمك وحرك فكيه لا اراديا ولم يلحظ تسرب الوحل الى خف حذائه .

وقال :

— كلا ، لا أستطيع ، لا أستطيع أن أصبر اكثر !

سأذهب الى البيت وأمتع نفسى . اسمعوا يا سادة ، فلتأتوا معى ! أى والله ! لنشرب كأسا ، ونمز بما رزقنا به الله . خيار ، مرتدلة . . ونشعل السماور . . هه ؟ لنمز ، ونتحدث عن الكوليرا ، ونتذكر ما مضى . . . زوجتى نائمة الآن ، لن نوقظها . . سنجلس فى هدوء . . . هيا بنا !

ولا حاجة لوصف الاعجاب الذى قوبل به هذا العرض . يكفى فقط أن أقول أنه لم يكن لدى ريبروتيوسوف فى أى وقت مضى مثل هذه الكثرة من الخيِّرين كما كان لديه فى هذه الليلة .

— سأقطع أذنيك . . . — قال القائد العسكرى لجندى المراسلة وهو يدخل بالضيوف الى غرفة الجلوس المظلمة — قلت لك ألف مرة يا حيوان أن تشعل البخور عندما تنام فى المدخل . اذهب يا غبي واشعل السماور ، وقل لايرينا أن تحضر الـ . . . أن تحضر من القبو خيارا وفجلا . . ونظف بعض الفسيخ . . وقطِّع بصلا أخضر ورش عليه شبتا هكذا . . يعنى . . وقطِّع البطاطس دوائر . . والبنجر أيضا . . وكل هذا صب عليه الخل والزيت ، يعنى ، والمسطردة أيضا . . . ورش الفلفل فوقه . . باختصار طبق مزة . . مفهوم ؟

وحرك ريبروتيوسوف أصابعه مصورا الخلطة ، وأضاف الى المزة بتعابير وجهه ما لم يستطع أن يضيفه بالكلمات . . وخلع الضيوف أخفافهم ودلفوا الى القاعة المظلمة . وأشعل صاحب البيت عود ثقاب ففاحت رائحة الكبريت ، وأضاء الجدران المزينة بهدايا مجلة «نيفا» ومناظر البندقية وصورتين للكاتب لاجيتشنيكوف وجنرال ما بعينين مدهوشتين للغاية .

— حالا ، حالا . . . — همس رب الدار وهو يوسع

المنضدة بهدوء . — سأعد المائدة ثم نجلس . . ماشا زوجتى مريضة اليوم . . ارجو المعذرة اذن . . عندها مرض نسائى ما . . . الدكتور جوسين يقول ان ذلك بسبب أكل الصيام . . جائز جدا ! ولكنى أقول لها : «يا روحي ، ليست المسألة فى الأكل ! ليست المسألة فيما يدخل الفم بل فيما يخرج من الفم . . . فأنت تأكلين أكل الصيام ، ولكنك عصبية كما كنت . . . وبدلا من أن تتعبى جسدك ، الأفضل ألا تغضبى ، وألا تتفوهى بكلمات . . .» ولكنها لا تريد حتى أن تسمع ! تقول : «لقد تعودنا على ذلك منذ الصغر» .

ودخل جندي المراسلة ، ومد عنقه ، وأسر بشىء ما فى أذن رب الدار . . ولعّب ريبروتيوسوف حاجبيه . . .

ودمدم بصوت كالخوار :

— هم . . نعم . . هم . . هكذا . . عموما بسيطة . . حالا سأعود . . دقيقة واحدة . . ماشا أوصدت القبو والخزائن فى وجه الخدم واخذت المفاتيح . ينبغى أن اذهب لاحضارها . . . .

وصعد ريبروتيوسوف على اطراف أصابعه ، وفتح الباب بهدوء ، ودخل على زوجته . . .. كانت نائمة .

وقال وهو يقترب بحذر من السرير :

— يا ماشا ! استيقظى دقيقة واحدة يا ماشا !

— من ؟ أهو أنت ؟ ماذا تريد ؟

— أنا يا ماشنكا بخصوص الـ . . . اعطينى يا ملاكى المفاتيح ولا تقلقى . . . نامى مطمئنة . . أنا سأهتم بهم . . سأعطى كلا منهم خيارة ، ولن أبدد اكثر من ذلك شيئا . . اقسم لك . . . هناك دفويتوتشيف ، اتدرين ، وبروجينا —

بروجينسكى واخرون . . . كلهم اشخاص رائعون . . . محترمون فى المجتمع . . . أتدرين بروجينسكى يحمل وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة . . . أوه ، كم يحترمك . . .

— أين سكرت الى هذا الحد ؟

— ها أنت تغضبين . . . يا سلام عليك . . . سأعطى كلا منهم خيارة ، وهذا كل شىء . . وسينصرفون . . . أنا سأهتم بهم ولن نزعجك ابدا . . نامى يا لعبتى . . هه ، وكيف صحتك ؟ هل جاء جوسين فى غيابى ؟ انظرى ، ها انذا أقبل يدك . . والضيوف كلهم ، كم يحترمونك . . دفويتوتشيف رجل متدين ، أتدرين . . . وبروجينا ، والصراف أيضا . . . كلهم يكنون لك أطيب المشاعر . . . يقولون : «ماريا بتروفنا ليست امرأة بل شىء عسير على الفهم . . . انها كوكب اقليمنا» .

— ارقد ! كفاك هذرا ! يسكر هناك فى النادى مع صعاليكه ثم يروح يغلى طول الليل ! الا تخجل ! عندك أولاد !

— أنا . . . عندى أولاد ، ولكن أرجوك الا تغضبى يا ماشا . . لا تحزنى . . اننى اقدرك وأحبك . . . والأولاد ان شاء الله سأدبر أمورهم . ميتيا سأدخله المدرسة . . . لا استطيع أن اطردهم . . . لا يليق . . . جاءوا ورائى وطلبوا أن يتعشوا . قالوا : «نريد أن نأكل ، اطعمنا» . . . دفويتوتشيف وبروجينا — بروجينسكى . . . ناس ظرفاء جدا . . . كم يقدرونك ويعطفون عليك . . فلنعط كلا منهم خيارة ، وكأسا ، وليمضوا فى سبيلهم . . . أنا سأتكفل بهم . . .

— اللعنة ! ماذا ، هل جننت ؟ أى ضيوف فى

هذه الساعة ؟ الا يخجلون ، هؤلاء الشياطين المتسولون ، يزعجون الناس فى الليالى ! من سمع بضيوف يأتون فى الليل ؟ هل يظنون بيتنا حانة ؟ سأكون حمقاء لو أعطيتك المفاتيح ! فليفيقوا وليعودوا غدا !

— هم . . . هلا قلت هذا من البداية . . . اذن لما تذللت أمامك . . . اذن فأنت لست بشريكة العمر ، لست سلوى زوجك كما جاء فى الكتاب ، بل . . . من العيب أن أقول . . . كنت أفعى وظللت أفعى . . .

— آه . . . وتشتم أيضا يا وغد ؟

ونهضت الزوجة و . . . حكَّ القائد العسكرى خده ، ومضى يقول :

— ميرسي . . . صحيح ما قرأته فى احدى المجلات : «بين الناس قديس ، ومع زوجها إبليس» . . عين الحقيقة . . كنت إبليس ، وظللت إبليس . . .

— خذ ، خذ !

— اضربـى ، اضربـى . . اضربـى زوجك الوحيد ! ولكنى أرجوك ، أتوسل اليك . . . يا ماشا . . . . سامحينى ! اعطينى المفاتيح ! ماشا ، يا ملاكى ! يا معذبتى الشريرة ، لا تفضحينى أمام الناس ! ايتها المتوحشة ، الى متى ستعذبيننى ؟ اضربـى . . اضربـى . . ارجوك . . . بل اتوسل اليك !

واستمر حديث الزوجين بهذه الصورة طويلا . . . ركع ريبروتيوسوف على ركبتيه ، وبكى مرتين ، وسب وهو يحك خده بين الحين والحين . . . وانتهى الأمر بأن نهضت زوجته وبصقت وقالت :

— يبدو لن تكون نهاية لعذابي ! أعطني فستاني من على المقعد أيها الكافر !

وقدم لها ريبروتيوسوف الفستان بحرص ، وسوى شعره ، وذهب الى ضيوفه . كان الضيوف واقفين امام صورة الجنرال يتطلعون الى عينيه المندهشتين وهم يقررون مسألة : من الاكبر ، الجنرال أم الكاتب لاجيتشنيكوف ؟ وكان دفويتوتشيف في صف لاجيتشنيكوف ، مشددا على الخلود . أما بروجينسكى فقد قال :

— بالطبع هو كاتب جيد ، لا شك في هذا . . . ويكتب فيثير الضحك والشفقة ، ولكن لو ارسلته الى الجبهة فلن يستطيع قيادة حتى سرية ، أما الجنرال فلتعطه ولو فيلقا كاملا ، لن يهمه . . .

وقال رب الدار وهو يدخل مقاطعا :

— زوجتى ماشا ستأتى الآن . . . حالا . .

— لقد ازعجناكم حقا . . . يا فيودور اكيميتش ، ماذا حدث لخدك ؟ يا إلهى ، وتحت عينك كدمة ! أين حصلت على هذا ؟

فقال رب الدار محرجا :

— خدى ؟ أين خدى ؟ آه ، نعم . . . لقد ذهبت الآن الى ماشا متسللا ، اردت أن أخيفها ، واذا بى اصطدم في الظلام بالسرير ! ها — ها . . . ها هى ماشا . . أوه كم أنت مشعثة يا عزيزتى ! مثل لويزا ميشيل تماما !

دخلت ماريا بتروفنا الى القاعة ، مشعثة الشعر ، نعسانة ، ولكنها متهللة ومرحة . وقالت :

— هذا لطيف منكم اذ جئتم الينا ! اذا كنتم لا

تأتون الينا فى النهار فشكرا لزوجى الذى جاء بكم ولو ليلا . كنت نائمة ، واذا بى أسمع اصواتا . . فقلت لنفسى : «يا ترى من هؤلاء ؟» . . . لقد أمرنى فيديا ان ارقد والا اخرج ، ولكننى لم أطق . . .

وهرولت الزوجة الى المطبخ ، وبدأ العشاء . . .

وعندما خرجوا بعد ساعة من دار القائد العسكرى قال بروجينا — بروجينسكى وهو يتنهد :

— ما أطيب أن تكون متزوجا ! تأكل عندما تريد ، وتشرب وقتما تشاء . . . وتعلم ان هناك مخلوقا يحبك . . . ويلعب لك على البيانو شيئا ما ، هكذا . . . ما أسعد ريبروتيوسوف !

اما دفويتوتشيف فلزم الصمت . كان يتنهد ويفكر . وعندما وصل الى البيت وراح يخلع ملابسه ، تنهد بصوت عال حتى أنه أيقظ زوجته .

— لا تدق بحذائك ايها الرحى ! — قالت زوجته . — تمنعنى من النوم . يشرب حتى السكر فى النادى ثم يثير الضجة ، هذا المسخ !

فتنهد المفتش قائلا :

— لا تعرفين سوى السباب ! لو انك رأيت كيف يعيش آل ريبروتيوسوف ! ما أروع حياتهم ! عندما ينظر المرء اليهم يود لو يبكى من التأثر . أنا وحدى التعيس اذ بليت بشمطاء مثلك . افسحى !

وتغطى المفتش بالبطانية ، ونام وهو يشكو فى سره حظه البائس .

١٨٨٤

الحرباء

عبر ميدان السوق يسير مفتش الشرطة اتشوميلوف في معطف جديد ويحمل في يده لفافة . ومن خلفه يسير شرطي احمر الشعر ومعه غربال مملوء لحافته بثمار عنب الثعلب المصادرة . والسكون مخيم . . . ولا احد في السوق . . . وتطل ابواب المتاجر والحانات المفتوحة على العالم بنظرة كابية كالاشداق الجائعة . ولا يوجد بجوارها حتى الشحاذون .

وفجأة يسمع اتشوميلوف صوتا يقول :

— آه ، اذن فأنت تعض ايها الملعون . . امسكوه يا أولاد ! العض الآن ممنوع ! امسك ! . . آه ! . .

ويتردد عويل كلب . ويلتفت اتشوميلوف فيرى كلبا يركض من مخزن الحطب التابع للتاجر بتشوجين وهو يقفز على ثلاث ارجل ويتلفت . ويطارده شخص في قميص من الشيت المنشى وصديري مفتوح . يركض وراء الكلب ثم يسقط على الارض مادا جذعه الى الامام ويقبض على ساقي الكلب الخلفيتين . ويتردد من جديد عويل الكلب وصيحة : «امسكوه» . وتطل من المتاجر سحن ناعسة ، وسرعان ما يتجمع الناس بالقرب من مخزن الحطب وكأن الارض انشقت عنهم .

ويقول الشرطى :

— يبدو هنا اضطراب يا صاحب المعالى !

ويستدير اتشوميلوف نصف دورة الى اليسار متجها الى الجمع . ويرى بجوار بوابة المخزن مباشرة الشخص المذكور فى الصديرى المفتوح وهو يرفع يده اليمنى ليرى الجمع اصبعه المدماة . وكأنما كتب على سحنته الثملة : «سوف اريك ايها الملعون» ، واصبعه نفسها تشبه علامة النصر . ويتعرف اتشوميلوف فى هذا الرجل على الصائغ خريوكين . وفى وسط الجمع يجلس المتسبب فى هذه الضجة — جرو صيد ابيض ذو انف حاد وبقعة صفراء على ظهره ، مادا ساقيه الاماميتين ، وجسده كله يرتعش . وفى عينيه الدامعتين نظرة حزن ورعب .

ويسأل اتشوميلوف وهو يقتحم الحشد :

— بأية مناسبة انتم هنا ؟ لماذا هنا ؟ وانت لماذا اصبعك ؟ . . من الذى صاح ؟

ويشرع خريوكين فى الكلام وهو يتنحنح فـــــى قبضته :

— كنت سائرا يا صاحب المعالى لا امس احدا . . بخصوص الحطب مع ميترى ميتريتش . . . وفجأة اذا بهذا الوغد ، ودون اى سبب ينهش اصبعى . . . ارجو المعذرة ، فانا رجل ، يعنى ، من العاملين . . . وعملى دقيق . . . فليدفعوا لى ، لانى ربما لا استطيع ان احرك هذه الاصبع اسبوعا . . . ولا يوجد فى القانون يا صاحب المعالى ما ينص على ان يتحمل الانسان هذه المخلوقات . . . فلو ان كل

واحد أخذ يعض ، فالافضل الا يعيش الانسان على ظهر الارض . . . .

فيقول اتشوميلوف بصرامة وهو يسعل ويحرك حاجبيه :

— هم ! حسنا . . . حسنا . . . كلب من هذا ؟ انا لن ادع ذلك هكذا ! سأريكم كيف تطلقون كلابكم ! آن أن ننتبه الى اولئك السادة الذين لا يريدون ان يمتثلوا للقوانين ! عندما يدفع الغرامة هذا الوغد سيعرف ما معنى الكلاب وغيرها من الدواب الضالة ! سأريه العفاريت الزرق ! — ويخاطب الشرطي — يلديرين ، اعرف كلب من هذا واكتب محضرا ! اما الكلب فينبغي اعدامه . فورا ! لا بد أنه مسعور . . . اننى اسألكم كلب من هذا ؟

ويقول شخص من الجمع :

— يبدو انه كلب الجنرال جيجالوف !

— الجنرال جيجالوف ؟ هم ! انزع عنى المعطف يا يلديرين . . . اف ، يا للحر ! يبدو ان المطر سيسقط . . . شيء واحد لا افهمه ، كيف استطاع ان يعضك — يقول مخاطبا خريوكين — امن المعقول انه يطال اصبعك ؟ انه صغير اما انت فانظر ما طولك ! يبدو انك جرحت اصبعك بمسمار ، وخطرت لك فكرة ان تحصل على تعويض . . . انتم هكذا . . . اعرفكم ايها الشياطين !

— يا صاحب المعالى ، كان يلسعه بالسيجارة فى وجهه ليضحك عليه ، فلم يكذب الكلب خبرا وعضه . . . انه شخص مشاكس يا صاحب المعالى !

— كذاب يا أحول ! انت لم تر شيئا فلماذا تكذب ؟ ان معاليه سيد ذكى ويعرف من الكذاب ومن الشريف النقى الضمير امام الله . . . واذا كنت اكذب فليحكم القاضى . . . فلديه مكتوب فى القوانين . . . الجميع الآن سواسية . . . وانا لى اخ فى الدرك ، اذا اردت ان تعلم . . .

— ممنوع الكلام !

ويقول الشرطى بنبرة تأمل عميق :

— كلا ، هذا ليس كلب الجنرال . ليس لدى الجنرال كلاب كهذه . . . كلابه اكثرها سلوقية . . .

— هل انت متأكد ؟

— متأكد يا صاحب المعالى . . .

— انا نفسى اعرف ذلك . كلاب الجنرال غالية ، أصيلة ، اما هذا . . . فالشيطان يعلم ما هو ! لا شعر ولا هيئة . . . مجرد حقارة لا غير . أهذا كلب يقتنى ؟ ! اين عقولكم ؟ لو ان كلبا كهذا ظهر فى بطرسبرج او موسكو ، اتعلمون ماذا كان يحدث ؟ ما كان احد ليلتفت الى القانون ، بل على الفور ولا كلمة ! هس ! انت يا خريوكين قد تضررت ولا تدع الامر يمر هكذا . . . ينبغى ان نؤدبهم . . . آن الاوان !

ويقول الشرطى وهو يفكر بصوت مسموع :

— وربما كان كلب الجنرال . . . فليس مكتوبا على سحنته . . . رأيت من مدة كلبا مثله فى فناء منزله .

ويقول صوت من الحشد :

— واضح ، كلب الجنرال !

— هم ! البسنى المعطف يا يلديرين . . . يبـــدو ان النسيم يهب . . لقد بردت . . . احمله الى الجنرال واسأل هناك . قل لهم اننى وجدته وارسلته . . . وقل لهم ايضا الا يخرجوه الى الشارع . . . فهو كلب ربما غال ، واذا اخذ كل خنزير يلسعه بالسيجارة فى وجهه فمن السهل اتلافه . . الكلب حيوان مهم . . . وانت ايها الغبـى انزل ذراعك ! كفاك ابرازا لاصبعك الحمقاء ! انت المذنب ! . .

— ها هو طباخ الجنرال قادم ، فلنسأله . . . إى ، يا بروخور . . . تعال هنا يا عزيزى . . . انظر الى هذا الكلب . . . اهو كلبكم ؟

— يا سلام ! لم يكن لدينا ابدا كلاب مثله !

فيقول اتشوميلوف :

— ليس هناك داع للسؤال . . هذا كلب ضال ! لا داع للكلام الكثير . . . اذا قلت انه ضال فهو ضال . . . ينبغى اعدامه وكفى .

واستطرد الطباخ :

— ليس كلبنا ، انه كلب شقيق الجنرال الذى وصل من مدة . جنرالنا لا يحب كلاب الصيد . اما اخوه فيحبها .

ويسأل اتشوميلوف ويفيض وجهه بابتسامة تأثر :

— احقا وصل شقيق الجنرال ؟ فلاديمير ايفانتش ؟ آه يا ربـى ! وانا لا اعلم ! هل جاء للزيارة ؟

— للزيارة . . .

— آه يا ربـى . . . اوحشه شقيقه . . . وانا لا اعلم ؟ اذن فهذا كلبه ؟ سعيد جدا . . . خذه . . . ياله من كلب ! شقى . . . هبش هذا من اصبعه . . . ها — ها — ها . . .

مالك ترتعش ؟ . . اوه انه غاضب هذا الماكر . . . يالك من صغير . .

ويدعو بروخور الكلب ويمضى معه مبتعدا عن مخزن الحطب . . ويقهقه الجمع سخرية بخريوكين .

ويقول له اتشوميلوف متوعدا :

— مهلا ، سوف افرغ لك !

ويمضى فى طريقه عبر ميدان السوق متدثرا بالمعطف .

١٨٨٤

القناع

اقيم في نادى «س» الاجتماعى حفل تنكرى لغرض خيرى .

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا . وجلس المثقفون غير الراقصين — وكانوا خمسة — فى قاعة المطالعة الى طاولة كبيرة ودسوا انوفهم ولحاهم فى الجرائد وراحوا يقرأون وينعسون ، و «يفكرون» على حد تعبير المراسل المحلى لجرائد العاصمة ، وهو سيد ليبرالى جدا .

وتناهت من الصالة العامة انغام رقصة «فيوشكى» . ومن حين لآخر كان الخدم يهرولون بجوار الباب وهم يدقون عاليا باقدامهم ويثيرون رنين الاوانى . بينما كان الصمت العميق يسود قاعة المطالعة .

وفجأة تردد صوت غليظ مكتوم بدا وكأنه صادر من المدفأة .

— يبدو ان المكان هنا سيكون مناسبا . تعالوا هنا يا أولاد ! تعالوا ، تعالوا !

وفتح الباب ، ودخل قاعة المطالعة رجل عريض ، ربعة ، يرتدى حلة حوذى وقبعة بريش طاووس وقناعا . وتبعته سيدتان مقنعتان وخادم يحمل صينية . وكان على

الصينية زجاجة ليكير منبعجة وثلاث زجاجات نبيذ احمر وبضعة اكواب .

وقال الرجل :

— تعالوا ! الجو هنا ابرد . . . ضع الصينية على الطاولة . . . اجلسن يا موزمزيلات ! جي فو بري * ، اما انتم يا سادة فلتفسحوا . . . هيا من هنا !

وتمايل الرجل وازاح بيده عدة مجلات من على الطاولة .

— ضع هنا ! اما انتم ايها السادة القراء . فلتفسحوا . لا وقت هنا لقراءة الجرائد والسياسة . . . دعوا عنكم هذا !

فقال احد المثقفين وهو ينظر الى صاحب القناع من خلال نظارته :

— الزم الهدوء من فضلك . هذه قاعة مطالعة وليس بوفيه . . . ليس هذا مكانا للشرب .

— ولماذا ليس مكانا ؟ هل الطاولة تتأرجح ام ربما السقف يتساقط ؟ شيء عجيب ! حسنا . . . لا وقت عندي للحديث ! اتركوا الجرائد . . . يكفيكم ما قرأتم . . . انتم هكذا اذكياء اكثر من اللازم ، كما انكم تتلفون ابصاركم . واهم ما في الامر انني لا اريد . انتهينا .

ووضع الخادم الصينية على الطاولة ، وطوى الفوطة على ذراعه ووقف بجوار الباب . وشرعت السيدتان فورا في تناول النبيذ الاحمر .

---

* جي فو بري (Je vous pris) — ارجوكم ، من فضلكم (بالفرنسية) . **المعرب** .

وقال الرجل ذو ريش الطاووس وهو يصب لنفسه ليكيرا :

— كيف يوجد اناس اذكياء يعتبرون الجرائد افضل من هذه المشروبات . اما انا فأرى ايها السادة المحترمون انكم تحبون الجرائد لانكم لا تملكون ما تشربون به ، اليس كذلك ؟ ها — ها ! . . انهم يقرأون ! حسنا وما هو المكتوب هناك ؟ ايها السيد ذو النظارة ، اية وقائع تقرأ ؟ ها — ها ! دعك من ذلك ! كفاك تمنعا . اشرب افضل .

ونهض الرجل ذو ريش الطاووس وانتزع الجريدة من يدي السيد ذى النظارة ، فامتقع هذا ، ثم تضرج ونظر بدهشة الى بقية المثقفين ، ونظر هؤلاء اليه .

وانفجر قائلا :

— انك تتجاوز حدودك يا سيدى المحترم . انك تحول قاعة المطالعة الى حانة . . . انك تسمح لنفسك بالعربدة واختطاف الجرائد من الايدى ! لن اسمح لك ! انت لا تعرف مع من تتحدث يا حضرة المحترم ! انا جيستياكوف ، مدير البنك !

— طظ ، فلتكن جيستياكوف ! اما جريدتك فها هى قيمتها . . .

ورفع الرجل الجريدة ومزقها قطعا .

ودمدم جيستياكوف مصعوقا :

— ما هذا يا سادة ؟ هذا شىء غريب . . . هذا . . . هذا غير معقول . . .

فضحك الرجل قائلا :

— سيادته زعلان ! آى ، آى ، اخفتنى ! اقدامى ترتعش ، اسمعوا ايها السادة المحترمون ! كفى مزاحا . . .

انا لا ارغب فى الحديث معكم . . ولما كنت اريد ان ابقى هنا مع المزموزيلات على انفراد واريد ان امتع نفسى ، لذلك ارجوكم الا تحرنوا ولتخرجوا . . . تفضلوا من هنا ! يا سيد بيليبوخين اخرج من هنا فى ألف داهية ! ما لك تقلب سحنتك ؟ اقول لك اخرج يعنى تخرج ! هيا عجِّل والا اهويت على قفاك !

فتساءل بيليبوخين صراف المحكمة وهو يحمر ويهز كتفيه :

— كيف ! ما معنى هذا ؟ ! انا حتى لا افهم . . . شخص وقح يقتحم علينا المكان . . . وفجأة يتفوه بهذه الاشياء !

فصاح الرجل ذو ريش الطاووس غاضبا ، ودق بقبضته على المائدة حتى تراقصت الاكواب على الصينية :

— ماذا تقول ؟ وقح ؟ لمن تقولها ؟ اتظن اننى ما دمت فى القناع فبوسعك ان توجه لى مختلف الكلمات ؟ يالك من مشاغب ! اخرج من هنا اقول لك ! يا مدير البنك ، انكشح من هنا بالمعروف ! اخرجوا جميعا . اياكم ان يبقى منكم لئيم هنا ! غوروا فى الف داهية !

فقال جيستياكوف الذى غامت نظارته من شدة الانفعال :

— حسنا ، سنرى الآن ! سأريك ! ايه ، استدع الشاويش المناوب !

وبعد دقيقة دخل شاويش صغير احمر الشعر بشريط ازرق على ياقة سترته وهو يلهث من الرقص ، وقال :

— تفضلوا بالخروج . ليس هذا مكانا للشرب ! تفضلوا فى البوفيه !

وسأل الرجل ذو القناع :

— من اين جئت انت ؟ هل انا دعوتك ؟

— ارجو ان تخاطبنى باحترام ، وتفضل بالخروج !

— اسمع يا عزيزى . . . سأمهلك دقيقة . . . وطالما انت شاويش وشخصية مهمة ، فلتسحب هؤلاء الممثلين من ايديهم . مزموزيلاتى لا يعجبهن وجود غرباء هنا . . . يشعرن بالخجل ، وانا اريد مقابل نقودى ان يَكُنَّ فى حالتهن الطبيعية .

وصاح جيستياكوف :

— يبدو ان هذا المأفون لا يفهم انه ليس فى حظيرة. استدعوا يفسترات سبيريدونتش !

وترددت فى النادى :

— يفسترات سبيريدونتش ! اين يفسترات سبيريدونتش ؟

وسرعان ما ظهر يفسترات سبيريدونتش ، وهو عجوز يرتدى حلة شرطى . وصاح بصوت مبحوح وهو يبحلق بعينيه المرعبتين ويحرك شواربه المصبوغة :

— تفضل بالخروج من هنا !

فقال الرجل وهو يقهقه من المتعة :

— آه ، لقد ارعبتنى ! اى والله ارعبتنى ! اقسم لكم اننى لم أر شيئا رهيبا كهذا ! شواربه كشوارب القط ، وعيناه جاحظتان . . . ها — ها — ها ! ها — ها — ها !

فصاح يفسترات سبيريدونتش بكل قوته واهتز بدنه :

— ممنوع الكلام ! اخرج من هنا ! سآمر بطردك !

وارتفع فى قاعة المطالعة صخب لا مثيل له . كان يفسترات سبيريدونتش يصرخ ويدق بقدميه وقد احمر كسرطان البحر . وكان جيستياكوف يصرخ . وكان بيليبوخين يصرخ . كان

جميع المثقفين يصرخون ، ولكن غطى على أصواتهم جميعا صوت الرجل ذى القناع ، الغليظ الاجش . وبسبب الهرج العام توقف الرقص ، وتقاطر الناس من الصالة الى قاعة المطالعة .

ولكى يظهر يفسترات سبيريدونتش هيبته استدعى جميع رجال الشرطة الموجودين فى النادى ، وجلس ليكتب محضرا .

فقال ذو القناع وهو يدس اصبعه تحت القلم :

— اكتب ، اكتب . يالى من مسكين ، ترى ماذا سيحدث لى الآن ؟ يالحظى البائس ! حرام عليكم ما تفعلونه بيتيم مثلى ! ها — ها — ها ! حسنا ، ماذا ؟ هل محضرك جاهز ؟ هل وقع الجميع ؟ فلتنظروا الآن اذن ! . . واحد . . . اثنان . . . ثلاثة ! . .

ونهض الرجل ومد قامته بطولها ونزع القناع عن وجهه . وبعد ان كشف وجهه الثمل وطاف بنظره على الجميع مستمتعا بما احدثه من تأثير ، تهاوى على الكرسى وقهقه بفرح . وبالفعل كان التأثير الذى احدثه غير عادى . تبادل المثقفون النظرات فى ارتباك وامتقعت وجوههم ، وحك بعضهم قفاه . وتحشرج يفسترات سبيريدونتش كالشخص الذى ارتكب عفوا حماقة كبيرة .

لقد عرف الجميع فى هذا الرجل الهائج المليونير المحلى صاحب المصانع والمواطن العريق المحترم بيتيجوروف ، المعروف بفضائحه وبأعماله الخيرية ، وكما ذكرت الجريدة المحلية غير مرة ، بحبه للمعرفة .

وبعد دقيقة من الصمت سأل بيتيجوروف :

— حسنا هل ستنصرفون ام لا ؟

وخرج المثقفون من غرفة المطالعة على اطراف اصابعهم

فى صمت ، دون ان يتفوهوا بكلمة ، فأوصد بيتيجورووف الباب خلفهم .

وبعد دقيقة كان يفسترات سبيريدونتش يفح هامسا وهو يهز كتف الخادم الذى حمل الخمر الى قاعة المطالعة :

— لقد كنت تعلم انه بيتيجورووف ، لماذا سكتَّ ؟

— امرنى الا اقول !

— امره الا يقول . . . سأسجنك ايها الملعون شهرا وعندئذ ستعرف ما معنى «امرنى الا اقول» ، اخرج ! . . . — وقال مخاطبا المثقفين — وانتم ايضا يا سادة ما احلاكم . . اعلنوا العصيان ! لم يكن فى استطاعتكم ان تخرجوا من قاعة المطالعة لعشر دقائق ! حسنا ، تحملوا اذن مسئولية ما صنعتم ! آه يا سادة ، يا سادة . . . غير سليم . . .

وسار المثقفون فى النادى مقهورين ، ضائعين ، مذنبين يتهامسون ويتوقعون شرا . . . وعندما عرفت زوجاتهم وبناتهم بالحادث اخلدن الى السكون وتفرقن عائدات الى بيوتهن . وتوقف الرقص .

وفى الساعة الثانية خرج بيتيجورووف من قاعة المطالعة ؛ كان ثملا يترنح . وعندما دخل الصالة جلس بقرب الاوركسترا ونعس على انغام الموسيقى . ثم امال رأسه بحزن وعلا شخيره .

واشاح الشاويشية بايديهم للعازفين :

— لا تعزفوا ! هس ! . . يجور نيليتش نائم .

وسأل بيليبوخين وهو ينحنى على اذن المليونير :

— هل تأمرون بتوصيلكم الى البيت يا يجور نيليتش ؟

وندت عن شفتى بيتيجورووف حركة وكأنه يريد ان ينفخ ذبابة عن خده .

وعاد بيليبوخين يسأل :

— هل تأمرون بتوصيلكم الى البيت ؟ ام باستدعاء العربة ؟

— هه ؟ من ؟ انت . . . ماذا تريد ؟

— اريد ان اوصلكم . . حان وقت النوم . . .

— اريد ان اذهب . . . اوصلنى !

وتهلل بيليبوخين من الرضا وشرع ينهض بيتيجوروف . واسرع اليه بقية المثقفين ، وأنهضوا المواطن الاصيل المحترم وهم يبتسمون بسرور ، وساروا به بحذر الى العربة .

وقال جيستياكوف بمرح وهو يجلسه :

— لا يستطيع ان يضحك على جماعة كاملة الا ممثل موهوب . انا مأخوذ حقا يا يجور نيليتش ! حتى الآن ما زلت اضحك . . . ها — ها . . . كنا نغلى ونتلمظ ! ها — ها ! هل تصدقون ؟ لم اضحك ابدا فى المسرح مثلما ضحكت اليوم . فكاهة بلا حدود ! سأظل طول عمرى اذكر هذه الامسية التى لا تنسى !

وبعد أن أوصل المثقفون بيتيجوروف عاودهم المرح والاطمئنان .

وقال جيستياكوف وهو سعيد جدا :

— لقد مد لى يده عند الوداع . اذن فليس غاضبا .

فتنهد يفسترات سبيريدونتش :

— يسمع منك ربنا ! انه رجل وغد ، حقير ، ولكنه محسن ! . . لا يصح ! . .

حلة النقيب

عبست الشمس الصاعدة فوق المدينة الاقليمية ، وبدأت الديوك تتمطى لتوها ، بينما كان الزبائن جالسين فى حانة العم ريلكين . كانوا ثلاثة : الخياط ميركولوف ، والشرطى جراتفا وساعى الخزينة سميخونوف . وكانوا ثلاثتهم سكارى .

وقال ميركولوف وهو يمسك بأحد ازرار سترة الشرطى :

— لا تقل ذلك ، لا تقل ذلك ! المرتبة فى المؤسسات المدنية ، اذا أخذنا العليا منها ، تفوق رتبة الجنرال من ناحية الخياطة . خذ مثلا وصيف البلاط . . من هو هذا الشخص ؟ من أية رتبة ؟ لكن خذ احسب . . أربعة اذرع من اعلى انواع الجوخ ، انتاج فابريقة برونديل وابنائه ، وأزرار ، وياقة ذهبية ، وسراويل بيضاء بأشرطة ذهبية ، والصدر كله بالذهب ، القبة والأكمام والعراوى . . كله يلمع ! لو أنك الآن خيطت حللا لسادة كبار من مدراء المراسم ورجال البلاط ومختلف الوزراء . . . كيف تظن ؟ اذكر اننا خيطنا لواحد من هؤلاء السادة ، الكونت اندريه سيميونيتش فونلياريفسكى . حلة لا تقترب منها ! اذا امسكتها بين يديك وجدت النبض فى عروقك ينفض تسيك ! تسيك !

السادة الحقيقيون عندما تخيط لهم اياك ان تزعجهم . خذ المقاس وخيط على طول ، أما أن تتردد عليهم لعمل بروفات وضبط التفصيل فهذا مستحيل . ان كنت خياطا قديرا فخيط بعد اخذ المقاس على طول . . . اقفز من أعلى البرج بشرط أن تدخل بقدميك فى الحذاء مباشرة ، ارأيت ! وكانت بجوارنا يا أخى كما اذكر الآن ثكنة شرطة . . . فكان رئيسنا أوسيب ياكليتش يختار من رجال الشرطة الرجال الذين تتفق اجسامهم مع اجسام الزبائن لكى نعمل البروفات عليهم . وبعدين ، يعنى . . . اخترنا يا أخى شرطيا مناسبا لحلـة الكونت . استدعيناه . . . هيا البس يا أحمق وتبختر ! ولبس هذه الـ . . الحلة . . ويا له من منظر مضحك ! ما أن نظر الى صدره حتى ارتعش ، أتعرف ، سقط مغشيا عليه . . .

واستفهم سميخونوف :

— وهل فصلتم لمأمورى المراكز ؟

— وهل هؤلاء شخصيات ؟ فى بطرسبرج هؤلاء المأمورون كالكلاب الضالة . . . هنا ينزعون امامهم القبعات وينحنون ، أما هنالك فيقولون لهم : «افسح الطريق ، لا تزاحم !» . كنا نفصل الحلل للسادة العسكريين وللشخصيات من المراتب الأربع الأولى . وكل شخصية تختلف عن الأخرى . . . فاذا كنت مثلا من الرتبة الخامسة فأنت تافه . . تعال بعد أسبوع وتكون البدلة جاهزة ، لأنه ليس هناك ما تفعله غير الياقة والأساور . . . اما اذا كنت من الرتبة الرابعة أو الثالثة ، أو مثلا الثانية ، عندئذ ينهال علينا صاحب المحل ، ونسرع الى ثكنة الشرطة . فى مرة فصلنا يا أخى بدلة للقنصل الفارسى . وطرزنا له على الصدر والظهر قصبا ذهبيا بألف

وخمسمائة روبل . وظننا أنه لن يدفع ، ولكن لا ! لقد دفع . . . فى بطرسبرج حتى التتر تجدهم نبلاء الطباع .

وظل ميركولوف يتحدث طويلا . وفى الساعة التاسعة ، وتحت تأثير الذكريات ، بكى وراح يشكو بحرقة حظه الذى رماه فى هذه المدينة الصغيرة المليئة بالتجار والبرجوازيين فقط . وكان الشرطى فى هذه الفترة قد ساق اثنين الى قسم البوليس ، وذهب الساعى مرتين الى البريد والخزينة وعاد ، بينما كان ميركولوف لا يزال يشكو . وفى الظهر وقف أمام الشماس واخذ يضرب صدره بقبضته ويتذمر :

— لا أريد أن أفصل للأوغاد ! أنا أرفض ! فى بطرسبرج فصلت بنفسى للبارون شبوتسيل وللسادة الضباط ! ابتعد عنى يا قفطان ولائم الموتى ، اياك أن تراك عيناى ! ابتعد !

فأكد الشماس للخياط :

— انك تضع نفسك فى مكانة عالية يا تريفــون بانتليتش . صحيح انت فنان فى عملك ، ولكن لا يجوز أن تنسى الله والدين . آرى أيضا وضع نفسه عاليا ، مثلك ، ولكنه مات من الاسهال . أوه ، وانت أيضا ستموت !

— سأموت ! الأفضل أن أموت من أن أفصل معاطف فلاحية .

— هل شيطانى هنا ؟ — تردد فجأة صوت نسائى خلف الباب ، ودخلت الحانة اكسينيا زوجة ميركولوف ، وهى امرأة كهلة ، مشمرة الاكمام ، ومحزومة البطن — أين هو هذا الصنم ؟ — وطافت على الرواد بنظرة غاضبة . — اذهب الى البيت ، ان شاء الله تخطفك مصيبة . هناك

ضابط يسأل عنك .

فدهش ميركولوف :

— أى ضابط ؟

— وما أدرانى ! يقول انه جاء ليفصل بدلة .

حك ميركولوف انفه الكبير براحته كلها ، وهو ما كان يفعله دائما عندما يريد أن يعبر عن دهشته البالغة ، ودمدم :

— هذه المرأة اصابتها لوثة . . . منذ خمسة عشر عاما لم أر وجها نبيلا ، وفجأة يأتى الآن ، وفى يوم الصيام ، ضابط ليفصل بدلة ! هم ! . . . فلأذهب لأرى . . .

وخرج ميركولوف من الحانة ومضى الى البيت وهو يترنح . . . ولم تكذب عليه زوجته . فقد رأى أمام عتبة داره النقيب أورتشايف ، سكرتير قائد الحامية المحلية .

وقال له النقيب :

— أين كنت تتسكع ؟ انتظرك منذ ساعة . . . هل تستطيع أن تفصل لى بدلة ؟

— يا صاحب المعا . . . يا إلهى ! — دمدم ميركولوف وهو يتحشرج ، ونزع من على رأسه القبعة مع خصلة شعر . — يا صاحب المعالى ! وهل هذا جديد علي ؟ أه يا إلهى ! فصلت للبارون شبوتسيل . . ادوارد كارليتش . . . والسيد الملازم زيمبولاتوف مدين لى حتى الآن بعشرة روبلات . . آه ! يا امرأة ، هاتى لصاحب المعالى كرسيا ، آه يا ربى . . . هل تأمرون بأخذ مقاسكم أم تسمحون ان أفصل بمجرد النظر ؟

— طيب . . . القماش من عندك ، وتكون جاهزة بعد أسبوع . . كم تريد ؟

— العفو يا صاحب المعالى . . ماذا تقولون . — وضحك ميركولوف ضحكة ساخرة قصيرة . — وهل أنا تاجر ؟ اننا نعرف كيف نتعامل مع السادة . . . حتى عندما فصلنا للقنصل الفارسى فصلنا بدون كلام . . .

وبعد أن أخذ ميركولوف مقاييس النقيب وودعه ، ظل واقفا ساعة كاملة فى وسط الغرفة وهو يحدق فى زوجته ببلاهة . لم يكن يصدق . . .

وأخيرا تمتم :

— يا لها من مفاجأة ، يا سلام ! من أين أحصل على النقود للقماش ؟ يا أكسينيا ، اقرضينى ، يا أختى ، ذلك المبلغ الذى حصلت عليه من بيع البقرة .

أخرجت له أكسينيا لسانها ثم بصقت . وبعد فترة وجيزة بدأت تتعامل مع زوجها بالبشكور وتكسر على رأسه الصحاف الفخارية وتسحبه من لحيته ، وتخرج الى الشارع وتصيح : «انظروا يا عباد الله ! قتلنى ! . .» . ولكن هذه الاحتجاجات لم تأت بنتيجة . وفى اليوم التالى رقدت فى الفراش وهى تخفى عن صبيان الخياط الكدمات الزرقاء ، بينما كان ميركولوف يطوف بالدكاكين ويتشاجر مع التجار وهو ينتقى الجوخ المناسب .

وحل عهد جديد بالنسبة للخياط . فبعد أن يستيقظ ويطوف بنظراته الغائمة على عالمه الصغير لم يعد يبصق بحقد . . . أما أغرب شيء فهو أنه كف عن الذهاب الى الحانة وانهمك فى العمل . وبعد أن يصلى بصوت خافت ، يضع النظارة الحديدية الكبيرة ويقطب جبينه ، ويفرش القماش على الطاولة بخشوع .

وبعد أسبوع كانت الحلة جاهزة . ويعد أن كواها ميركولوف ، خرج الى الشارع وعلقها على السور المجدول من الاغصان وراح ينظفها . . . ينزع منها وبرة ، ثم يبتعد لمسافة ذراع ، ويحدق في الحلة طويلا بعينين مزرورتين ، ثم يعود فينزع وبرة اخرى ، وهكذا لمدة ساعتين .

وكان يقول للمارة :

— ما أشق العمل مع هؤلاء السادة ! لم أعد أطيق ، خارت قواى ! قوم مثقفون ، مهذبون ، فلتحاول ان تنال رضاهم !

وفي اليوم التالى ، وبعد أن نظف ميركولوف الحلة ، دهن رأسه بالزيت وصفف شعره ، ولف البدلة في قطعة من قماش شيت جديد ، وتوجه الى النقيب .

وكان يستوقف كل من يقابله قائلا :

— لا وقت عندى للكلام معك أيها الأحمق . ألا ترى اننى احمل البدلة للنقيب ؟

وبعد نصف ساعة عاد من عند النقيب .

واستقبلته أكسينيا وهى تبتسم ابتسامة عريضة ، وقالت بخجل :

— مبروك المكسب يا تريفون بانتليفتش .

فأجابها زوجها :

— يا لك من حمقاء . أتظنين السادة الحقيقيين يدفعون فورا ؟ ليسوا كالتجار الذين ما أن تعطيهم حتى يدفعوا فورا . . يا لك من حمقاء ! . .

رقد ميركولوف يومين على الفرن ولم يشرب أو يأكل واستسلم لمشاعر الرضا عن النفس ، تماما مثل هرقل بعد

أن انتهى من تحقيق كل بطولاته . وفى اليوم الثالث ذهب ليحصل على النقود .

وقال هامسا لجندى المراسلة وهو يتسلل زاحفا الى المدخل :

— هل استيقظ صاحب المعالى ؟

وعندما تلقى الاجابة بالنفى وقف كالعمود بجوار الباب وراح ينتظر .

— اطرده من هنا ! قل له يوم السبت . . — سمع ميركولوف بعد انتظار طويل صوت النقيب الأبح .

وسمع نفس الشيء يوم السبت ، وفى السبت الذى تلاه ، وفى السبت الثالث . . . شهرا كاملا قضاه فى التردد على النقيب ، والانتظار فى المدخل ساعات طويلة ، وبدلا من النقود كان يحصل على دعوة بالذهاب الى الشيطان والمجيء يوم السبت . ولكنه لم ييأس ولم يتذمر ، بالعكس . . . لقد سمن . أعجبه الانتظار الطويل فى المدخل وكانت «اطرده من هنا» تنساب فى أذنيه كاللحن العذب .

وعندما يعود الى البيت من عند النقيب كان يقول باعجاب :

— هذا هو السيد النبيل ! عندنا فى بيتر * كانوا كلهم كذلك . . .

وكان ميركولوف مستعدا حتى آخر أيام عمره أن يتردد على النقيب وينتظر فى المدخل لولا أكسينيا التى كانت

---

* الاسم الدارج لمدينة بطرسبرج . **المعرب** .

تطالبه باعادة النقود ، ثمن البقرة .

كانت تلقاه كل مرة بالسؤال :

— هل جئت بالنقود ؟ كلا ؟ ما الذى تفعله بى أيها الوحش الكاسر ؟ هه ؟ . . . يا ميتكا ، أين البشكور ؟

وذات مساء كان ميركولوف عائدا من السوق ، حاملا على ظهره جوال فحم . ومن خلفه سارت أكسينيا بعجلة . كانت تدمدم وهى تفكر فى النقود ثمن البقرة :

— مهلا ! سوف أريك عندما نصل الى البيت !

وفجأة توقف ميركولوف وتسمر فى مكانه وصاح بفرح . فمن حانة «المرح» التى كانا يمران بجوارها ، انطلق مندفعا سيد ما فى قبعة اسطوانية ، بوجه أحمر وعينين ثملتين . وجرى خلفه النقيب أورتشايف بلا قبعة ، مشعث الشعر والثياب وفى يده عصا البلياردو . وكانت حلته الجديدة ملوثة بالطباشير ، واحدى الكتافيات قد مالت جانبا .

وصاح النقيب وهو يلوح بجنون بالعصا ويمسح العرق من جبينه :

— سأرغمك على اللعب أيها المحتال ! سأعلمك أيها الغشاش كيف تلعب مع الشرفاء !

وهمس ميركولوف لزوجته وهو يلكزها فى كوعها ويهأهىء :

— انظرى يا حمقاء ! هذا هو السيد النبيل . فالتاجر اذا فصل لسحنته الفلاحية بدلة فانها لا تبلى ، يلبسها عشر سنين ، أما هذا فانظرى كيف جعل البدلة خرقة ! ليس غريبا لو احتاج لواحدة جديدة !

فقالت أكسينيا :

— اذهب واطلب منه النقود .

— ماذا تقولين يا حمقاء ! فى الشارع ؟ لا يمكن ابدا . . . .

ورغم مقاومة ميركولوف فقد ارغمته زوجته على الذهاب الى النقيب الهائج ومفاتحته فى أمر النقود .

فأجابه النقيب :

— امش من هنا ! أضجرتنى !

— أنا فاهم يا صاحب المعالى . . فاهم . . . أنا لا أريد . . لكن زوجتى . . حمقاء لا تفهم . . حضرتكم تعرفون أى عقل يمكن ان يكون فى رأس هؤلاء النسوة . . .

فزأر النقيب وهو يحملق فيه بعينين ثملتين زائغتين :

— قلت لك أضجرتنى ! امش من هنا !

— مفهوم يا صاحب المعالى ! ولكنى بخصوص زوجتى . . لأن النقود ، اذا أردتم سيادتكم أن تعرفوا ، هى نقود البقرة . . . بعنا البقرة للأب يهوذا . . .

— آه . . . وتجسر على الكلام أيها الحشرة !

وطوح النقيب ذراعه و . . طراخ ! وتساقط الفحم من على ظهر ميركولوف ، ومن عينيه تطاير الشرار ، ومن يديه سقطت القبعة . . . وتملك الذهول أكسينيا . ووقفت متصلبة حوالى دقيقة ، مثل زوجة لوط عندما تحولت الى عمود ملح ، ثم خطت الى الأمام ونظرت بوجل الى وجه زوجها . . . ولدهشتها البالغة كان وجه ميركولوف يتهلل بابتسامة غبطة ، بينما اغرورقت عيناه الضاحكتان بالدموع . . .

ودمدم :

— هؤلاء هم السادة الحقيقيون ! أناس مهذبون ، مثقفون . . . بالضبط كما حدث . . وفى نفس المكان . .

عندما حملت المعطف الى البارون شبوتسيـــــل ، ادوارد كارليتش . . . طوح يده و. . طراخ ! والسيد الملازم زيمبولاتوف أيضا . . . جئت اليه فهب واقفا وبكل قوته . . . أوه راح ذلك الزمن يا زوجتى ! انت لا تفهمين شيئا ! راح زمنى !

وأشاح ميركولوف بيده ، ثم جمع الفحم ، ومضى الى البيت .

١٨٨٥

عند زوجة رئيس النبلاء

في أول فبراير من كل عام ، وفى عيد القديس تريفون ، تدب حركة غير عادية فى ضيعة أرملة رئيس نبلاء الاقليم السابق تريفون لفوفتش زافزياتوف . ففى هذا اليوم تقيم أرملة رئيس النبلاء لوبوف بتروفنا قداسا على روح المرحوم ، وبعد القداس صلاة شكر للسيد الرب . ويأتى الاقليم كله لحضور القداس . فهنا ترى رئيس النبلاء الحالى خروموف ، ورئيس مجلس الاقليم مارفوتكين وعضو المجلس الدائم بوتراشكوف ، ومفتشى لجنة الاقليم ، ومأمور المركز كرينولينوف ، وشرطيى نقطتى الشرطة ، وطبيب المجلس المحلى دفورنياجين الذى تفوح منه رائحة اليودفورم ، وكل الاقطاعيين ، كبارهم وصغارهم ، وغيرهم . وكان عدد الحاضرين يصل الى حوالى خمسين شخصا .

وفى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا يتقاطر الضيوف بوجوه مستطيلة من جميع الغرف الى الصالة . والأرض مغطاة بالسجاد فلا يسمع وقع الخطوات ، ولكن جلال الموقف يجعلهم يشبون لاإراديا على اطراف أصابعهم ويحفظون توازنهم بأيديهم اثناء المشى . كل شيء جاهز فى الصالة . ويقوم الأب يفمينى ، ذلك العجوز الصغير ، ذو الطاقية العالية

الباهتة ، بارتداء بدلة القداس السوداء . اما الشماس كونكورديف فيقف أحمر كسرطان البحر المسلوق ، مرتديا حلته ، ويقلب صفحات كتاب الصلوات دون صوت واضعا بين الصفحات قصاصات ورق . وعند الباب المفضى الى المدخل ينفخ القندلفت لوقا فى المبخرة وقد انتفخ خداه العريضان وجحظت عيناه . وتمتلئ الصالة تدريجيا بدخان البخور الأزرق الشفاف ورائحته . اما المدرس الأهلى جيليكونسكى ، وهو رجل شاب ، يرتدى حلة جديدة مهدلة ، وعلى وجهه المذعور بثور كبيرة ، فيوزع الشموع على صينية معدنية . وتقف ربة الدار لوبوف بتروفنا فى المقدمة بجوار مائدة عليها طبق «الكوتيا» * ، وتقرب المنديل من عينيها سلفا . والهدوء يعم المكان ولا تتخلله الا زفرات متفرقة . ووجوه الجميع مشدودة ، مهيبة . . .

ويبدأ القداس . من المبخرة يتدفق دخان أزرق متموجا فى اشعة الشمس المائلة ، والشموع المشتعلة تطقطق بوهن . ويبدأ الغناء حادا مجلجلا ، ثم سرعان ما يصبح هادئا منتظما عندما يتكيف المغنون شيئا فشيئا مع الظروف الصوتية للمكان . . . والألحان كلها حزينة ، مكتئبة . . . وشيئا فشيئا ينسجم الضيوف مع المزاج الانطوائى ويستغرقون فى التفكير وتتسرب الى اذهانهم أفكار عن قصر الحياة والفناء وبهرج الدنيا الزائل . ويتذكرون المرحوم زافزياتوف ، الملىء الجسم

---

* طبق من الأرز او القمح والزبيب يقدم فى ولائم التأبين . **المعرب** .

الاحمر الخدين ، الذى كان يشرب زجاجة الشمبانيا دفعة واحدة ويحطم المرايا بجبهته . وعندما يغنون «مع القديسين الرحمة» وتُسمع شهقات ربة الدار ، يتململ الضيوف فى وقفتهم بكآبة . أما ذوو المشاعر المرهفة منهم فيحسون بحك فى حلوقهم وحول جفونهم . ويحاول رئيس مجلس الاقليم مارفوتكين ان يكبت هذا الاحساس الكريه فيميل على اذن مأمور المركز هامسا :

— بالأمس كنت عند ايفان فيودورفتش . . . احرزت أنا وبيوتر بتروفتش فوزا ساحقا بدون أوراق رابحة . . . اى والله . . . وثارت أولجا أندرييفنا لدرجة ان سقطت من فمها سن صناعية .

وها هو نشيد «الذكرى الخالدة» . وها هو جيليكونسكى يستعيد الشموع باحترام ، وينتهى القداس . وتتلو ذلك دقيقة هرج وتبديل حلة القداس استعدادا للصلاة . وبعد انتهاء الصلاة ، وبينما الأب يفمينى يخلع لباس القداس ، يفرك الضيوف ايديهم ويسعلون ، بينما تتحدث ربة الدار عن طيبة المرحوم تريفون لفوفتش .

وتنهى حديثها قائلة وهى تتنهد :

— تفضلوا الى المائدة يا سادة .

ويسرع الضيوف الى غرفة الطعام وهم يحاولون الا يتزاحموا أو يدوسوا على اقدام بعضهم البعض . . . وهناك ينتظرهم الافطار . وهذا الافطار فاخر الى درجة ان الشماس كونكوردييف يرى من واجبه كل عام ، عندما يراه ، أن يشيح بذراعيه ، ويهز رأسه من الدهشة ويقول :

— شىء خرافى ! ان هذا يا أبانا يفمينى لا يشبه

طعام البشر بقدر ما يشبه القرابين المقدمة للالهة .

والافطار بالفعل غير عادى . فعلى المائدة يوجد كل ما يمكن أن يهبه عالما النبات والحيوان . أما الخرافى فيه فربما كان شيئا واحدا : وهو ان المائدة تحوى كل شىء إلا . . . المشروبات الكحولية . فقد نذرت لوبوف بتروفنا على نفسها ألا تحتفظ فى بيتها بأوراق اللعب والمشروبات الكحولية ، أى بالشيئين اللذين قضيا على زوجها . ومن ثم فليس على المائدة الا زجاجات الخل والزيت ، وكأنها نكاية وسخرية بالطاعمين الذين هم عن بكرة أبيهم من السكارى والمدمنين .

وتدعو زوجة رئيس النبلاء الضيوف :

— كلوا يا سادة . لكن اعذرونى فليس لدى فودكا . . . لا احتفظ بها فى البيت . . .

ويقترب الضيوف من المائدة ويشرعون فى تناول الكعكة بتردد . ولكن الوليمة لا تسير كما يرام . ويبدو فى غرز الشوك والتقطيع والمضغ تراخ ما وخمول . . . يبدو ان شيئا ما ينقصهم . . .

ويهمس أحد مفتشى لجنة الاقليم لزميله :

— أشعر وكأننى فقدت شيئا ما . مثل هذا الاحساس راودنى عندما هربت زوجتى مع المهندس . لا أستطيع أن آكل !

وقبل أن يشرع مارفوتكين فى الأكل يفتش طويلا فى جيوبه بحثا عن منديله . ثم يقول متذكرا بصوت عال :

— آه ، المنديل فى المعطف ! وأنا ابحث عنه .

ويمضى الى المدخل حيث علقت المعاطف .

ويعود من المدخل بعينين لامعتين ، وينهال على الكعكة فورا بشهية .

ويهمس للأب يفمينى :

— ماذا ، الأكل على الناشف كريه ؟ اذهب يا أبتاه الى المدخل ، هناك زجاجة فى جيب معطفى . لكن حاذر ، اياك ان تقرقع بالزجاجة !

ويتذكر الأب يفمينى ان عليه ان يأمر لوقا بشىء ما ، ويسرع بخطوات قصيرة نحو المدخل .

ويلحق به دفورنياجين صائحا :

— ياأبانا . . اريدك فى كلمتين ، سرا !

ويقول خروموف مباهيا :

— يا له من معطف اشتريته يا سادة بالصدفة . يساوى ألفا ، ولكنى دفعت . . لن تصدقوا . . مائتيـــن وخمسين ! فقط !

وما كان الضيوف ليعيروا انتباها لذلك الخبر فى وقت آخر ، أما الآن فقد اعربوا عن دهشتهم وعدم تصديقهم . ومن ثم مضوا جميعا الى المدخل ليشاهدوا المعطف ، وظلوا يشاهدونه الى أن حمل خادم الطبيب من المدخل سرا خمس زجاجات فارغة . . . وعندما أتى الخدم بطبق السمك المسلوق تذكر مارفوتكين انه نسى علبة سجائره فى العربة ، وذهب الى الاصطبل . ولكى لا يشعر بالملل وحده أخذ معه الشماس ، الذى اتضح أنه ينبغى عليه ايضا أن يتفقد حصانه . . .

وفى مساء ذلك اليوم جلست لوبوف بتروفنا فى غرفة مكتبها لتكتب رسالة الى احدى صديقاتها القديمات فى

بطرسبرج . وكان من بين ما كتبت :

«اليوم ، كما فى السنوات السابقة ، أقمت قداسا على روح المرحوم . وحضر القداس كل جيرانى . انهم أناس أفظاظ ، بسطاء ، ولكن ما أرق قلوبهم ! أقمت لهم وليمة فاخرة ، ولكن لم تكن هناك بالطبع ، كما فى الاعوام السابقة ، قطرة شراب مسكر . فمنذ أن مات زوجى بسبب الافراط أقسمت أن أنشر فى اقليمنا الصحو وبذلك اكفر عن ذنوبه . وقد بدأت الموعظة من بيتى . وقد أبدى الأب يفمينى اعجابه بمشروعى ويساعدنى بالقول والفعل . أوه يا * ma chère ، لو تعرفين كم يحبنى دببتى هؤلاء ! بعد الافطار أخذ رئيس مجلس الاقليم مارفوتكين يقبل يدى وظل طويلا يضعها على شفتيه وهو يهز رأسه بصورة مضحكة ، وبكى من فيض المشاعر وعجز الكلمات ! أما الأب يفمينى ، هذا العجوز الرائع ، فقد جلس الى جوارى ، وحدق فيّ بعينين دامعتين وظل يتمتم طويلا كالطفل . ولم أفهم ما قاله ، ولكنى استطيع ان أفهم المشاعر الصادقة . أما المأمور ، ذلك الرجل الجميل الذى كتبت لك عنه ، فقد ركع أمامى على ركبتيه ، وأراد ان يقرأ اشعارا من تأليفه (فهو شاعر عندنا) ولكنه . . . لم يتمالك قواه . . . فترنح ووقع . . لقد اصابت هذا العملاق نوبة هستيريا . . . هل تتصورين مدى اعجابى ! بالطبع لم يخل الأمر من بعض المنغصات . فرئيس مؤتمر الاقليم ألاليكين المسكين ،

---

* عزيزتى (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

وهو رجل بدين مصاب بالسكتة ، ساءت حالته ، ورقد على الكنبة ساعتين فاقد الوعي . واضطررنا لصب الماء عليه . . . شكرا للدكتور دفورنياجين ، اذ أحضر من صيدليته زجاجة كونياك وبلل له صدغيه ، فسرعان ما عاد الى وعيه ثم حملوه . . .» .

١٨٨٥

تواريخ حية

غرفة الجلوس في دار مستشار الدولة شاراميكين مغلقة بظلمة خفيفة لطيفة . والمصباح البرونزى الكبير ذو الاباجورة الخضراء يلون الجدران والأثاث والوجوه بلون اخضر على طريقة «ليل اوكرانيا» . . . ومن حين لحين تتوهج جمرة حطب في الموقد الموشك على الانطفاء ، فيغمر الوجوه للحظة لون لهب الحرائق : ولكن ذلك لا يفسد هارمونى الألوان العام . فـ«التون» العام ، كما يقول المصورون ، محافظ عليه هنا .

وعلى مقعد امام الموقد يجلس شاراميكين نفسه ، في وضع رجل تغدى لتوه . وهو سيد كهل ، بسوالف موظفين بيضاء ، وعينين زرقاوين مستكينتين . وتنساب الرقة على وجهه ، وشفتاه مطبقتان على ابتسامة حزينة . وعند قدميه يجلس على اريكة ، مادا ساقيه في كسل وهو يتمطى ، نائب المحافظ لوبنيف ، وهو رجل نشيط ، في حوالى الاربعين من عمره . وبجوار المعزف يلهو أولاد شاراميكين : نينا وكوليا وناديا وفانيا . ومن الباب الموارب المفضى الى غرفة مكتب مدام شاراميكينا يتسلل ضوء خجول . فهناك خلف الباب تجلس الى مكتبها زوجة شاراميكين آنا بافلوفنا ،

رئيسه لجنة النساء المحلية ، وهى سيدة بادية الحيوية ، مثيرة ، تخطت الثلاثين بقليل . وتجرى عيناها السوداوان النشطتان عبر العوينات على صفحات رواية فرنسية . وتحت الرواية يرقد تقرير مجعد الصفحات عن نشاط اللجنة فى العام الماضى .

ويقول شاراميكين وهو يزر عينيه المستكينتين ناظرا الى جمرات الحطب :

— كانت مدينتنا من قبل محظوظة اكثر من هذه الناحية . لم يمر شتاء واحد الا وزارنا نجم ما . كان يأتينا مشاهير الممثلين والمطربين ، اما الآن . . . فالشيطان وحده يعلم ما هذا . . . لا احد يأتى سوى الحواة والمتسولين من عازفى الارغن اليدوى فى الشوارع . ليس هناك اية متعة جمالية . . نعيش كأنما فى غابة . نعم . . أتذكر يا صاحب السعادة ذلك الممثل التراجيدى الايطالى . . ما اسمه ؟ ذلك الأسمر . . الطويل . . ليهبنى الله الذاكرة . . آه ، نعم ! لويجى ارنستو دى روجييرو . . يا له من موهبة رائعة . . يا للقوة ! كان يكفى ان يتفوه بكلمة واحدة حتى تهتز قلوب النظارة . لقد شاركت زوجتى أنيوتا بحماس كبير فى تشجيع موهبته . حجزت له المسرح وباعت له التذاكر لعشر حفلات . . . ومكافأة لها على ذلك علمها الالقاء والحركات . ما أنبل روحه ! لقد حضر الى هنا منذ . . . أرجو الا اخطئ . . منذ حوالى اثنتى عشرة سنة . . كلا . . اخطأت . . بل أقل . . منذ حوالى عشر سنوات . . . أنيوتا ، كم عمر ابنتنا نينا ؟

فتصيح آنا بتروفنا من غرفة مكتبها :

— فى العاشرة ! وماذا ؟

— لا شيء يا ماما ، هكذا . . . وكان يزورنا ايضا مطربون جيدون . . هل تذكر بريليبتشين ، ذلك الصوت الـ * grazia tenore di ؟ ما أنبل روحه ! يا لهيئته ! أشقر . ووجهه معبر ، وحركاته باريسية . . . وما أروع صوته يا صاحب السعادة ! كان يعيبه شيء واحد . . كان يغنى بعض النوتات من بطنه و«ري» بطبقة عالية ، وفيما عدا ذلك فكان مجيدا . قال انه درس على يدى تامبرلك . . دبرت له أنا وأنيوتا قاعة فى النادى الاجتماعى . وشكرا منه لنا على ذلك كان احيانا يغنى لنا اياما وليالى بأكملها . . وعلّم أنيوتا الغناء . . لقد جاء الينا ، كما اذكر جيدا ، فى الصوم الكبير . . منذ . . منذ حوالى اثنتى عشرة سنة . كلا ، بل أكثر . . يا للذاكرة ، استغفر الله ! أنيوتا ، كم عمر ابنتنا ناديا ؟

— اثنتا عشرة !

— اثنتا عشرة . . . فاذا اضفنا اليها عشرة أشهر . . نعم بالضبط . . ثلاث عشرة ! . . كانت مدينتنا قبلا أكثر حيوية . . خذ مثلا الحفلات الخيرية . ما أروع الحفلات التى كانت تقام فى السابق . . يا للسحر ! غناء ، وعزف ، والقاء . . . وبعد الحرب ** اذكر ، عندما كان الأسرى الأتراك يقيمون هنا ، أقامت أنيوتا حفلا لصالح الجرحى . جمعنا ألف

---

* التينور العاطفى (بالايطالية فى الأصل) . **المعرب** .

** المقصود هنا الحرب الروسية التركية عامى ١٨٧٧ — ١٨٧٨ والتى انتهت بعقد صلح سان — ستيفانو . **المعرب** .

ومائة روبل . . . اذكر ان الضباط الأتراك كانوا مفتونين بصوت أنيوتا ، وكانوا طوال الوقت يقبلون يدها . هيء . . رغم أنهم آسيويون الا أنهم أمة تقدر الجميل . وكانت الحفلة موفقة الى درجة اننى ، أتصدق ، كتبت عنها فى يومياتى . كان ذلك كما أذكر الآن في . . . سنة ستة وسبعين . . . كلا ! في سبعة وسبعين . . . كلا ! مهلا ، متى أقام الأتراك عندنا ؟ أنيوتا ، كم عمر ابننا كوليا ؟

— عمرى سبع سنوات يا بابا ! — يقول كوليا ، ذلك الصبى الأسمر الوجه وذو الشعر الأسود الفاحم .

ويقول لوبنيف موافقا وهو يتنهد :

— نعم ، هرمنا ولم تعد لدينا تلك الطاقة ! هذا هو السبب . . الشيخوخة يا أخى ! ليس هناك مبادرون جدد ، اما القدامى فقد هرموا . . لم تعد لدينا تلك الشعلة . أنا ، عندما كنت أصغر ، لم أكن أحب أن يشعر المجتمع بالملل . . كنت المساعد الأول لزوجتكم آنّا بافلوفنا . فاذا كانت هناك حاجة لاقامة حفل خيرى ، او يانصيب ، او لمساعدة نجم مشهور وصل ، كنت أترك كل شيء وأشرع في السعى . واذكر اننى ذات شتاء انهمكت في الجرى والسعى الى درجة اننى مرضت . . لن أنسى ابدا ذلك الشتاء ! أتذكر اية مسرحية ألفتها أنا وزوجتكم آنّا بافلوفنا لصالح منكوبى الحريق ؟

— فى أية سنة كان ذلك ؟

— منذ فترة ليست بعيدة . . . فى تسعة وسبعين . . . كلا ، فى سنة ثمانين على ما أظن ! مهلا ، كم عمر ابنكم فانيا ؟

— خمسة ! — تصيح آنا بافلوفنا من غرفة المكتب .

— اذن فذلك كان منذ ست سنوات . . . نعم يا أخى ، يا لها من اعمال كانت ! لم يعد الحال كما كان ! راحت تلك الشعلة !

ويستغرق لوبنيف وشاراميكين فى التفكير . وتتوهج الجمرة المحترقة للمرة الاخيرة ثم يكسوها الرماد .

١٨٨٥

الدبلوماسى

(مشهد)

لفظت زوجة المستشار الاسمى * آنا لفوفنا كوفالدينا انفاسها . وراح الاقارب والمعارف يتشاورون :

— وما العمل الآن ؟ ينبغى ان نخطر زوجها . فرغم انه فارقها الا انه كان يحب المرحومة . بل لقد جاءها منذ فترة وركع امامها على ركبتيه ضارعا : «متى تغفرين لى يا آنّا هوى لحظة ؟» وغير ذلك من هذا القبيل . ينبغى ان نخطره . . .

وقالت عمتها الباكية مخاطبة العقيد بسكاريوف الذى كان يشترك فى المشاورة العائلية :

— يا أريستارخ ايفانيتش ، ! انت صديق ميخائيل بتروفيتش . اصنع معروفا واذهب اليه فى الادارة وابلغه بهذه المصيبة ! لكن أرجوك يا عزيزى لا تصدمه دفعة واحدة ، والا فقد يحدث له شىء . انه رجل مريض . مهد للخبر فى البداية ، وبعد ذلك . . .

---

* من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية وتعادل رتبة النقيب العسكرية . **المعرب** .

ارتدى العقيد بسكاريوف العمرة وتوجه الى ادارة السكك الحديدية حيث كان يعمل الأرمل الحديث العهد . ووجده يعد الميزانية .

— تحياتى لميخائيل بتروفتش ، — قال وهو يجلس الى طاولة كوفالدين ويمسح عرقه . — مرحبا يا عزيزى . يا للغبار فى الشوارع ، اعوذ بالله ! اكتب ، اكتب . . . لن أعطلك . . سأجلس قليلا ثم انصرف . . كنت مارا من هنا فقلت لنفسى : ان ميشا يعمل هنا ! فلأمر عليه ! وبالمناسبة . . انا بحاجة اليك فى مسألة . .

— اجلس هنا يا أريستارخ ايفانيتش . . انتظرنى قليلا . . سأفرغ بعد ربع ساعة ، وعندئذ نتحدث . . .

— اكتب ، اكتب . . . أنا جئت هكذا . . مرورا عابرا . . سأقول لك كلمتين . . ووداعا !

وضع كوفالدين الريشة جانبا واستعد للانصات . وحك العقيد رقبته خلف الياقة واستطرد :

— الجو خانق لديكم هنا ، اما فى الشارع فجنة حقيقية . . . الشمس ، والنسيم اللطيف ، أتدرى . والطيور . . انه الربيع ! كنت سائرا الى سبيلى فى البوليفار . أتدرى ، وكان مزاجى رائعا ! فانا رجل حر ، أرمل . . أينما أريد أذهب . . اذا اردت ذهبت الى الحانة ، واذا أردت ركبت ترام الخيل جيئة وذهابا . . ولا أحد يجرؤ على ايقافى ، ولا أحد يعول ورائى فى المنزل . . كلا يا أخى ، ليس هناك أحسن من حياة العازب . . حرية ! انطلاق ! تتنفس وتشعر أنك تتنفس ! سأعود الآن الى البيت . . فلا شىء . . لا أحد يجرؤ ان يسألنى أين كنت . . أنا سيد نفسى . .

الكثيرون يا اخى يمتدحون الحياة الزوجية ، ولكنى اعتقد انها اسوأ من الاشغال الشاقة . . هذه الاحاديث عن الموضة والكورسيهات والقيل والقال ، والزعيق . . وبين لحظة واخرى الضيوف . . والأولاد يقفزون خارجين الى الدنيا الواحد تلو الآخر . . والنفقات . . . اخص !

فدمدم كوفالدين وهو يتناول الريشة :

— سأفرغ حالا . . .

— اكتب ، اكتب . . . حسنا لو وفقت الى زوجة ليست شيطانا ، ولكن ماذا لو انها ابليس فى تنورة ؟ ماذا لو كانت من اولئك اللواتى لا يتوقفن عن الازيز والطنين ليل نهار ؟ . . اذن ستصرخ مستنجدا ! انظر ، انت على سبيل المثال . . عندما كنت عازبا كنت انسانا مثل البشر ، وما أن تزوجت من زوجتك حتى تدهورت ، وأصبحت منطويا . . . لقد فضحتك فى المدينة كلها . . وطردتك من البيت . . . فأى خير فى هذا ؟ ان زوجة مثلها لا تستحق حتى الشفقة . . .

فقال كوفالدين متنهدا :

— كنت انا المذنب فى انفصالنا لا هى .

— دعك من ذلك أرجوك ! اننى اعرفها جيدا ! امرأة شريرة ، متغطرسة ، خبيثة ! كل كلمة سم زعاف ، كل نظرة خنجر حاد . . . أما اللؤم الذى كان فى المرحومة فشىء لا يمكن وصفه !

فاتسعت عينا كوفالدين وهو يسأل :

— ماذا تعنى بالمرحومة ؟

فاستدرك بسكاريوف محمرا :

— وهل قلت المرحومة ؟ ابدا ، أنا لم أقل ذلك . .

ماذا دهاك يا أخى . . اتق الله . . ما لك شحبت ! هىء ، هىء ، اسمع بأذنك ولا تسمع ببطنك !

— هل كنت عند أنيوتا اليوم ؟

— نعم ، زرتها فى الصباح . . كانت راقدة . . تصرخ فى الخدم . . تارة لم يقدموا لها هذا الشىء كما يجب ، وتارة ذاك . . امرأة لا تطاق ! لا أفهم ما الذى جعلك تحبها . . لو أن الله يهديها فتطلق سراحك ايها المسكين . . اذن لعشت حرا وتمتعت . . ولتزوجت غيرها . . طيب ، طيب سأسكت ! لا تعبس ! انا لا أقصد . . مجرد كلام عواجيز . . أنت تعرف رأيـى . . اذا شئت أحب ، واذا لم تشأ لا تحب . . أنا لا ارجو لك الا الخير . انها لا تعيش معك ، ولا تريد أن تعرفك . . أية زوجة هذه ؟ قبيحة ، هزيلة ، سيئة الطباع . . لا تستحق الشفقة . . . فليكن . . .

فقال كوفالدين متنهدا :

— من السهل عليك أن تتحدث يا أريستارخ يفانيتش ! الحب ليس شعرة ، لا يمكن انتزاعه ببساطة .

— وهل فيها ما يُحَب ! انك لم تر منها غير اللؤم . لا تؤاخذ عجوزا مثلى ، فأنا لم أحبها . . لم اكن أطيق رؤيتها ! عندما أمر بجوار بيتها أغمض عينى حتى لا أراها . . نهايته ! رحمها الله وأسكنها فسيح جناته . . لم أكن أحبها فليغفر لى الله ذنبـى !

فقال كوفالدين ممتقعا :

— اسمع يا أريستارخ ايفانيتش هذه ثانى مرة يزل فيها لسانك . قل لى . . هل ماتت ؟

— كيف ماتت ؟ لم يمت أحد . . كل ما في الامر انني لم اكن أحب المرحومة . . . اخص ! اعني ليس المرحومة . . بل زوجتك ، آنا . . .

— ماذا حدث لها ، هل ماتت ؟ لا تعذبني يا أريستارخ ايفانيتش ! انك تبدو منفعلا بصورة غريبة ، تتخبط في الكلام . . وتمتدح حياة العزوبية . . هل ماتت ؟ نعم ؟

فتمتم بسكاريوف وهو يسعل :

— هكذا ، مرة واحدة ماتت ! يا لك من متسرع يا أخي . . . ولنفرض أنها ماتت ! كلنا سنموت ، وهي أيضا مصيرها الى الموت . . وأنت ستموت ، وأنا . . .

احمرت عينا كوفالدين وامتلأتا بالدموع ، وسأل بصوت خافت :

— في أية ساعة ؟

— ليس في أية ساعة . . . ما أسرع دموعك ! . . لم تمت ! من الذى قال لك انها ماتت ؟

— أريستارخ ايفانيتش . . أرجوك . . لا تشفق عليّ !

— لا يا أخي ، انت لا يمكن الكلام معك ، كأنك طفل . هل قلت لك أنها ماتت ؟ هل قلت لك تسترسل في البكاء ؟ اذهب وافرح بها . . سالمة غانمة ! عندما زرتها كانت تتشاجر مع عمتها . . . كان الأب ماتفي يقيم قداس الجناز بينما صياحها يملأ البيت كله .

— أى قداس ؟ ولماذا يقام ؟

— القداس ؟ أبدا ، هكذا . . يعني بدلا من الصلاة . اقصد . . لم يكن هناك أى قداس ، بل شيء ما هكذا . .

لم يكن هناك شيء .

ارتبك أريستارخ ايفانيتش ، فنهض ، واستدار الى النافذة وراح يسعل .

— عندى سعال يا أخى . . لا أدرى اين أصبت بالبرد . . .

ونهض كوفالدين ايضا وأخذ يروح ويجيء بعصبية بجوار الطاولة .

وقال وهو يعبث بلحيته بيدين مرتعشتين :

— انك تلف وتدور . . الآن فهمت . . فهمت كل شيء . ولا أدرى لم كل هذه الدبلوماسية ! لماذا لا تقول مباشرة ؟ ماتت ، أليس كذلك ؟

فهز بسكاريوف كتفيه :

— هم . . . كيف أقول لك ؟ ليس تماما ماتت وانما هكذا . . أوه ، ها انت تبكى ! ألسنا كلنا سنموت ! ليس الموت مكتوبا عليها وحدها ، كلنا سنرحل الى الدار الآخرة ! وبدلا من البكاء أمام الناس . . هلا ذكرت روحها بالرحمة ! هلا رسمت الصليب !

ظل كوفالدين يحدق فى بسكاريوف ببلاهة حوالى نصف دقيقة ، ثم امتقع بشدة ، وسقط فى مقعده وانفجر فى بكاء هستيرى . . . وقفز زملاؤه الموظفون من خلف مكاتبهم وأسرعوا لنجدته وحك بسكاريوف قفاه وعبس .

ودمدم مادا يديه :

— التعامل مع هؤلاء السادة مصيبة . . اى والله ! . . يعول . . فلماذا يعول ؟ ميشا ، ماذا دهاك ؟ ميشا ! — وأخذ يهز كوفالدين . — انها لم تمت بعد ! من قال لك

انها ماتت ؟ بالعكس ، يقول الأطباء انه ما زال هناك أمل . . ميشا ! يا ميشا ! أقول لك انها لم تمت ! أتريد ان نذهب اليها سويا ؟ هيا وعندئذ سنلحق قداس الجناز . . . ماذا أقول ؟ لا اقصد القداس بل الغداء . ميشا ، اؤكد لك انها ما زالت حية ! فليعاقبنى الله ان كنت كاذبا ! فليحرمنى نعمة البصر ! ألا تصدقنى ؟ اذن فهيا نذهب اليها . . وعندئذ اعتبرنى ما شئت اذا لــم . . . من أين جاء بهذا ، لا أفهم ! أنا اليوم كنت بنفسى عند المرحومة ، اقصد ليس المرحومة . . انما . . اخص !

واشاح العقيد بيده وبصق وخرج من الادارة . وعندما وصل الى شقة المرحومة تهالك على الكنبة وشد شعره .

وصاح فى أسى :

— اذهبوا اليه أنتم ! مهدوا انتم للنبأ واعفونى من ذلك ! انا لا أريد ! لم أقل له سوى كلمتين . . مجرد تلميح . . فانظروا ماذا جرى له ! انه يموت ! فقد وعيه ! لن أقبل أبدا فى المرة القادمة . . اذهبوا أنتم ! . .

١٨٨٥

المتمارضون

في أحد أيام الثلاثاء من شهر مايو كانت زوجة الجنرال مارفا بتروفنا بتشونكينا ، التي تمارس العلاج الهوميوباتي منذ عشر سنوات ، تستقبل المرضى في غرفة مكتبها . وعلى الطاولة أمامها كان صندوق صيدلية الادوية الهوميوباتية وكتاب وصفات العلاج وفواتير الصيدلية . وعلى الجدران علقت تحت الزجاج في اطر مذهبة رسائل طبيب هوميوباتي ما من بطرسبرج كان مشهورا جدا في رأى مارفا بتروفنا ، بل وعظيما ، وصورة الأب أريستارخ الذى تدين له زوجة الجنرال بخلاصها ، أى بالكف عن العلاج المألوف وادراك الحقيقة . وفي الردهة ينتظر المرضى جالسين ، ومعظمهم من الفلاحين . وجميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة ، حفاة ، لأن زوجة الجنرال تأمرهم بأن يتركوا احذيتهم النتنة في الفناء .

كانت مارفا بتروفنا قد استقبلت عشرة اشخاص ، وها هي تستدعي الحادي عشر :

— جافريلا جروزد !

ويفتح الباب ، وبدلا من جافريلا جروزد ، يدخل الغرفة زاموخريشين ، جار زوجة الجنرال ، من الاقطاعيين المفلسين ، عجوز ضئيل الجسم ، ذو عينين كابيتين ،

وتحت أبطه قبعة النبلاء . ويضع العصا فى الركن ويقترب من زوجة الجنرال ، وفى صمت يركع على احدى ركبتيه أمامها .

فتفزع زوجة الجنرال وتتضرج حمرة :

— ما هذا ! ما هذا يا كوزما كوزميتش ! أرجوك لا داعى !

فيقول زاموخريشين مقبلا يدها :

— لن أنهض ما دمت حيا ! فليرانى الناس كلهم راكعا أمامك ، يا ملاكنا الحارس ، يا راعية جنس بنى البشر ! ليرونى ! الساحرة الخيِّرة التى وهبتنى الحياة ، وارشدتنى الى السبيل القويم ، وأنارت ظلمات يأسى ، هذه الساحرة مستعد أن اقف أمامها لا على ركبتى بل وفى النار أيضا ، يا شافية جراحنا الرائعة ، يا أم اليتامى والأرامل ! لقد شفيت ! بعثت حيا أيتها الساحرة !

فتدمدم زوجة الجنرال وهى تتضرج من السرور :

— أنا . . . انا سعيدة جدا . . . ما أطيب أن أسمع هذا . . . اجلس من فضلك ! ولكنك فى الثلاثاء الماضى كنت مريضا جدا !

فيقول زاموخريشين :

— أوه كم كنت مريضا ! مجرد التذكر شىء مرعب ! كان الروماتيزم ممسكا بكل أطرافى وأعضائى . ثمانى سنوات أتعذب ، لم أذق للراحة طعما . . . لا ليلا ولا نهارا يا ربة نعمتى ! ترددت على الأطباء ، وسافرت الى البروفيسورات فى كازان ، وتعالجت بمختلف أنواع الطين ، وشربت المياه المعدنية . لم أترك شيئا الا جربته ! وضيعت ثروتى

على العلاج يا سيدتي الجميلة . هؤلاء الأطباء لم يعودوا عليّ بشيء الا بالضرر . حبسوا الداء في جسمي . . صحيح أنهم حبسوه . . ولكن علومهم ليست قادرة على اخراجه . . هؤلاء اللصوص لا يحبون الا الاستيلاء على النقود ، أما آلام الانسان فلا تحرك شيئا في نفوسهم . يصف لك الدجال منهم شيئا ما ، وعليك أن تشربه . باختصار هم قتلة ! ولولاك يا ملاكنا ، لكنت الآن في القبر ! عدت من عندك يوم الثلاثاء الماضي ، ونظرت الى الحبات التي اعطيتنيها يومها وقلت لنفسي : «أي فائدة منها ؟ أمن المعقول أن هذه الحبيبات التي لا تكاد ترى يمكن أن تشفيني من مرضي الهائل القديم ؟» . ورحت ابتسم وأنا أفكر ، يالي من ضعيف الايمان ، وما أن تناولت حبة حتى ظهر الأثر فورا ! كأنما لم أكن مريضا ، كأنما يد مسحت الداء عني . وحدقت زوجتي فيّ بعينين جاحظتين وهي لا تصدق : «اهذا انت يا كوليا حقا ؟» فقلت لها : «نعم أنا» . وركعنا معا أمام الايقونة ورحنا نصلي لملاكنا : «فلتعطها يا رب كل ما نتمناه لها في نفوسنا !» .

ويمسح زاموخريشين عينيه براحته ، وينهض من على المقعد ، ويبدو أنه ينوي الركوع مرة اخرى على احدى ركبتيه ، ولكن زوجة الجنرال تستوقفه وتجلسه .

— لا توجه الشكر اليّ . . — قالت وهي تتضرج بحمرة الانفعال وتنظر باعجاب الى صورة الأب أريستارخ . — ما أنا الا أداة طيعة . . . يا لها من معجزات ! روماتيزم قديم ، من ثماني سنوات ويزول من حبة واحدة !

— لقد تكرمت واعطيتني ثلاث حبات . أخذت حبة

فى الغداء ، وفورا زال ! والثانية أخذتها فى المساء ، والثالثة فى اليوم التالى . . ومن ساعتها لم أشعر بشىء ! ولا حتى بوخزة ! مع أنى كنت استعد لملاقاة الموت ، حتى أنى كتبت لابنى فى موسكو أن يأتى ! ألهمك الله يا شافية الجراح ! ها أنذا أسير وكأنى فى الجنة . . . فى ذلك الثلاثاء عندما كنت عندك كنت أعرج ، أما الآن فعلى استعداد ولو لمطاردة أرنب . . . مائة سنة أخرى استطيع ان اعيش ! شىء واحد يؤرقنى : قلة الموارد . ها أنذا صحيح الجسم ، فما جدوى الصحة اذا كنت لا تجد ما تعيش به ؟ العوز أرهقنى اكثر من المرض . . . إليك مثلا على ذلك هذا الأمر . . . الآن أوان بذر الجودار ، فكيف تبذره وليس لديك بذور ؟ ينبغى ان أشترى ، ولكن النقود . . أى نقود لدينا . . .

— سأعطيك جوداراً يا كوزما كوزميتش . . . اجلس ، اجلس . كم أذهلتنى ، وأية سعادة منحتنى ، انا التى يجب أن اشكرك لا أنت !

— أنت سعادتنا ! كيف خلق الرب كل هذه الطيبة ! فلتفرحى يا سيدتى وانت تنظرين الى اعمالك الطيبة ! أما نحن المساكين فليس لدينا ما يفرحنا . . نحن قوم صغار ، فقراء الروح ، لا نفع منا . . . تافهون . . نحن نبلاء اسما فقط ، أما ماديا فنحن كهؤلاء الفلاحين ، بل اسوأ . . نعيش فى بيوت حجرية ولكن ذلك فى الحقيقة سراب . . لأن السقف مثقوب تتسرب منه المياه . . وليس لدينا ما نشترى به الخشب .

— سأعطيك خشبا يا كوزما كوزميتش .

ويحصل زاموخريشين كذلك على بقرة ، وخطاب توصية لابنته التى يعتزم الحاقها بمعهد و . . . ويغلبه التأثر من كرم زوجة الجنرال فيشهق باكيا ويتقلص فمه ، ويدس يده فى جيبه ليخرج المنديل . . . وترى زوجة الجنرال ورقة حمراء تخرج من جيبه مع المنديل وتسقط على الأرض دون صوت .

ويتمتم زاموخريشين :

— لن أنسى أبد الدهر . . . وسأوصى أولادى وأحفادى ان يذكروا . . وكل الأجيال . . ها هى يا أولادى تلك التى انقذتنى من القبر ، تلك التى . . .

وبعد أن تودع زوجة الجنرال مريضها تقف دقيقة تحدق فى الأب اريستارخ بعينين مغرورقتين بالدموع ، ثم تطوف بنظرة رقيقة ممتنة على الصيدلية ، وكتب العلاج ، والفواتير ، والكرسى الذى كان يجلس فيه منذ قليل الرجل الذى انقذته من الموت ، ويقع بصرها على الورقة التى سقطت من جيب المريض . وترفع زوجة الجنرال الورقة وتفضها ، فترى فيها ثلاث حبات ، تلك الحبات نفسها التى اعطتها لزاموخريشين فى الثلاثاء الماضى .

وتقول مستغربة :

— انها هى نفسها . . . حتى الورقة هى بعينها . . . انه حتى لم يفضها ! ما الذى تناوله اذن ؟ غريبة . . لا يمكن أن يكون قد خدعنى !

ولأول مرة خلال عشر سنوات من الممارسة يتسرب الشك الى نفس زوجة الجنرال . . . وتستدعى بقية المرضى ، وتلاحظ وهى تتحدث معهم عن أمراضهم ما كان يغيب عن سمعها من قبل . فجميع المرضى بلا استثناء ، وكأنما

اتفقوا على ذلك ، يمجدونها فى البداية على شفائهم المدهش ، ويبدون اعجابهم بحصافتها الطبية ، ويسبون الأطباء العاديين ، وبعد ذلك ، وعندما يتضرج وجهها من شدة الانفعال ، يبدأون فى شرح مطالبهم . فأحدهم يسألها قطعة أرض ليزرعها ، والآخر قليلا من الحطب ، والثالث يرجوها ان تسمح له بالصيد فى غاباتها . . . الخ . وتتطلع زوجة الجنرال الى وجه الأب اريستارخ العريض السمح الذى هداها الى الحقيقة ، وتأخذ حقيقة أخرى فى تعذيب روحها . . حقيقة كريهة ، ثقيلة . . .

ما أخبث الانسان !

١٨٨٥

البربوط *

صباح صيفي . والجو ساكن ، الا من أزيز جندب على الشاطئ ، وفي مكان ما يزقزق عصفور صغير بوجل . وفي السماء تقف سحب زغبية جامدة ، تشبه ندف الثلج المبعثر . . . وبجوار حمام يجرى بناؤه ، وتحت اغصان الصفصاف الخضراء يتخبط في الماء النجار جيراسيم ، وهو فلاح طويل نحيف ، بشعر أحمر مجعد ، ووجه مغطى بالشعر . ويزحر ويزفر ، ويغمز بعينيه بشدة ، وهو يحاول أن يستخرج شيئا ما من تحت جذور الصفصاف . ووجهه مغطى بالعرق . وعلى بعد ذراع من جيراسيم يقف غائصا في الماء حتى زوره النجار لوبيم ، وهو فلاح شاب أحدب ، بوجه مثلث وعينين ضيقتين صينيتين . وكل من جيراسيم ولوبيم يقفان بالقمصان والسراويل . وكلاهما ازرقّ جلده من البرد لأنهما يقفان في الماء منذ أكثر من ساعة . . .

ويصيح لوبيم الأحدب وهو يرتعش كالمحموم :

— ما لك تتحسس بيدك كالأعمى ؟ شغل مخك !

---

* البربوط — سمك نهرى من فصيلة القد . **المعرب** .

امسكه ، امسكه والا أفلت هذا الملعون ، امسكه قلت لك !

فيقول جيراسيم بصوت أبح مكتوم صادر لا من حلقه بل من أعماق بطنه :

— لن يفلت . . الى أين يذهب ؟ انحشر تحت الجذر . . . يا له من أملس ، هذا الشيطان ، لا تعرف من أين تمسكه .

— امسكه من خشمه ، من خشمه !

— خياشيمه لا تظهر . . . مهلا . . امسكته من موضع . . من شفته امسكته . . انه يعض ، هذا الشيطان !

— لا تشده من شفته ، لا تشده والا أفلت ! امسكه من خشمه ، من خشمه امسكه ! عدت تتحسس بيدك كالاعمى ! أما فلاح غبي ، رحمتك يا رب ! امسكه !

فيقلده جيراسيم مشاكسا :

— «امسكه» . . . حضرته عامل رئِيس . . تعال امسكه انت ، ايها الشيطان الأحدب . . ما لك واقف ؟

— لو كنت اقدر لأمسكته . . وهل استطيع بجسمي هذا أن انزل تحت الشاطئ ؟ المياه عميقة هناك !

— لا يهم انها عميقة . . اسبح . .

ويضرب الأحدب بذراعيه ويسبح حتى يبلغ جيراسيم ، ويتشبث بالأغصان . وما أن يحاول الوقوف على قدميه حتى يغوص في الماء ويبقبق .

ويقول وحدقتا عينيه تدوران بغضب :

— ألم اقل لك عميقة ! أجلس على رقبتك يعني ؟

— ضع قدميك على جذر . . الجذور هنا كثيرة — كدرجات السلم . .

ويتحسس الاحدب بكعبه حتى يعثر على جذر ، فيقف عليه بعد أن يتشبث بعدة غصون معا . . . ويحفظ توازنه ، وبعد أن يتمركز فى الموقع الجديد ينحنى محاولا الا يدخل الماء فمه ، ويروح يفتش بيده اليمنى بين الجذور . وتشتبك يده بالاعشاب المائية ، وتنزلق على الطحلب الذى يغطى الجذور ، ثم تصطدم بمخالب سرطان حادة . . .

— لم يكن ينقصنا سواك ايها الشيطان ! — يقول لوبيم ويلقى السرطان بغضب الى الشاطئ .

وأخيرا تعثر يده على يد جيراسيم ، فتهبط معها حتى تصل الى شيء أملس بارد .

ويبتسم لوبيم قائلا :

— ها هو ! كبير هذا الشيطان . . افتح اصابعك سوف امسكه . . من خشمه . . حاسب ، لا تدفع بكوعك . . حالا . . سأمسكه . . انتظر حتى اقبض عليه . . لقد انحشر هذا الشيطان تحت الجذر بعيدا . . . لا أصل الى رأسه . . ليس هناك الا بطن . . اقتل البعوضة على رقبتى . . آه تلسعنى ! سأمسكه . . حالا . . من خشمه . . تعال من الجنب ، ادفعه ، ادفعه ! انغزه باصبعك !

نفخ الأحدب شدقيه ، وكتم أنفاسه ، وحملقت عيناه ، وبدا وكأنه يوشك على دس اصابعه «تحت خشمه» ، الا ان الاغصان التى كان متشبثا بها بيده اليسرى تتكسر فجأة ، فيفقد توازنه و . . يهوى فى الماء ! وتنطلق دوائر متموجة ، مبتعدة عن الشاطئ وكأنها مذعورة ، وتتصاعد من موضع السقوط الفقاقيع . ويطفو الأحدب وهو يزفر ويتشبث بالأغصان .

ويدمدم جيراسيم بصوته الأبح :

— المصيبة أن تغرق وأصبح انا المسئول ! . . اخرج الى الشيطان من هنا ! أنا سأسحبه !

وينشب السباب . . . والشمس تحمى وتحمى ، وتصبح الظلال أقصر وتنكمش على نفسها كقرون القوقعة . . وتتصاعد من الاعشاب الطويلة التى سخنتها الشمس رائحة عسلية قوية . وعما قريب ينتصف النهار بينما لا يزال جيراسيم ولوبيم يتخبطان فى الماء تحت الصفصاف . ولا يكف الصوت «الباص» الأبح ، و«التينور» الرفيع المقرور عن تعكير سكون النهار الصيفى .

— اسحبه من خشمه ، اسحبه ! انتظر سأدفعه ! أين تدس كل هذه القبضة ؟ باصبعك لا بقبضتك يا بهيم ! تعال من الجنب ! من الشمال ادخل ، من الشمال ، فى اليمين حفرة ، حاسب والا تعشى بك عفريت الماء ! اسحبه من شفته !

وتسمع فرقعة سوط . . . وعلى الشاطئ المنبسط يسير قطيع نحو المورد فى كسل ، يسوقه الراعى يفيم . يسير الراعى ، هذا العجوز المتهالك ذو العين الواحدة والفم الملتوى ، مطأطأ الرأس ينظر تحت اقدامه . وتصل الى النهر الشياه أولا ، ثم تتبعها الخيول ، ومن خلفها البقر .

ويسمع الراعى صوت لوبيم :

— ادفعه من تحت ! مرر اصبعك ! هل أنت أطرش ؟ اخص ! — فيصيح يفيم :

— ماذا تطاردون يا اخوان ؟

— بربوطا ! لا نستطيع اخراجه . انحشر تحت الجذر !

ادخل من الجنب ! ادخل ، ادخل !

ويزر يفيم عينه الواحدة محدقا فى الصيادين لحظة ، ثم يخلع حذاءه «اللابتى» * ، ويلقى بالكيس عن كتفه ، وينزع قميصه . ولا يستطيع أن يصبر حتى يخلع سرواله فينزل به الى الماء وهو يرسم علامة الصليب ويحافظ على توازنه بيديه النحيلتين السمراوين . . . ويسير حوالى خمسين خطوة على القاع الطينى ، ثم يمضى سابحا .

ويصيح :

— انتظروا يا فتيان ! انتظروا ! لا تتعجلوا باخراجه والا أفلت . . لا بد من المهارة !

وينضم يفيم الى النجارين ، ويروح ثلاثتهم يتزاحمون فى مكان واحد وهم يدفعون بعضهم بعضا بالمرافق والركب ويزحرون ويسبون . . . ويشرق لوبيم الأحدب بالماء فيجلجل فى الجو سعال حاد متقلص .

ويسمع صياح من الشاطئ :

— أين الراعى ؟ يفيم ! يا راعٍ ! أين انـــت ؟ القطيع دخل البستان ! اطرده ، اطرده مـــن البستـان ! اطرده ! أين هذا الشقى العجوز ؟

وتسمع أصوات رجال ، ثم صوت امرأة . . ويخرج من وراء سياج بستان السادة الاقطاعى اندريه أندريتش مرتديا روبا من الحرير الفارسى وممسكا بجريدة فى يده . . . وينظر

---

* حذاء كان يصنع من لحاء الاشجار وينتعله فقراء الفلاحين فيما مضى فى روسيا . **المعرب** .

مستفهما نحو الأصوات الآتية من النهر ، ثم يسرع الخطى نحو الحمام . . .

— ماذا هنا ؟ من يصيح ؟ — يسأل بصرامة وهو يرى من خلال اغصان الصفصاف رؤوس الصيادين الثلاثة المبللة — عمَّ تبحثون هنا ؟

ويتمتم يفيم دون أن يرفع رأسه :

— سمـ — ـكة . . نصطاد . .

— سأريك كيف تصطاد ! القطيع دخل البستان وهو يصطاد السمك ! متى تنتهون من بناء الحمام ايها الشياطين ؟ منذ يومين تعملان ، فأين النتيجة ؟

فيزحر جيراسيم :

— سيكو — ن جاهزا . . الصيف طويل ، ستتمكن من الاستحمام يا صاحب السعادة . . بررر ، لا نستطيع اخراج البربوط من هنا . . . دخل تحت الجذر وكأنما فى جحر ، لا وراء ولا قدام . . .

— بربوط ؟ — يسأل السيد وعيناه تبرقان — اذن هيا اخرجوه بسرعة !

— فلتعطنا نصف روبل . . ونتركه لك . . بربوط كبير . . سمين كزوجة التاجر . يساوى نصف روبل يا صاحب السعادة . . جزاء على تعبنا . . لا تعصره يا لوبيم لا تعصره والا هلك ! ارفعه من تحت ! ارفع الجذر الى أعلى يا رجل انت . . ما اسمك ؟ الى أعلى لا الى اسفل ايها الشيطان ! لا تخبطا بأرجلكما !

وتمضى خمس دقائق ، ثم عشر . . ولا يستطيع السيد أن يصبر اكثر ، فيصيح ملتفتا نحو الدار :

— يا فاسيلى ! يا فاسكا ! نادوا فاسيلى .

ويأتى الحوذى فاسيلى ركضا . يمضغ شيئا ما ويتنفس بصعوبة .

فيأمره السيد :

— انزل الى الماء . . ساعدهم فى اخراج البربوط . . . لا يستطيعون اخراج بربوط !

وينزع فاسيلى ملابسه بسرعة وينزل الى الماء .

ويتمتم :

— حالا ، حالا . . . أين البربوط ؟ حالا . . فى لمح البصر ! اذهب انت يا يفيم ! لا مكان لعجوز مثلك هنا ، لا تتدخل فى أمر لا يخصك ! أين هنا البربوط ؟ أنا حالا . . . ها هو ! ارفعوا أيديكم !

— شاطر صحيح . . بدونك نعرف . . ارفعوا ايديكم قال . . طيب هيا اخرجه !

— وهل يمكن اخراجه هكذا ؟ لا بد من شده من رأسه !

— ورأسه تحت الجذر ! يا لك من غبـى !

— كفى نباحا والا أريتك ! يا وغد !

فيتمتم يفيم :

— فى حضرة السيد تسب بهذه الكلمات . . . لن تخرجوه يا جماعة ! انحشر هناك بمهارة !

— انتظروا ، أنا قادم . . . — يقول السيد ويبدأ فى نزع ملابسه على عجل . — اربعة حمقى ولا يستطيعون اخراج بربوط !

وبعد أن ينزع أندريه أندريتش ملابسه ، يقف قليلا

ليبرد جسمه ، ثم ينزل الى الماء . ولكن تدخله لا يفيد بشيء .

وأخيرا يقول لوبيم :

— لا بد من قطع الجذر ! اذهب يا جيراسيم وأحضر الفأس ! هاتوا الفأس !

ويقول السيد عندما تتردد تحت الماء ضربات الفأس على الجذر :

— لا تقطع أصابعك ! امش يا يفيم من هنا ! انتظروا ، انا الذى سأخرج البربوط ! . . أنتم لستم . . .

وها هو الجذر قد اجتث الى نصفه . ويكسرونه قليلا ، ويشعر اندريه اندريتش ، بسرور بالغ ان اصابعه تدخل فى خياشيم البربوط .

— اننى اشده يا جماعة ! لا تتزاحموا . . قفوا . . أنا اسحبه !

ويظهر فوق صفحة الماء رأس بربوط كبير ، ثم جسمه الأسود بطول ذراع . ويحرك البربوط ذيله بصعوبة محاولا ان يتملص .

— دعك من هذا يا أخى . . لا يمكن ان تفلت ! وقعت ؟ هكذا !

وترتسم على الوجوه كلها ابتسامة عسلية . وتمر دقيقة فى تأمل صامت .

ويتمتم يفيم وهو يحك صدره :

— بربوط عظيم ! حوالى عشرة أرطال . . .

فيقول السيد موافقا :

— نعم . . . انظر الى كبده كم هى ممتلئة . . تكاد

تقفز من داخله . . . آه !

وفجأة يأتي البربوط بحركة حادة مباغتة بذيله الى أعلى ، ويسمع الصيادون صوت ارتطام شديد بالماء . . ويمد الجميع أيديهم ، ولكن بعد فوات الأوان . . . اذ لم يعد للبربوط أثر .

١٨٨٥

الصياد

قيلولة قائظة خانقة . ولا سحابة فى السماء . . . والعشب الذى احرقته الشمس يبدو كئيبا بائسا : فحتى لو سقط المطر فلن تعود اليه الخضرة . . . والغابة تقف بأشجارهـا صامتة ، جامدة ، وكأنما تحدق ذؤاباتها فى نقطة ما ، أو تنتظر حدوث شيء .

وعلى حافة الغابة يسير رجل طويل القامة ، ضيـق المنكبين ، فى حوالى الاربعين من عمره ، فى قميص أحمر وبنطال مرقع من بناطيل سيده ، وحذاء طويل كبير . يسير على الطريق فى كسل وبخطوة متراخية . وعن يمينه تلوح الغابة الخضراء ، وعن يساره وحتى الأفق يمتد بحر ذهبـى من الحنطة الناضجة . . . والرجل أحمر الوجه ، عرقان . وعلى قفاه الأشقر الجميل تستقر عمرة بيضاء بمقدمة مستطيلة كمقدمات عمرات الجوكية ، والظاهر أنها هدية من أحد السادة أهداها له فى لحظة كرم حاتمى . ومن كتفه يتدلى كيس صيد يرقد فيه محشورا ديك برى . ويمسك الرجل فى يديه ببندقية بماسورتين مرفوعة الزناد ، ويزر عينيه محدقا فى كلبه العجوز الهزيل الذى يركض أمامه ويتشمم الأحراش . والسكون من حوله مطبق ، لا يعكره صوت . . . لقد اختبأ من الحر كل ما هو حيّ .

وفجأة يسمع الصياد صوتا خافتا :

— يجور فلاسيتش !

فينتفض ، ويلتفت خلفه ، ثم يقطب حاجبيه . وبجواره ، وكأنما انشقت عنها الأرض ، تقف امرأة شاحبة الوجه ، فى حوالى الثلاثين ، ممسكة بمنجل فى يدها . وتحاول أن تحدق فى وجهه ، وتبتسم بخجل .

فيقول الصياد متوقفا وهو ينزل الزناد ببطء :

— آه ، أهو أنت يا بيلاجيا ! هم ! . . كيف جئت الى هنا ؟

— هنا تعمل نساء من قريتنا ، وأنا معهن . . عاملات يا يجور فلاسيتش .

— طيب . . . — يهمهم يجور فلاسيتش ، ثم يواصل سيره ببطء .

وتتبعه بيلاجيا . يسيران فى صمت حوالى عشرين خطوة .

— لم أرك من مدة طويلة يا يجور فلاسيتش . . . — تقول بيلاجيا وهى تتطلع بحنان الى كتفى الصياد المتحركتين وظهره . — من يوم أن دخلت البيت فى عيد الفصح لتشرب ماء ، من يومها لم نرك . فى عيد الفصح جئتنا لدقيقة . . وفوق ذلك كنت فى . . . حالة سكر . . . شتمتنى وضربتنى وانصرفت . . . وما أكثر ما انتظرتك ! . . كلّ بصرى من النظر وانا انتظرك . ايه يا يجور فلاسيتش ! طل علىّ ولو مرة !

— وما الذى أفعله عندك ؟

— صحيح ليس هناك ما تفعله . . عندك حق . .

ومع ذلك فهناك البيت وأموره . . تعال انظر . . فأنت السيد . . آه ، اصطدت ديكا . يا يجور فلاسيتش ! ألا تجلس لتستريح قليلا . . . .

تقول بيلاجيا ذلك وهى تضحك كالبلهاء وتتطلع الى اعلى ، الى وجه يجور . . . وينضح وجهها بالسعادة . . .

— أجلس ؟ ممكن . . . — يقول يجور بنبرة لامبالية ، ويختار موضعا بين شجرتى شوح . — ما لك واقفة ؟ اجلسى أنت ايضا !

وتجلس بيلاجيا على مسافة منه تحت الشمس اللافحة وتخفى بيدها فمها المبتسم وهى تخجل من فرحتها . وتمر دقيقتان من الصمت .

ثم تقول بيلاجيا بصوت خافت :

— طل علينا ولو مرة !

فيتنهد يجور وينزع عمرته ، ويمسح بكمه جبينه الأحمر ويقول :

— وما الداعى ؟ لا حاجة الى ذلك البتة . اذا جئت لساعة أو ساعتين فهذا تعب لا طائل منه . . سأثيرك فقط . . أما الاقامة الدائمة فى القرية فلا تطيقها روحى . . انت تعرفين اننى رجل مدلل . . يلزمنى ان انام على سرير ، واتناول شايا جيدا ، وبحاجة الى أحاديث مهذبة . . . انا بحاجة الى كل وسائل الرفاهية . . فماذا لديك فى قريتك غير الفقر والهباب . . . لن اتحمل يوما واحدا . ولو صدر اليّ ، مثلا ، أمر يحتم عليّ العيش عندك لأحرقت الدار أو انتحرت . أنا مدلل من صغرى ، ولا حيلة لى فى الأمر .

— وأين تعيش الآن ؟

— عند السيد ديمترى ايفانيتش ، أعمل صيادا . أقدم الطيور البرية لمائدته . . ولكنه عموما يستبقينى للمتعة . . .

— هذا العمل لا يليق بمقامك يا يجور فلاسيتش . . الناس تنظر اليه كلهو ، بينما تعتبره أنت حرفة . . تراه عملا حقيقيا . . . .

فيقول يجور وهو يتطلع الى السماء حالما :

— انت لا تفهمين ذلك يا غبية . لم تفهمى ولن تفهمى ابدا أى رجل أنا . . . أنا فى رأيك رجل طائش ، ضال ، أما الذين يفهمون فأنا بالنسبة لهم أحسن قناص فى الناحية . السادة يدركون ذلك ، بل وكتبت عنى احدى المجلات . لا يوجد ند لى فى مجال الصيد . . أما كونى احتقر مهنتكم الفلاحية فليس ذلك لأنى مدلل أو متكبر . انك تعرفين ، اننى منذ صغرى لم اعرف عملا غير البندقية والكلاب . ولو اخذوا منى البندقية لأمسكت بالسنارة ، ولو اخذوا السنارة فسأصطاد بيدىّ . وكنت اكسب أيضا من الخيل ، كنت أطوف بالأسواق عندما يكون معى نقود . وانت تعرفين ان الفلاح اذا ما وهب نفسه للصيد أو للخيل فعلى المحراث السلام . واذا تقمصت الانسان روح الحرية فلن يستطيع احد اخراجها منه . وأيضا اذا وهب أحد السادة نفسه للتمثيل أو أى نوع آخر من الفنون ، فلن يصبح أبدا موظفا أو اقطاعيا . انت يا امرأة لا تفهمين ، وهذا شيء يتطلب الفهم .

— أنا فاهمة يا يجور فلاسيتش .

— معنى ذلك انك لا تفهمين طالما تشرعين فى البكاء . . .

— انا . . . انا لا ابكي . . . — تقول بيلاجيا مستديرة عنه بوجهها . — حرام يا يجور فلاسيتش ! ابق ولو يوما واحدا معي انا التعيسة . اثنتا عشرة سنة مرت منذ ان تزوجتك و . . ولم يكن بيننا حب ولا مرة واحدة ! أنا . . . أنا لا أبكي ! . .

ويدمدم يجور وهو يحك ذراعه :

— حب . . . لا يمكن ان يكون بيننا أي حب . أنا وانت متزوجان بالاسم فقط ، فهل فعلا نحن كذلك ؟ أنا بالنسبة لك رجل متوحش ، وانت بالنسبة لي امرأة بسيطة لا تفهم . هل نحن زوج ؟ أنا رجل حر ، مدلل ، جوال ، وأنت كادحة ، فلاحة ، تعيشين في القذارة ، محنية الظهر دائما . أنا اعتبر نفسي في الصيد أول الجميع ، أما أنت فتنظرين اليّ باشفاق . . فهل نحن زوج ؟

فتقول بيلاجيا وهي تشهق بالبكاء :

— ولكننا متزوجان يا يجور فلاسيتش !

— متزوجان بالاكراه . . هل نسيت ؟ اشكري الكونت سرجي بافليتش على ذلك و . . نفسك . فبسبب الغيرة من اني أرمي أحسن منه ظل الكونت يسقيني الخمر شهرا كاملا ليسكرني ، ومن الممكن دفع السكران لا الى الزواج فحسب بل والى اعتناق دين آخر . وهكذا اراد ان ينتقم مني فزوجني منك وأنا سكران . . زوّج الصياد المحترف براعية ماشية ! كنت تعرفين انني سكران فلماذا قبلت ؟ انت لست عبدة ، وكنت تستطيعين ان ترفضي ! طبعا زواج مربية الماشية بصياد محترف شيء مشرِّف ، ولكن كان ينبغي أن يكون لديك نظر . حسنا ، تعذبي الآن وابكي . الكونت يضحك وأنت تبكين . . اضربي الحائط برأسك . . .

وتحل لحظة صمت . وتطير فوق طرف الغابة ثلاث بطات برية . ويتطلع يجور اليها ويتابعها بنظره الى أن تصبح ثلاث نقاط لا تكاد ترى وتهبط بعيدا وراء الغابة .

ثم يحول نظره عن البطات الى بيلاجيا ويسألها :

— وبم تعيشين ؟

— الآن اخرج للعمل ، أما فى الشتاء فآخذ طفلا من الملجأ واطعمه بالبزازة . ويعطوننى روبلا ونصف فى الشهر .

— هكذا . . .

ويعود الصمت من جديد . وتتناهى من الشريط المحصود اغنية تنقطع فى بدايتها . فالحر لا يدع مجالا للغناء . . .

ثم تقول بيلاجيا :

— يقولون أنك بنيت لأكولينا بيتا جديدا .

ويصمت يجور .

— اذن فقلبك يميل اليها . . .

فيقول الصياد وهو يتمطى :

— هذا هو حظك ، وتلك سعادتك ! اصبرى يا يتيمة . طيب ، وداعا ، أطلت فى الكلام . . . ينبغى أن اكون مساء فى بولتوفو . . .

وينهض يجور ، ويتمطى ، ويتقلد البندقية . وتنهض بيلاجيا .

وتسأل بصوت خافت :

— ومتى ستأتى الى القرية ؟

— لا داعى . لن آتى ابدا وأنا مفيق ، أما وانا سكران فلا فائدة منى لك . عندما اكون سكران أصبح غضوبا . وداعا !

— وداعا يا يجور فلاسيتش . . .

ويضع يجور العمرة على مؤخرة رأسه ويدعو الكلب بمصة من شفتيه ويواصل طريقه . وتقف بيلاجيا فى مكانها تشيعه بنظراتها . . . وترى عظام ظهره المتحركة وقفاه الفتى وخطوته البطيئة اللامبالية فتمتلئ عيناها بالحزن والرقة الحانية . . . وتطوف نظرتها بقوام زوجها النحيل الطويل وتلاطفه وتهدهده . . . وكأنما يحس هو بهذه النظرة فيتوقف ويلتفت . . . يقف صامتا ، ولكن بيلاجيا تشعر من وجهه وكتفيه المرتفعتين انه يريد ان يقول لها شيئا ما . فتقترب منه بوجل وتحدق فيه بعينين ضارعتين .

فيقول لها وهو يستدير :

— خذى !

ويمد لها روبلا مجعدا وينصرف بسرعة .

وتأخذ منه الروبل آليا وهى تقول :

— الوداع يا يجور فلاسيتش !

ويسير فى طريق طويل مستقيم كالحزام المشدود . . . وتقف هى شاحبة جامدة كالتمثال ، وتلتهم بعينها كل خطوة من خطواته . ها هو لون قميصه الأحمر يندمج بلون سرواله الغامق ، ولا تبين خطواته ، ولا تميز الكلب عن حذائه . لا ترى سوى العمرة فقط ، ولكن . . . ينعطف يجور فجأة يمينا الى الغابة فتختفى العمرة فى الخضرة .

— الوداع يا يجور فلاسيتش !

تهمس بيلاجيا وتشب على اطراف أصابعها كى ترى ولو مرة أخرى العمرة البيضاء .

مع سبق الاصرار

أمام المحقق يقف فلاح صغير ، نحيف للغاية ، فى قميص مقلم وسروال مرقع . ويبدو على وجهه الذى غطاه الشعر وأكله النمش ، وعينيه اللتين لا تكادان تظهران من تحت حاجبيه الكثيفين المتهدلين ، تعبير صرامة عابسة . وعلى رأسه كومة من الشعر الملبد الذى لم يمشط منذ زمن طويل ، مما يضفى عليه مزيدا من الصرامة العنكبوتية . وهو حافى القدمين .

ويبدأ المحقق :

— دينيس جريجوريف ! اقترب وأجب على اسئلتى . فى السابع من يوليو الجارى كان حارس السكة الحديدية ايفان سيميونوف اكينفوف يقوم بالتفتيش صباحا على الخط ، فوجدك عند الكيلو ١٤١ متلبسا بفك صامولة من الصواميل التى تثبت بها القضبان على الفلنكات . وها هى الصامولة ! وقد قبض عليك ومعك هذه الصامولة . هل هذا هو ما حدث ؟

— أه ؟

— هل حدث هذا كما ذكر أكينفوف ؟

— معلوم ، حصل .

— طيب ، ولأى غرض فككت الصامولة ؟
— أه ؟
— دعك من «أهك» هذه وأجب على السؤال : لأى غرض فككت الصامولة ؟

يقول دينيس بصوت أبح وهو يتطلع الى السقف :
— لو لم اكن بحاجة اليها ما فككتها .
— وما حاجتك الى الصامولة ؟
— الصامولة ؟ نحن نصنع منها ثقالات السنانير . . .
— ومن هؤلاء «نحن» ؟
— نحن ، الناس . . . فلاحو الناحية يعنى .
— اسمع يا أخانا ، لا تتظاهر بالغباء وتكلم بصراحة . كفاك كذبا بخصوص الثقالات !

فيدمدم دينيس وهو يطرف بعينيه :
— أنا عمرى ما كذبت ، فلماذا اكذب الآن . . . وهل يمكن يا صاحب السعادة ان تصيد بدون ثقالة ؟ لو وضعت حشرة أو دودة فى السنارة فهل يمكن ان تغوص الى القاع بدون ثقالة ؟ — ويضحك دينيس ضحكة قصيرة . — اكذب قال . . . وأى فائدة من الطعم اذا بقى طافيا على سطح الماء ؟ الفرخ والكراكى والبربوط دائما تعوم قرب القاع ، واذا عام شىء عند السطح فليس الا الشيليشبيور وحتى هذا نادر . . . الشيليشبيور لا يعيش فى نهرنا . . . هذه السمكة تحب الوسع . .
— ولماذا تحدثنى عن الشيليشبيور ؟
— أه ؟ طيب ، أصل حضرتك سألتنى ! السادة أيضا عندنا يصطادون بهذه الطريقة . حتى أصغر عيل لن

يصطاد بدون ثقالة . طبعا الذى لا يفهم هو الذى سيصطاد بدون ثقالة . العبيط لا عتب عليه . . .

— اذن انت تعترف بأنك فككت هذه الصامولة لكى تصنع منها ثقالة ؟

— مضبوط ! وهل لألعب بها !

— ولكنك تستطيع أن تستخدم للثقالة الرصاص ، أو الرش . . أو أى مسمار . .

— الرصاص لن تجده ملقى على الطريق ، لازم تشتريه ، والمسمار لا ينفع . ليس هناك أحسن من الصامولة . . . فهى ثقيلة وبها خرم .

— كيف يتظاهر بالغباء ! كأنه ولد بالأمس أو هبط من السماء . ألا تفهم أيها الأحمق الى أى شىء يؤدى فك الصواميل ؟ لو لم يكتشف الحارس ذلك لكان من الممكن أن يخرج القطار عن القضبان ولمات الناس ! كنت ستتسبب فى قتل الناس !

— اعوذ بالله يا صاحب السعادة ! لماذا اقتلهم ؟ وهل نحن لا نعرف ربنا أم اننا اشرار ؟ الحمد لله يا صاحب السعادة ، أنا عشت حياتى ولم اقتل احدا ولم أفكر حتى فى ذلك . . يا ساتر يا رب ارحمنا . . . كيف تقول ذلك !

— وما رأيك ، لماذا تقع حوادث انقلاب القطارات ؟ اذا فككت صامولتين أو ثلاثا وقع الحادث !

ويضحك دينيس ضحكة سخرية قصيرة ويزر عينيه محدقا فى المحقق بارتياب .

— لا ! من سنين وكل أهل القرية يفكون الصواميل ، وربنا سترها ، وحضرتك تقول : انقلاب القطارات ! . .

قتل الناس . . . لو أنى خلعت القضيب ، أو وضعت مثلا جذع شجرة بعرض القضبان فيمكن ساعتها ينقلب القطار . . ولكن هذه مجرد صامولة ! شيء بسيط !

— الا تفهم ان الصواميل تثبت بها القضبان فى الفلنكات !

— نحن نفهم هذا . . . اننا لا نفك كل الصواميل . . نأخذ البعض ونترك الباقى . . . عندنا نظر . . فاهمين طبعا . . .

ويتثاءب دينيس ويرسم علامة الصليب على فمه .

ويقول المحقق :

— فى العام الماضى خرج قطار عن القضبان هنا . . . مفهوم الآن لماذا . . .

— ماذا تقول حضرتك ؟

— أقول مفهوم الآن لماذا خرج قطار عن القضبان فى العام الماضى . . الآن فهمت أنا السبب !

— سعادتكم من أهل العلم ولذلك تفهمون . . ربنا أعلم لمن يعطى المفهومية . . أهو حضرتك عرفت وقدرت ، لكن الحارس مثله مثل الفلاح ، ليس عنده أى مفهومية ، يمسك الواحد من قفاه ويشده . . طيب الأول اعرف وبعدين شد ! الفلاح فلاح ، ومخه فلاحى . . . اكتب أيضا يا صاحب السعادة ، انه ضربنى مرتين فى وجهى وفى صدرى .

— عند اجراء التفتيش وجد عندك صامولة أخرى . . . فأين ومتى فككت هذه الصامولة ؟

— حضرتك تقصد الصامولة التى كانت تحت الصندوق الأحمر ؟

— لا أعرف اين كانت هذه الصامولة ، لكنهم وجدوها

لديك . متى فككتها ؟

— أنا لم افككها . اعطاني اياها ايجناشكا ، ابن سيميون الاعور . أنا اقصد الصامولة التي تحت الصندوق ، اما تلك التي في الزحافة ، في الحوش ، ففككتها أنا ومتروفان .

— أي متروفان ؟

— متروفان بتروف . . . ألم تسمع عنه ؟ انه يصنع الشباك ويبيعها للسادة . وهو يحتاج الى صواميل كثيرة مثل هذه . كل شبكة تحتاج الى حوالى عشر صواميل . . .

— اسمع . . . المادة ١٠٨١ من قانون العقوبات تنص على ان كل تخريب متعمد للسكك الحديدية يكون من شأنه تعريض سلامة وسيلة النقل المارة بها للخطر ، وفي حالة معرفة الجاني بالعواقب الوخيمة التي سيؤدى اليها فعله . . فاهم ؟ ولا بد أنك تعرف الى اى شيء يؤدى فك الصواميل . . . يعاقب مرتكبه بالنفي والأشغال الشاقة .

— طبعا حضرتك أدرى . . نحن ناس جهلة . . . وهل نحن نفهم ؟

— انت فاهم كل شيء ! لكنك تكذب ، وتتظاهر بالغباء !

— ولماذا اكذب ؟ اسأل أهل القرية ان كنت لا تصدقني . . . بدون الثقالة لا يصطاد الا السمك الأبيض ، وهل هناك اسوأ من القوبيون ، ومع ذلك فلا يمكن صيده بدون الثقالة .

فيبتسم المحقق قائلا :

— أظنك ستحدثني الآن عن الشيليشبيور .

— الشيليشبيور لا يعيش في نواحينا . . . نرمي الخيط

بدون تقالة على سطح الماء ، والطعم فراشه ، ونصطاد الشبوط ، وحتى هذا نادر . .

— طيب ، اسكت . . .

ويسود الصمت . يقف دينيس متململا ، ويحدق في الطاولة ذات المفرش من الجوخ الأخضر ويطرف بشدة وكأنه لا يرى أمامه جوخا بل شمسا . والمحقق يدون بسرعة .

وبعد فترة صمت يسأل دينيس :

— هل انصرف ؟

— لا ، ينبغي أن ارسلك تحت الحراسة الى السجن .

يكف دينيس عن الطرف ، ويرفع حاجبيه الكثيفين ، وينظر الى المحقق متسائلا :

— كيف الى السجن ؟ يا صاحب السعادة ! أنا مستعجل ، لازم أروح للسوق . ولي عند يجور ثلاثة روبلات ثمن الشحم لازم استلمها .

— اسكت ، لا تشوش عليّ .

— الى السجن . . . لو كنت فعلت ما يستحق السجن لذهبت ، ولكن هكذا . . بدون ذنب . . ماذا فعلت ؟ لم أسرق ، وأظن لم اتعارك . . . أما اذا كنت تشك فيّ بخصوص الدين ، فلا تصدق العمدة يا صاحب السعادة . . . ارجوك اسأل السيد عضو اللجنة . . . العمدة لا يعرف ربنا . . .

— اسكت !

فيدمدم دينيس :

— انا ساكت . . طيب انا مستعد احلف اليمين ان العمدة يغالط فى الحساب . . . نحن ثلاثة أخوة : كوزما جريجوربيف ، وبعدين يجور جريجوربيف ، وأنا دينيس

جريجوريف . . .

— انت تشوش عليّ . . . — ويصيح المحقق : — ياسيميون ! خذه !

ويدمدم دينيس بينما يقتاده جنديان قويان خارج غرفة التحقيق :

— نحن ثلاثة أخوة . . والأخ لا يحاسب على ذنب أخيه . . . كوزما لا يدفع وأنا المسئول ! يا لكم من قضاة ! مات السيد الجنرال ، عليه الرحمة ، والا لأراكم الويل ، ايها القضاة . . اذا حكمتم فلتحكموا بالعدل ، بالمفهومية . . وليس هكذا بلا ذنب . . حتى لو حكمتم بالجلد فليكن . . المهم بالحق ، بالأمانة . . .

١٨٨٥

الصول بريشيبييف

— الصول بريشيبييف ! أنت متهم بأنك فى الثالث من سبتمبر الجارى أهنت بالقول والفعل الدركى جيغين وشيخ الناحية أليابوف وشيخ الخفراء يفيموف ، والشاهدين ايفانوف وجافريلوف ، وستة آخرين من الفلاحين ، علما بأنـــك اعتديت على الثلاثة الأول اثناء قيامهم بأداء مهامهم الرسمية . مذنب ام غير مذنب ؟

يقف الصول بريشيبييف ، وهو رجل مكرمش ، بوجه شائك ، شادا يديه الى جنبيه فى وقفة انتباه ، ويجيب بصوت أبح مخنوق ، مشددا على كل كلمة وكأنما يصدر الأوامر :

— يا صاحب السعادة ، يا سيادة قاضى الناحية ! معلوم أن القانون فى جميع مواده ينظر فى تكييفه للحوادث انطلاقا من حجج الطرفين . لست انا المذنب بل هم جميعا . وكل ذلك حدث بسبب تلك الجثة الميتة ، عليها الرحمة . كنت سائرا فى الثالث من الشهر مع زوجتى أنفيسا فى هدوء ووقار واذا بـى أرى مجموعة من مختلف الناس متجمهرة على الشاطئ . فتساءلت : بأى حق اجتمع الناس هنا ؟ لأى غرض ؟ وهل ينص القانون على ان يسير الناس

كالقطيع ؟ وصحت : تفرقوا ! وأخذت أدفع الناس لكى ينصرفوا الى بيوتهم ، وأمرت شيخ الخفراء أن يفرقهم بالقوة . . .

— عفوا ، ولكنك لست الدركى ولا العمدة . . فهل من شأنك تفريق الناس ؟

وتتردد اصوات من شتى انحاء القاعة :

— ليس شأنه ! ليس شأنه ! سمَّم علينا حياتنا يا صاحب السعادة ! خمس عشرة سنة ونحن نتحمله ! من يوم أن جاء من الخدمة والحياة لا تطاق ! عذب الجميع !

ويقول الشاهد العمدة :

— صحيح يا صاحب السعادة ، كل الناس يشكون منه . الحياة معه مستحيلة ! سواء فى الأعياد الدينية ، أم فى الأعراس ، أم عندما يحدث حادث ما ، تجده دائما يصيح ويزمجر ويفرض علينا نظامه . ويشد الأولاد من آذانهم ، ويتلصص على النساء خشية ان يحدث شيء وكأنه حمو كل زوجة . . . منذ فترة قريبة طاف بالبيوت وأمرنا بألا نغنى الاغانى أو نشعل الضوء . ويقول انه لا يوجد قانون ينص على غناء الاغانى .

فيقول قاضى الناحية :

— انتظر ، سيأتى دورك فى الشهادة ، اما الآن فليكمل بريشيبييف . اكمل يا بريشيبييف !

فيقول الصول بصوته الأبح :

— حاضر يا افندم ! حضرتك تقول انه ليس من شأنى تفريق الناس . . . طيب . . . واذا حدث اضطراب ؟ هل من المعقول أن نسمح للناس بالعبث ؟ أين هو القانون

الذى ينص على اطلاق ايدى الناس ؟ أنا لا أستطيع ان أسمح بذلك . واذا لم أقم أنا بتفريقهم وتغريمهم فمن الذى سيفعل ذلك ؟ لا أحد يعرف النظام المضبوط . أنا وحدى فى القرية كلها يا صاحب السعادة الذى يعرف كيف يتعامل مع الناس البسطاء ، أنا وحدى استطيع ان أفهم كل الأمور يا صاحب السعادة . أنا لست فلاحا ، أنا صف ضابط ، صول متقاعد ، كنت أخدم فى وارسو ، فى هيئة الأركان ، وبعد ذلك ، لما أحالونى الى التقاعد ، عملت فى المطافىء ، ثم عملت بوابا لمدة سنتين فى مدرسة ثانوية للبنين . . . أنا اعرف كل النظم . أما الفلاح فشخص بسيط ، لا يفهم شيئا وينبغى أن يطيعنى ، لأن ذلك من مصلحته . خذ مثلا هذه القضية . . . كنت أفرق الناس ، وعلى الشاطىء ، على الرمال ، جثة غريق ميت . انى أتساءل بأى حق ترقد هذه الجثة هنا ؟ وهل هذا يتفق والنظام ؟ لماذا لم يتحرك الدركى ؟ قلت له : لماذا لم تخطر الرؤساء ؟ ربما كان المرحوم الغريق غريقا ، وربما تفوح فى الجو رائحة سيبيريا . ربما كانت هذه جريمة قتل . . . ولكن الدركي جيغين لا يبالى أبدا ، بل يدخن فقط . ويقول : «مَنْ هذا الآمر عندكم ؟ من أين جئتم به ؟ أم أننا بدونه لا نعرف كيف نؤدى عملنا ؟» فقلت له : اذن فأنت لاتعرف أيها الأحمق طالما تقف هكذا ولا تبالى . فقال : «منذ أمس أخطرت رئيس الشرطة المحلية» . فسألته : ولماذا اخطرت رئيس الشرطة المحلية ؟ حسب اية مادة فى القوانين ؟ ألا تعرف انه فى مثل هذه الأحوال ، فى حالة الغرق أو الخنق وغيرها من الأحوال

لا يستطيع رئيس الشرطة المحلية أن يتصرف ؟ القضية هنا جريمة . . قانون مدنى . . القضية هنا تستدعى اخطار السيد وكيل النيابة والقضاة . وقبل كل شيء عليك أن تكتب محضرا وترسله الى السيد قاضى الناحية . ولكنه أخذ يسمع ويضحك . والفلاحون أيضا . كلهم ضحكوا يا صاحب السعادة . أقسم على ذلك . هذا ضحك أيضا ، وذلك الواقف هناك ، وجيغين ضحك . فقلت لهم : ما لكم تسخرون ؟ فقال الدركى : «قاضى الناحية لا يفصل فى هذه القضايا» . هذه الكلمات جعلتنى ارتعش كالمحموم . — وقال الصول مخاطبا الدركى : ألم تقل ذلك ؟

— قلت .

— الجميع سمعك وانت تقول أمام العامة : «قاضى الناحية لا يفصل فى هذه القضايا» . سمعك الجميع وانت تقولها . . . ارتعشت كالمحموم يا صاحب السعادة ، بل انى تجمدت رعبا . قلت له : اعد ايها الوغد ما قلت ! فأعاد هذه الكلمات نفسها . . . فاقتربت منه وقلت له : كيف تجرؤ على قول هذا عن حضرة قاضى الناحية ؟ انت دركى شرطة وتقف ضد السلطة ؟ هه ؟ الا تعرف أن سيادة قاضى الناحية اذا شاء يستطيع أن يحيلك الى ادارة شرطة المحافظة جزاء على هذه الكلمات وبسبب عدم ولائك ؟ ألا تعرف الى أين يستطيع سيادة قاضى الناحية ان يرسل بك جزاء على مثل هذا الكلام السياسى ؟ فاذا العمدة يقول : «قاضى الناحية لا يستطيع ان يتجاوز حدوده . هو يفصل فى القضايا الصغيرة فقط» . هكذا قال ، وقد سمعه الجميع . . . فقلت له : كيف تجرؤ على تحقير السلطة ؟

اياك أن تمزح معى والا كانت عاقبتك سيئة . فأيام كنت أخدم فى وارسو ، وأيضا عندما كنت بوابا فى مدرسة البنين الثانوية ، كنت ما أن أسمع كلمات غير مناسبة حتى اتطلع الى الشارع بحثا عن شرطى ثم ادعوه : «تعال هنا يا فارس» ، وأخبره بكل شىء . أما هنا فى القرية فمن الذى تقول له ؟ . . استبد بـى الغضب . احنقنى أن ناس هذه الأيام تمادوا فى التصرف على هواهم والخروج عن الطاعة فرفعت قبضتى و . . . ضربته طبعا ليس بقوة ، بل هكذا ، على خفيف ، حتى لا يجرؤ على التفوه بهذه الكلمات عن معاليكم . . . وتدخل الدركى دفاعا عن العمدة . وطبعا ضربت الدركى . . . ثم تطورت الأمور . . . لم أضبط اعصابـى يا صاحب السعادة . . ولكن كيف يمكن للمرء ألا يضرب ؟ اذا لم تضرب الشخص الغبـى فأنت ترتكب ذنبا . خاصة اذا كان يستحق . . اذا كان هناك اضطراب . . .

— عفوا ، هناك اشخاص مسئولون عن منـــع الاضطرابات . هناك الدركى والعمدة وشيخ الخفراء .

— الدركى لا يستطيع أن يحيط بكل شىء ، كما أنه لا يفهم ما أفهمه أنا . . .

— فلتفهم أن هذا ليس من شأنك !

— ماذا ؟ كيف ليس من شأنى ؟ غريب ! . . الناس يثيرون الفوضى وهذا ليس من شأنى ! حسنا ، هل امتدحهم على ذلك ؟ ها هم يشكون لكم من أننى منعت الغناء . . . أى فائدة من هذه الأغانى ؟ بدلا من القيام بعمل مفيد يغنون الأغانى . . . ثم هذه الموضة التى ساروا عليها : الجلوس فى المساء واشعال الضوء . ينبغى ان

يناموا ولكنهم يجلسون وهم يتحدثون ويتضاحكون . لقد سجلت عندى !

— ماذا سجلت عندك ؟

— اسماء الذين يجلسون مشعلين الضوء .

ويخرج بريشيبييف من جيبه ورقة مجعدة ، ويضع النظارة على عينيه ويقرأ :

— «الفلاحون الذين يجلسون مشعلين الضوء : ايفان بروخروف ، سافا ميكيفوروف ، بيوتر بتروف . زوجة الجندى شوستروفا ، أرملة ، تعاشر فى الحرام سيميون كيسلوف . اجنات سفيرتشوك يزاول السحر ، وزوجته مافرا ساحرة ، تحلب فى الليل أبقار الجيران» .

— كفى !

يقول القاضى ويشرع فى استجواب الشهود .

فيرفع الصول بريشيبييف نظارته الى جبينه ويتطلع بدهشة الى قاضى الناحية الذى يبدو واضحا أنه لا يقف فى صفه . وتبرق عينا الصول الجاحظتان ، ويصطبغ أنفه بلون أحمر قان . يتطلع الى قاضى الناحية ، والى الشهود ولا يستطيع ابدا أن يفهم لماذا يبدو القاضى منفعلا الى هذا الحد ، ولماذا يتردد من كل زوايا القاعة الهمهمات تارة ، والضحك المكتوم تارة أخرى . والحكم أيضا يبدو له غير مفهوم : الحبس شهرا . فيقول مشيحا بذراعيه فى استغراب :

— لماذا ؟ بأي قانون ؟

ويبدو له واضحا ان الدنيا تغيرت ، وأن الحياة فيها أصبحت مستحيلة . وتنتابه أفكار سوداء مقبضة . ولكن

عندما يخرج من القاعة ويرى الفلاحين المتجمهرين يتحدثون عن شيء ما ، يشد يديه الى جنبيه فى وضع انتباه بحكم العادة المتسلطة عليه ، ويصرخ بصوت أبح غاضب :

— تفرقوا جميعا ! ممنوع التجمهر ! انصراف !

١٨٨٥

العازف الأجير

الساعة تدور فى الثانية ليلا . أجلس فى غرفتى بالفندق وأكتب صورة شعرية هجائية طلبت منى . وفجأة يفتح الباب على مصراعيه ، ويدلف الى الغرفة فجأة شريكى فيها بيوتر روبليوف ، الطالب السابق فى كونسرفتوار موسكو . وللوهلة الأولى يذكرنى وهو فى قبعته الطويلة ومعطفه الثقيل المفتوح بشخصية ريبيتيلوف * . ولكن بعد أن أدقق النظر فى وجهه الشاحب وعينيه الحادتين الى درجة غير عادية وكأنهما ملتهبتان ، يختفى وجه الشبه بينه وبين ريبيتيلوف .

واسأله :

— لماذا عدت مبكرا هكذا ؟ الساعة الثانية فقط ! هل انتهى العرس ؟

ولا يرد شريكى علىّ . يمضى فى صمت الى ما وراء الحاجز ، ويخلع ملابسه بسرعة ويستلقى على سريره وهو يزحر .

---

* احدى شخصيات مسرحية «ذو العقل يشقى» الشعرية للكاتب المسرحى والشاعر الروسى جريبويدوف (١٧٩٤ — ١٨٢٩) . **المعرب** .

وبعد حوالى عشر دقائق أسمعه يهمس :

— نم ايها الوغد ! نم ما دمت رقدت ! اذا لم ترد ان تنام . . فلتذهب الى الشيطان !

فأسأله :

— ماذا يا بيتيا ، النوم يجافيك ؟

— الشيطان يعلم ما هذا . . لا استطيع ان أنام . . أكاد انفجر من الضحك . . الضحك يمنعنى من النوم ! ها — ها !

— وما الذى يضحكك ؟

— وقع حادث مضحك . يا لها من حـــــادثة لعينة !

ويخرج روبليوف من خلف الحاجز ويجلس بجوارى وهو يضحك .

ويقول وهو ينشر شعره :

— أمر مضحك . . ومخجل . . لم يحدث لى فى حياتى كلها يا أخى أن تعرضت لمثل هذه الزفّة . . ها — ها . . فضيحة من الطراز الأول . . من أرقى نوع !

ويضرب روبليوف ركبته بقبضته ويقفز واقفا ثم يروح ويجئ حافيا على الأرضية - الباردة .

ويقول :

— طردونى شر طردة ! . . ولهذا جئت مبكرا .

— كفاك كذبا !

— أى والله . . طردونى . . حرفيا !

واتطلع الى روبليوف . . . وجه ممصوص ، مستهلك ، ومع ذلك بقى فى مظهره كله من الاستقامة والنعومة النبيلة

واللياقة ما يجعل هذه العبارة الخشنة «طردونى شر طردة» غير منسجمة أبدا مع شخصيته المثقفة .

— فضيحة من الدرجة الأولى . . ظللت أقهقه طوال الطريق اثناء عودتى . أوه ، دعك من هذه التفاهة التى تكتبها ! سأحكى لك ، سأسكب كل ما فى روحى فربما كففت عن الضحك . . دعك من كتابتك ! اسمع . . قصة طريفة . . . فى شارع أربات يعيش شخص يدعى بريسفيستوف ، مقدم متقاعد ، متزوج من ابنة غير شرعية للكونت فون كراخ . . . يعنى ارستقراطى . . . يزوج ابنته من ابن التاجر يسكيموسوف . . . وهذا الاسكيموسوف بارفينو وموفى — جانر * ، حلوف فى مسوح العلماء وموفى — تون * * ولكن الأب وابنته يريدان مانجي إي بوار * * * ، ولذلك فليس لديهما فرصة للاهتمام بالموفى جانر وغيره . وذهبت اليوم فى الساعة التاسعة الى آل بريسفيستوف للعزف على البيانو . وكان الطريق مغطى بالأوحال ، والمطر يسقط ، والضباب مخيم . . . وكالعادة سيطر على قلبى احساس مقرف .

فقلت له :

— اختصر . . دعك من السيكولوجيات . .

---

* بارفينو (من الفرنسية parvenu) — محدث نعمة . وموفى — جانر (من الفرنسية mauvais genre) — جلف . **المعرب** .

* * موفى — تون (من الفرنسية mauvais tone) — قليل الذوق . **المعرب** .

* * * مانجى اى بوار (من الفرنسية manger et boire) — يأكل ويشرب . **المعرب** .

— حسنا . جئت الى آل بريسفيستوف . كان العروسان والضيوف يلتهمون الفواكه بعد عقد القران . وذهبت الى موقعي — البيانو — وجلست في انتظار بدء الرقص .

ورآني صاحب الدار فقال : «آه ، وصـــلـــت ! حسنا ، اسمع يا حضرة ، اعزف جيدا ، واياك أن تسكر . . .»

— لقد تعودت يا أخي على هذه التحايا ولم تعد تغضبني . . ها — ها . . اذا جعلت نفسك قنطرة فلتتحمل الدوس . . أليس كذلك ؟ فمن أنا ؟ عازف أجير . . خادم . . نادل يجيد العزف ! التجار في حفلاتهم يخاطبونني بـ«أنت» ويعطونني بقشيشا . . وليس في ذلك أية اهانة ! حسنا . . . ولما لم يكن لديّ ما أفعله حتى بداية الرقص فقد رحت أنقر على البيانو ، هكذا ، لتسخين أصابعي . وبعد قليل ، وبينما أنا اعزف سمعت خلفي يا أخي شخصا يدندن اللحن . والتفت فاذا بها آنسة ! وقفت ، الملعونة ، خلفي وهي تتطلع الى مفاتيح البيانو باعجاب . فقلت لها : «لم أكن أعرف يا مدموازيل أن أحدا يصغي اليّ !» فتنهدت وقالت : «معزوفة جميلة !» فقلت : «نعم جميلة . . . وهل تحبين الموسيقى ؟» ورحنا نتجاذب أطراف الحديث . . . واتضح أنها كثيرة الكلام . أنا لم أسحبها من لسانها ، بل هي التي مضت تثرثر : «من المؤسف ان شباب اليوم لا يهتم بالموسيقى الجادة» . وكنت مسرورا الى لفت انتباهها . . . يا لي من أحمق ، مغفل . . . اذن فقد بقي لدى هذا الكبرياء الكريه ! واتخذت وضع العالم بالأمور ورحت أوضح لها أن عدم اكتراث شبابنا مرده الى انتفاء الطموح الى القيم الجمالية في مجتمعنا . . . كنت أتفلسف !

وسألت روبليوف :

— وأين هى الفضيحة ؟ هل وقعت فى حبها ؟

— يا للهراء ! الحب هو فضيحة ذات طابع شخصى ، أما فى حالتى يا أخى فقد كان الحدث عاما ، على نطاق المجتمع الراقى . . نعم ! كنت أتحدث مع الآنسة ولكنى أخذت ألاحظ شيئا غير طبيعى . . . فقد جلس وراء ظهرى أشخاص ما وراحوا يتهامسون . . وسمعت كلمة «عازف أجير» وضحكات . . . اذن فهم يتحدثون عنى . . ترى ماذا حدث ؟ هل انفكت ربطة عنقى ؟ تحسست ربطة العنق . . لا شىء . . . وبالطبع لم ألق اليهم بالا ومضيت أتحدث . . . أما الآنسة فقد انهمكت فى النقاش وانفعلت حتى احمر وجهها كله . . . كانت منطلقة ! وانهالت بالنقد العاصف على الملحنين المعاصرين ! ففى اوبرا «المارد» التوزيع جيد ولكن ليس هناك موتيفات ، وريمسكى كورساكوف مجرد قارع طبول ، وفارلاموف لم يؤلف شيئا متكاملا . . الخ . وفتيات وفتيان اليوم لا يكادون يعرفون من العزف غير السلم الموسيقى ، وبينما يدفعون خمسة وعشرين كوبيكا لقاء الدرس تراهم مستعدين لكتابة المقالات النقدية فى الموسيقى . . . وآنستى من هذا النوع . . . ورحت أصغى ولا أجادل . . . اننى أحب أن أرى مخلوقا شابا ، غضا ، وهو غاضب يشغِّل مخه . . . أما ورائى فقد استمر الهمس . . ثم ماذا ؟ فجأة اقتربت من آنستى طاووسة من فصيلة الأمهات أو الخالات ، ضخمة ، حمراء ، لا تحيط بخصرها خمس أذرع ، ودون ان تتطلع اليّ همست فى أذن الآنسة بشىء ما . . واذا بالآنسة تتضرج وتخفى وجهها براحتيها وتندفع بعيدا عن البيانو كالملسوعة . .

ماذا حدث ؟ فك اللغز يا أوديب الحكيم ! قلت لنفسى إما ان السترة تمزقت على ظهرى وإما أن عيبا ما قد ظهر فى هندام الآنسة ، والا فمن الصعب فهم ما حدث . وتحوطا فقد ذهبت بعد عشر دقائق الى المدخل لأتفحص ملبسى . . تفحصت ربطة العنق والسترة وغيرها . . كل شيء فى مكانه ولم يتمزق ! ولحسن حظى يا أخى كانت عجوز ما واقفة فى المدخل ومعها صرة . وشرحت لى كل شيء . ولولاها لظللت فى جهلى السعيد . قالت العجوز لأحد الخدم : «آنستنا تحب دائما أن تظهر شخصيتها . ورأت بجوار البيانو شابا فراحت تثرثر معه وتضحك وتتنهد وكأنه سيد حقيقى . . . واتضح ان الشاب ليس ضيفا بل عازفا أجيـــــرا . . من الموسيقيين . . . فيا له من حديث ! شكرا لماريا ستيبانوفنا فقد همست فى أذنها والا — لا قدّر الله — لوضعت ذراعها فى ذراعه وتمشت معه . . . انها الآن تشعر بالخجل ، ولكن بعد فوات الأوان . . فما حدث حدث» . . . أرأيت ؟

فقلت له :

— الفتاة حمقاء ، والعجوز حمقاء . . كل ذلك لا يستحق أى اهتمام . . .

— أنا لم أهتم . . . شيء مضحك ، ولا اكثر . لقد تعودت منذ زمن طويل على هذه المفاجآت . قبلا كنت اشعر حقيقة بالألم ، أما الآن فأبصق على ذلك ! فتاة حمقاء . . طائشة . . لا تستحق الشفقة ! وجلست ورحت أعزف للرقص . . . عزف لا يستدعى أية جدية . . رحت اعزف رقصات الفالس والكادريل والمارشات الصاخبة . . . اذا أحست روحك الموسيقية بالمهانة فاذهب واشرب كأسا

وسترقص طربا من أنغام «بوكاتشيو» .

— وأين الفضيحة اذن ؟

— أخذت أنقر على المفاتيح و . . لا أفكر فى الفتاة . . أضحك فقط ، ولكن . . . راح شىء ما ينغز فى قلبى ! وكأن هناك فأرا يقبع فى ضلوعى ويقرض خبزا جافا . . . ولا أدرى لماذا أشعر بالحزن والقرف . أخذت اقنع نفسى وأشتمها ، وأضحك . . وادندن بنغمات الألحان التى اعزفها ، ولكن شيئا كان يقبض على قلبى . . وبقوة . . شىء يتحرك فى صدرى ويخدش ويقرض ثم يصعد الى حلقى كالغصة . . واكز على أسنانى وأقاوم حتى يختفى . . . ثم يعود من جديد . . . ما هذه المصيبة ! وعلاوة على ذلك ، وكأنما عن عمد ترد الى ذهنى شتى الأفكار السخيفة . . فأتذكر كيف أصبحت تافها . . لقد قصدت موسكو قاطعا ألفى كيلومتر . . كنت اهدف الى أن أصبح موسيقارا أو عازف بيانو ، فاذا بى عازف أجير . . . فى الحقيقة هذا شىء طبيعى . . بل انه يثير الضحك ، ومع ذلك أشعر بالغثيان . . . واتذكرك . . وافكر فيك : ها هو شريكى فى الغرفة الآن جالس يسطر . . يصف المسكين الشرطة النائمين وصراصير المخابز والطقس الخريفى السيئ . . . يصف بالذات كل ما وصف من زمن بعيد ، كل ما أشبع لوكا وهضما . . . أفكر فى ذلك ولست أدرى لماذا اشفق عليك . . اشفق عليك لدرجة البكاء ! انك شاب رائع ، طيب القلب ، ولكن ليس فيك تلك الشعلة ، أتدرى ، تلك المرارة ، تلك القوة . . ليس فيك ذلك الحماس . . . فلماذا انت كاتب ولست صيدليا أو اسكافيا ، الله يعلم ! وتذكرت كل زملائى الخائبين ،

كل هؤلاء المغنين والمصورين والهواة . . . كلهم كانوا فى وقت ما يغلون ويمورون ويحلقون فى السماء ، أما الآن . . . فالشيطان يعلم ما هذا ! لماذا اقتحمت رأسى هذه الأفكار بالذات ، لست أفهم ! عندما أطرد نفسى من رأسى يقتحمها زملائى ، وأطرد زملائى فتقتحمها الفتاة . . . وأضحك من الفتاة ولا أعيرها أهمية ، ولكنها لا تدعنى أنعم بالراحة . . . وأقول لنفسى : ما هذه الخصلة لدى الانسان الروسى . . . فطالما أنت حر ، تدرس أو تتسكع بلا عمل ، فبوسعك أن تشرب معه وتربت على كرشه ، وتتودد الى ابنته ، ولكن ما أن تصبح علاقتك به على نحو ولو قليل من التبعية ، حتى تصير صرصارا ينبغى أن يعرف قدره . . . أتدرى ، أخذت أجاهد لأكبت هذه الأفكار ، ولكن الغصة مضت تصعد الى حلقى . . تصعد وتضغط عليه . . وتعصره . . . وأخيرا أحسست بسائل فى عينى ، وانقطعت ألحان «بوكاتشيو» و . . . وذهب كل شىء الى الشيطان . . . وأصمت أسماع الحاضرين الاكابر أصوات أخرى . . . أصبت بهيستيريا . . .

— كفاك كذبا !

— أى والله ! . . — يقول روبليوف وهو يتضرج ويحاول أن يضحك . — ما رأيك فى هذه الفضيحة ؟ ثم شعرت بهم يسحبوننى الى المدخل . . . ويلبسوننى المعطف . . . وسمعت صوت رب البيت يقول : — «من الذى أسكر العازف الأجير ؟ من الذى اعطاه الفودكا ؟» . وفى آخر المطاف . . طردت . . ما رأيك فى هذه المفاجأة ؟ ها — ها . . . لم اكن فى حال تسمح بالضحك ساعتها ، أما الآن فأكاد أموت من الضحك ! . . رجل ضخم مثلى . .

طويل عريض . . وفجأة يصاب بهيستيريا ! ها — ها — ها !

واسأله وأنا أتطلع الى كتفيه ورأسه وهى تهتز من الضحك :

— وما المضحك فى ذلك ؟ بيتيا أرجوك . . . ما المضحك ؟ بيتيا ! يا عزيزى !

ولكن بيتيا يقهقه ، وبسهولة أرى فى قهقهته دلائل الهيستيريا ، فأبدأ فى العناية به وأنا أسب فنادق موسكو التى لا يعرفون فيها عادة ملء دوارق المياه للشرب ليلا .

١٨٨٥

زَوَّدها

وصل قيّاس الأراضى جليب جافريلوفتش سميرنوف الى محطة «جنيلوشكى» . وكان أمامه لكى يبلغ الضيعة التى استدعى اليها لوضع حدود المزارع حوالى ثلاثين أو أربعين فرسخا . (فاذا لم يكن الحوذى ثملا والحصان عجوزا فلن تزيد المسافة عن ثلاثين فرسخا ، اما اذا كان الحوذى ثملا والحصان منهكا فستصل المسافة الى خمسين) .

اتجه القياس بالسؤال الى شرطى المحطة :

— قل لى من فضلك ، أين أستطيع أن أجد هنا خيول بريد ؟

— خيول ماذا ؟ بريد ؟ لن تجد هنا على مدى مائة فرسخ كلبا محترما وليس خيول بريد . . . الى أين تريد أن تذهب ؟

— الى ديفكينو ، ضيعة الجنرال خوخوتوف .

فقال الشرطى متثائبا :

— طيب . اذهب خلف المحطة ، فهناك يوجد أحيانا فلاحون يحملون الركاب .

تنهد القياس ومضى خلف المحطة . وهناك ، وبعد بحث طويل ومباحثات وتردد ، وجد فلاحا ضخما ، عابسا ،

مجدور الوجه ، يرتدى قفطانا خشنا ممزقا وحذاء لابتى .

وامتعض القياس وهو يصعد الى العربة وقال :

— الشيطان يعلم أية عربة هذه ! لا تعرف أين مؤخرتها وأين مقدمتها . . .

— وهل هو صعب ان تعرف ؟ المقدمة حيث ذيل الحصان ، والمؤخرة حيث يجلس جنابكم . . .

كانت الفرس شابة ولكنها عجفاء ، بقوائم نافرة وأذنين معضوضتين . وعندما همّ الحوذى وضربها بسوط من الحبال هزت رأسها فقط ، وعندما سبها وضربها مرة أخرى صرت العربة وارتعشت كأنها محمومة . وبعد الضربة الثالثة تمايلت العربة ، أما بعد الرابعة فقد تزحزحت من مكانها .

— وهل سنسير هكذا طوال الطريق ؟ — سأل القياس وهو يشعر بهز شديد ويدهش من قدرة الحوذية الروس على الجمع بين السير البطىء كسير السلاحف ، وبين الهز الذى يكاد يطرد الروح من البدن .

فقال الحوذى مطمئنا :

— سنصل ! الفرس شابة ، سريعة . . انتظر فقط حتى تنطلق ، وبعد ذلك لن تستطيع ايقافها . . . هيا ، يا ملعونة ! . .

عندما غادرت العربة المحطة كان المغيب قد حل . وعلى يمين القياس امتد سهل مظلم متجمد لا نهاية له ولا حدود . . . اذا سرت فيه فربما وصلت الى العالم الآخر . وعند الأفق ، حيث اختفى السهل متحدا مع السماء تلاشت على مهل آخر اضواء الغسق الخريفى البارد . . . والى يسار الطريق ارتفعت فى الهواء المظلم اكوام لا يعرف ما اذا

كانت أكوام دريس العام الماضى أم قرية . ولم يستطع القياس أن يرى ما كان فى الأمام ، فقد سد مجالِ الرؤية كله من هذه الناحية ظهر الحوذى العريض الأخرق . وكان الجو هادئا ولكنه بارد ، قارس .

وفكر القياس وهو يحاول أن يغطى أذنيه بياقة المعطف : «يا له من مكان قفر ! لا أثر لحيّ . من يدرى ، فلو هجم عليك الاشقياء ونهبوك فلن يعرف أحد ولو أطلقت المدافع . . . نعم والحوذى أيضا لا يوحى بالثقة . . . انظر الى ظهره المهول ! ابن الطبيعة هذا لو لمسك باصبعه لأزهق روحك ! وسحنته أيضا وحشية ، مريبة» .

وسأل القياس :

— اسمع يا أخى ، ما اسمك ؟

— أنا كليم .

— وكيف الحال عندكم هنا يا كليم ؟ أليس خطرا ؟ هل هناك من يتشاقى ؟

— لا ، الحمد لله . . ومن هنا ليتشاقى ؟

— حسن أنهم لا يتشاقون . . . ولكنى على كل حال أخذت معى ثلاثة مسدسات ، — قال القياس كاذبا . — والمسدس كما تعلم شىء لا يحب المزاح . استطيع أن أقضى على عشرة أشقياء . . .

هبط الظلام . وفجأة صرت العربة وأنّت وارتعشت وانعطفت الى اليسار ببطء كأنما عن غير رغبة .

وقال القياس لنفسه : «الى أين يذهب بى ؟ كان يسير طوال الوقت مباشرة وها هو ينعطف الى اليسار فجأة . ماذا لو أن هذا الوغد أخذنى الى دغل ما و . . و . . مثل

هذه الحوادث تقع !» .

فقال مخاطبا الحوذى :

— اسمع . . تقول ان الحال هنا ليس خطرا ! خسارة . . . اننى أهوى منازلة الأشقياء . . . اننى أبدو من منظرى نحيلا ، ضعيفا ، ولكن عندى قوة كقوة الثور . . . فى مرة هجم عليَّ ثلاثة أشقياء . . فماذا تظن ؟ ضربت واحدا منهم حتى أنه . . . حتى أنه ، أتعرف ، طلعت روحه ، أما الآخران فقد حكما بالأشغال الشاقة فى سيبيريا بسببى . . . من أين تأتينى هذه القوة ، لا أعرف . . . بيد واحدة أمسك بأى رجل ضخم ، من أمثالك ، و . . وأقضى عليه .

ونظر كليم خلفه الى القياس ، وطرف بوجهه كله ، وهوى بالسوط على الفرس .

واستطرد القياس :

— نعم يا أخى ، كفى الله المرء شر الاشتباك معى . فعلاوة على أن الشقى يبقى بلا قدمين أو ساقين فانه يقدم الى المحاكمة . . . كل القضاة ومأمورى الشرطة معارفى . اننى رجل موظف ، مطلوب . ها أنذا مسافر ولكن رؤسائى يعرفون أين أنا . . . وأعينهم تراقب ، حتى لا يلحق بى أى ضرر . . وعلى طول الطريق حشروا رجال الدرك والخفراء وراء الخمائل . . . — وفجأة صرخ القياس : — قف ! الى أين تذهب ؟ الى أين تأخذنى ؟

— ألا ترى الى أين ؟ الى الغابة !

وقال القياس لنفسه : «فعلا . . انها غابة ، ولكنى خفت ! لا ينبغى أن اكشف اضطرابى . . لقد لاحظ

أننى خائف . لماذا أصبح ينظر اليَّ كثيرا ؟ لا بد أنه يدبر أمرا . . . كان قبلا يسير بالعربة ببطء ، قدما وراء قدم ، أما الآن فانظر كيف يطير !»

— اسمع يا كليم ، لماذا تحث الفرس ؟

— أنا لا أحثها . هى التى أسرعت . اذا انطلقت فلا وسيلة لايقافها . . . هى نفسها تشقيها هذه السيقان .

— كذاب يا أخى ! أرى أنك تكذب ! لكنى أنصحك بعدم الاسراع . اكبح الفرس . . . أتسمع ؟ اكبحها !

— لماذا ؟

— لأنه . . لأنه من المفروض أن يلحق بـى من المحطة رفاق أربعة . ينبغى أن يلحقوا بنا . لقد وعدونى أن يلحقوا بـى عند هذه الغابة . . . ستكون الرحلة معهم اكثر مرحا . . فهم رجال اصحاء ، اشداء . . . كل منهم يحمل مسدسا . . . لماذا تتطلع اليَّ كثيرا وتتململ كأنك جالس على جمر ؟ هه ؟ أنا يا أخى يعنى . . . اسمع . . لا داعى للتطلع نحوى . . . ليس فيَّ أى طرافة . . . اللهم الا المسدسات . . . تفضل ، اذا شئت استخرجتها وأريتك أياها . . تفضل . . .

وتظاهر القياس أنه يبحث فى جيوبه ، وفى تلك اللحظة حدث ما لم يتوقع حدوثه رغم كل جبنه . فقد ألقى كليم بنفسه من العربة وزحف على أربع نحو غيضة أشجار . ثم صرخ :

— النجدة ! النجدة ! خذ الفرس والعربة أيها الشقى ، لكن لا تقتلنى ! النجدة !

وتردد وقع خطوات سريعة مبتعدة ، وطقطقة غصون

جافة ، ثم ساد السكون . . . وكان أول شيء فعله القياس ، الذى لم يتوقع هذا التطور المفاجئ ، أن أوقف الفرس ، ثم اعتدل فى جلسته متخذا وضعا أكثر راحة ، وأخذ يفكر .

«هرب . . خاف الأحمق . . فما العمل الآن ؟ لا يمكن أن أواصل السير بمفردى ، فأنا لا أعرف الطريق ، ثم قد يظن أحد أننى سرقت فرسه . . فما العمل ؟» — يا كليم ! يا كليم !

— كليم ! — ردد الصدى .

اقشعر القياس ، كأنما مروا على ظهره بمبرد بارد من فكرة أنه سيضطر الى قضاء الليل كله فى الغابة المظلمة ، فى البرد ، فلا يسمع سوى عواء الذئاب ، والصدى ، وشخير الفرس العجفاء .

فصاح :

— كليموشكا ! * يا عزيزى ! أين أنت يا كليموشكا !

وظل القياس يصيح حوالى ساعتين ، وفقط بعد أن بح صوته واستسلم لفكرة المبيت فى الغابة ، حملت اليه الريح أنينا ضعيفا .

— كليم ، أهو انت يا عزيزى ؟ هيا بنا !

— ستقتلنى !

— كنت أمزح يا عزيزى ! أى والله كنت أمزح ! أية مسدسات معى ! لقد كذبت عليك من خوفى ! أرجوك هيا بنا ! اننى بردان !

---

* كليموشكا — تدليل لاسم كليم . **المعرب** .

واذ فطن كليم على ما يبدو الى ان الموظف ، لو كان شقيا حقيقيا لاختفى بالفرس والعربة منذ زمن بعيد ، فقد خرج من الغابة ، واقترب مترددا من الراكب .

— لماذا خفت أيها الأحمق ؟ . . أنا . . أنا كنت امزح . . واذا بك تخاف . . اجلس !

فدمدم كليم وهو يصعد الى العربة :

— ربنا يسامحك يا سيد . لو كنت أدرى ما أخذتك ولو مقابل مائة روبل . كدت أموت من الخوف . . .

وضرب كليم الفرس بالسوط . وارتعشت العربة . وضرب كليم مرة أخرى فتمايلت العربة . وبعد السوط الرابع ، عندما تزحزحت العربة من مكانها ، غطى القياس أذنيه بالياقة واستغرق فى التفكير . ولم تعد الطريق أو كليم يبدوان له خطرين .

١٨٨٥

المصيبة

يحمل الخراط جريجورى بتروف ، المعروف منذ زمن بعيد كأسطى رائع ، وفي الوقت نفسه كواحد من اكثر الرجال ضلالا في مقاطعة جالتشينسك كلها ، يحمل زوجته العجوز المريضة الى المستشفى المحلى . كان عليه أن يقطع حوالى ثلاثين فرسخا ، بينما الطريق فظيع لا يقوى عليه حتى حوذى البريد الحكومى ، لا هذا الكسول ، الخراط جريجورى . ففى الوجه مباشرة تضرب ريح حادة باردة . وفي الهواء ، حيثما نظرت تدور سحب كاملة من ندف الثلج ، حتى ان الناظر لا يعرف هل يسقط الثلج من السماء أم يصعد من الأرض . ومن خلف الضباب الثلجى لا يبين الحقل ولا أعمدة البرق ولا الغابة ، وعندما تهب على جريجورى دفقة ريح قوية بشكل خاص لا يعود يرى حتى قوس الحصان . والفرس العجوز المتهالكة تجر قوائمها بالكاد . فقد تبددت كل طاقتها فى سحب القوائم من الثلج العميق وفي هز الرأس . كان الخراط متعجلا . وراح يقفز فوق مقعده بقلق وينهال بالسوط كثيرا على ظهر الفرس ، وهو يدمدم :

— لا تبكي يا متريونا . . . اصبري قليلا . ان شاء الله نصل الى المستشفى ، وعلى الفور يذهب منك هذا

12-1369

الـ . . . سيعطيك بافل ايفانيتش قطرات ، أو يأمر بحجمك ، أو ربما يتفضل فيدلكونك بالكحول ، وعندئذ يذهب عن جنبك هذا الـ . . . سيبذل بافل ايفانيتش جهده . . . سيصيح بنا ، ويضرب الارض بقدميه ، لكنه سيبذل جهده . . . انه سيد عظيم ، عطوف ، ربنا يعطيه الصحة . . . عندما نصل سيخرج على الفور من مسكنه ويبدأ قبل كل شىء فى السباب والصياح : «كيف ؟ ما هذا ؟ لماذا ؟ لماذا لم تأت فى الوقت المناسب ؟ وهل أنا كلب حتى اضيع اليوم كله فى مشاكلكم أيها الشياطين ؟ لماذا لم تأت فى الصباح ؟ امش من هنا ! أياك أن تراك عينـــاى . تعال غـدا» . فأقول له : «يا حضرة الدكتور ! يا بافل ايفانيتش ! يا صاحب السعادة !» . هيا سِيري ، سِيري عليك اللعنة ! هيا !

وينهال الخراط على الفرس ، ودون أن ينظر الى زوجته العجوز يستطرد وهو يدمدم لنفسه :

— «يا صاحب السعادة ! الله شاهد على ما أقول . . . بحق الصليب . لقد خرجت مع الفجر . . ولكن كيف تصل فى الموعد اذا كان الرب . . قد غضب وأرسل هذه العاصفة ؟ ها أنتم ترون بأنفسكم . . . حتى الفرس الأصيلة لا تقوى على السير ، أما أنا فكما ترون ليس ما عندي فرس بل مصيبة !» . فيعبس بافل ايفانيتش ويصيح : «أنا أعرفكم ! دائما تجدون لكم مخرجا ! خاصة أنت يا جريشكا ! أعرفك من زمان ! تراك عرجت على الحانة خمس مرات !» فأقول له : «يا صاحب السعادة ! هل تظنوننى عربيدا أم كافرا ! العجوز تلفظ أنفاسها ، تموت ، وأنا أعرج على الحانات !

ماذا تقولون ! فليحل بها الخراب هذه الحانات !» . عندئذ يأمر بافل ايفانيتش بنقلك الى المستشفى . أما أنا فأرتمى على قدميه . . . «يا بافل ايفانيتش ! يا صاحب السعادة ! نشكركم من صميم القلب ! سامحنا نحن الحمقى ، الملاعين ، لا تؤاخذنا نحن الفلاحين ! نستحق منكم الطرد ، وبدلا من ذلك تهتمون بنا وتلوثون أقدامكم فى الثلج» . وينظر بافل ايفانيتش اليَّ وكأنه يريد أن يضربني ، ويقول : «بدلا من الارتماء على قدميّ كان من الأفضل ، أيها الأحمق ، الا تشرب الفودكا ، وتعطف على عجوزك . انك تستحق الجلد !» — «عين الحقيقة يا بافل ايفانيتش ، استحق الجلد ، اى والله استحقه ! وكيف لا نرتمى على قدميكم اذا كنتم راعينا وأبانا ؟ يا صاحب السعادة ! أقول لكم الحق . . والله شاهد . . أبصقوا فى عيني لو كنت اكذب عليكم : بمجرد أن تشفى زوجتي متريونا ، وتقف يعنى على قدميها سأفعل كل ما أمرتم ، جنابكم ، به ! لو أردتم صنعت لكم علبة سجاير من خشب البتولا الكاريلية . . أو كرات للكروكيت ، وأستطيع أن أخرط كيلا مثل الأجنبية بالضبط . . . سأصنع من أجلكم أي شيء ! ولن آخذ منكم كوبيكا ! فى موسكو يأخذون اربعة روبلات مقابل مثل هذه العلبة ، أما أنا فلن آخذ كوبيكا» . فيضحك الدكتور ويقول : «طيب ، طيب . . مفهوم ! انما من المؤسف انك سكير» . . . انني أعرف يا أختي العجوز كيف أتعامل مع السادة . لا يوجد سيد لا استطيع التفاهم معه . المهم ان يلطف ربنا ولا نضل الطريق . أوه يا للعاصفة ! تعمي العيون !

ويمضي الخراط فى دمدمته بلا توقف . يتحرك لسانه آليا لكي يكبت ولو الى حد ما احساسه المرهق . والكلمات على طرف اللسان كثيرة ، ولكن الأفكار والتساؤلات فى الرأس أكثر . لقد دهمته المصيبة على غرة ، بلا توقع أو انتظار ، وها هو الآن لا يستطيع أن يفيق ويثوب الى رشده ويفهم . كان يعيش حتى الآن بلا هموم ، عيشة ساكنة ، فى غيبوبة ثملة ، لا يدرى ما الحزن وما الفرحة ، وفجأة أصبح يحس الآن فى صدره بألم رهيب . لقد وجد هذا الكسول اللامكترث والسكير نفسه فجأة وبلا مقدمات فى وضع رجل مشغول ، مهموم ، متعجل ، بل ورجل يصارع الطبيعة .

ويذكر الخراط أن مصيبته بدأت بالأمس مساء . فعندما عاد مساء الأمس الى البيت ، ثملا كالعادة ، وراح بحكم العادة القديمة يسب ويلوح بقبضتيه ، نظرت العجوز الى زوجها الهائج كما لم تنظر اليه ابدا من قبل . كانت نظرة عينيها الهرمتين فى العادة معذبة ، مستكينة ، كنظرة الكلب الذى يضربونه كثيرا ويطعمونه قليلا ، أما الآن فكانت نظرتها صارمة وثابتة كنظرة القديسين فى الأيقونات أو الأموات . ومن هاتين العينين الغريبتين اللتين لا تبشران بخير بدأت المصيبة . وأسرع الخراط المصعوق الى جاره يسأله حصانه ، وها هو الآن يحملها الى المستشفى ، على أمل أن يعيد بافل ايفانيتش بمساحيقه ومراهمه الى العجوز نظرتها السابقة . ويدمدم الخراط :

— اسمعي يا متريونا . . . اذا سألك بافل ايفانيتش هل ضربتك أم لا ، قولى : أبدا ! ولن أضربك بعد . .

أقسم لك بالصليب . وهل كنت اضربك عمداً ؟ ابدا ، هكذا ، بلا داع . انا اعطف عليك يا متريونا . ولو كان غيرى فى مكانى لما اهتم ، أما أنا فها انذا أحملك . . . وابذل جهدى . أوه ، يا لها من عاصفة ! حكمتك يا رب ! اللهم الطف بنا حتى لا نضل الطريق . . . ماذا هل جنبك يؤلمك ؟ لماذا لا تردين يا متريونا ؟ . . اننى اسألك : هل جنبك يؤلمك ؟

ويبدو له غريبا أن الثلج لا يذوب على وجه العجوز ، والغريب أيضا ان وجهها ذاته قد استطال بصورة خاصة واكتسب لونا رماديا شاحبا عكرا كالشمع ، وأصبح صارما ، جادا .

ويدمدم الخراط :

— يا لك من حمقاء ! أنا احدثك من صميم قلبى ، يشهد الله ، وانت . . هذا . . يا لك من حمقاء ! اسمعى والا فلن احملك الى بافل ايفانيتش !

ويرخى الخراط اللجام ويستغرق فى التفكير . ولا يجرؤ على النظر الى العجوز . . هذا مخيف ! ومن المخيف أيضا ان يوجه اليها سؤالا فلا يتلقى الجواب . واخيرا ، ولكى يقطع الشك باليقين ، يتلمس ذراع العجوز الباردة دون ان يلتفت اليها . وتسقط الذراع المرفوعة كجلدة السوط .

— اذن فقد ماتت ! يا للمصيبة !

ويبكى الخراط . لا من الأسى بقدر ما هو من الحنق . ويفكر : ما أسرع ما يجرى كل شىء فى هذه الدنيا ! ما أن بدأت مصيبته حتى حلت النهاية . لم يكد يعيش مع عجوزه ، ويصارحها بما فى قلبه ، ويعطف عليها حتى

ماتت . . . لقد عاش معها أربعين عاما ، ولكن هذه الاعوام الأربعين مرت وكأنها ملفعة بالضباب . ومن خلف سحب السكر والعراك والفاقة لم يكن ثمة احساس بالحياة . وكأنما نكاية به ماتت العجوز فى تلك اللحظة التى أحس فيها أنه يعطف عليها ، ولا يقوى على العيش بدونها ، ومخطئ فى حقها بصورة رهيبة .

ويتذكر الخراط :

— لقد كانت تتسول ! أنا الذى أرسلتها تسأل الناس خبزا ، يا للمصيبة . هذه الحمقاء كان ينبغى ان تعيش عشر سنوات أخرى ، والا فربما تظن أننى هكذا بالفعل . يا إلهى ، الى أى شيطان أمضى الآن ؟ ينبغى الآن دفنها لا علاجها . هيا ، دوري !

ويدير الخراط الزحافة عائدا بها ، وينهال بكل قوته على الفرس بالسوط . ومع كل لحظة يزداد الطريق سوءا . الآن لم يعد قوس الحصان مرئيا على الاطلاق . واحيانا تدوس الزحافة على شجرة شوح صغيرة ، فيخدش هذا الشىء المظلم أيدى الخراط ، ويمرق أمام عينيه ، ثم يصبح مجال الرؤية من جديد أبيض مدوّما .

ويفكر الخراط : «آه لو تبدأ الحياة من جديد» . . .

ويتذكر أن متريونا كانت منذ أربعين عاما شابة جميلة مرحة ، من بيت غنى . وقد زوجوها منه اذ أغرتهم مهارته كأسطى . وكانت كل المقومات متوفرة لحياة طيبة ، ولكن المصيبة أنه منذ أن شرب حتى ثمل بعد حفلة العرس ، وتمدد فوق الفرن ، فكأنما لم يستيقظ حتى الآن . انه يذكر حفلة العرس ، أما ما حدث بعد العرس فلا يذكر

منه شيئا على الاطلاق ، اللهم الا أنه كان يشرب ويرقد ويتعارك . وهكذا ضاعت الأعوام الأربعون .

وتبدأ السحب الثلجية البيضاء فى التحول شيئا فشيئا الى اللون الرمادى . ويحل الغسق .

وفجأة يستدرك الخراط :

— الى أين أنا ذاهب ؟ ينبغى دفنها بينما أذهب بها الى المستشفى . . . كأنما جننت !

ويدير الخراط الزحافة مرة أخرى ، وينهال من جديد على الفرس . وتستجمع الفرس كل قواها ، وتركض بخبب قصير وهى تشخر . ويضربها الخراط بالسوط على ظهرها المرة تلو المرة . . . ومن خلفه تتردد دقات ما ، ورغم انه لا يلتفت الا انه يعرف ان ذلك صوت ارتطام رأس المرحومة بالزحافة . بينما الجو يزداد ظلاما ، وتصبح الريح اكثر حدة وبرودة . . . .

ويفكر الخراط : «لو تبدأ الحياة من جديد . . . لحصلت على عدة جديدة ، ولتلقيت الطلبات . . ولأعطيت النقود للعجوز . . . نعم !»

وها هو يفلت اللجام من يديه . ويبحث عنه ، ويريد أن يرفعه ، ولكنه لا يستطيع . يداه لا تستجيبان له . . .

ويفكر : «سيان . . . ستمضى الفرس بنفسها ، فهى تعرف الطريق . . فلأنم قليلا . . فالى ان تحين الجنازة والقداس ، فلأنم قليلا» .

ويغمض الخراط عينيه وينعس . وبعد قليل يسمع ان الفرس توقفت . ويفتح عينيه فيرى أمامه شيئا مظلما يشبه المنزل أو كوم الدريس . . .

ومن المفروض أن ينزل من الزحافة ليعرف ما الأمر ، ولكن خدرا شديدا يستولى على جسده كله ، حتى أنه يفضل أن يتجمد على أن يتحرك من مكانه . . . ويغيب فى سبات قرير .

ويستيقظ فى غرفة كبيرة ، بجدران مطلية . من النوافذ ينساب ضوء الشمس الساطع . ويرى الخراط أمامه أناسا ، وأول ما يفكر فيه أن يبدو أمامهم رجلا رزينا ، حصيفا ، فيقول :

— ينبغى اقامة قداس العجوز يا اخوان ! فلتخبروا أبانا . . .

ولكن صوتا ما يقاطعه :

— طيب ، طيب ! ارقد .

فيدهش الخراط حين يرى الدكتور أمامه :

— يا مولانا ! بافل ايفانيتش ! يا صاحب السعادة ! يا راعينا !

ويود ان يقفز ويرتمى على قدمي الطبيب ، ولكنه يشعر أن ساقيه ويديه لا تستجيب له .

— يا صاحب السعادة ! أين ساقاى ؟ أين يداى ؟

— ودع يديك وساقيك . . تجمدت ! مهلا ، مهلا . . . لِمَ تبكى ؟ عشت حياتك فاحمد الله ، تراك عشت ستين سنة . . يكفيك هذا !

— مصيبة ! . . مصيبة يا صاحب السعادة ! أرجو المعذرة والسماح ! لو خمس أو ست سنوات أخرى . . .

— لماذا ؟

— الفرس ليست لى ، يجب أن أردها . . . وادفن

العجوز . . . ما أسرع ما يجرى كل شيء في هذه الدنيا ! يا صاحب السعادة ! بافل ايفانيتش ! علبة سجاير ممتازة من خشب البتولا الكاريلية ! كرة كروكيت أخرطها . . .

ويشيح الدكتور بيده ويخرج من الغرفة . وعلى الخراط السلام !

١٨٨٥

الاطفال

بابا وماما والعمة نادية غائبون عن البيت . لقد رحلوا لحفل التعميد عند ذلك الضابط العجوز الذى يركب فرسا رمادية صغيرة . وفى انتظار عودتهم جلس جريشا وآنيا واليوشا وسونيا وابن الطاهية اندريه فى غرفة الطعام حول طاولة الطعام يلعبون اللوتو . وفى الحقيقة كان من المفروض أن يناموا منذ وقت طويل ، ولكن هل يمكن ان يناموا دون ان يسمعوا من ماما كيف كان الطفل الذى عمدوه ، وما الذى قدم فى العشاء ؟ والطاولة التى يضيؤها مصباح معلق ، حافلة بالارقام وقشر الجوز وبقطع الورق والمربعات الزجاجية . وامام كل لاعب بطاقتان وكمية من المربعات لسد خانات الارقام . وفى وسط الطاولة طبق ابيض به خمس قطع معدنية من فئة الكوبيك . وبجوار الطبق بقايا تفاحة ومقص وطبق كبير صدرت الاوامر بوضع قشر الجوز فيه . والاطفال يلعبون على النقود . الرهان : كوبيك واحد . والشرط : اذا غش احد فى اللعب يطرد فورا . وليس هناك فى غرفة الطعام احد غير اللاعبين . فالمربية اجافيا ايفانوفنا تجلس فى الطابق الاسفل ، فى المطبخ ، وتعلم الطاهية التفصيل . اما الاخ الاكبر فاسيا ، التلميذ بالصف الخامس فيستلقى على الكنبة

فى غرفة الجلوس ويضجر .

يلعبون بحماسة . وترتسم الحماسة أكثر ما ترتسم على وجه جريشا . وهو صبـى صغير ، فى التاسعة من عمره ، برأس محلوق الشعر تماما ، وخدين منتفخين وشفتين غليظتين كشفاه الزنوج . وقد التحق بالدراسة فى الصف الاعدادى ، ولهذا يعتبرونه كبيرا واذكى الجميع . وهو يلعب من اجل النقود فقط . ولولا الكوبيكات الموضوعة فى الطبق لكان قد نام منذ زمن بعيد . عيونه العسلية تركض بقلق وغيرة فوق بطاقات شركاته فى اللعب . والخوف من احتمال الخسارة ، والغيرة ، والاعتبارات المالية التى تملأ رأسه الحليق ، لا تدع له مجالا للجلوس فى هدوء وللتركيز . فهو يتململ فى مجلسه كأنه على جمر . وعندما يكسب يقبض على النقود بجشع ويدسها فى جيبه على الفور . وشقيقته آنيا ، ذات الثمانية اعوام ، والذقن الحاد والعينين الذكيتين اللامعتين ، تخشى هى الاخرى من ان يكسب احد غيرها . انها تراقب اللاعبين بيقظة وتارة تتضرج بالحمرة وتارة تشحب . ولكن ليس ما يهمها هو النقود . بل ان التوفيق فى اللعب هو بالنسبة لها مسألة كرامة . اما الشقيقة الاخرى سونيا ، ذات الاعوام الستة والرأس الصغير المجعد الخصلات ، والبشرة ذات اللون الذى لا تراه الا على وجوه الاطفال الاصحاء للغاية او الدمى الغالية او علب الحلويات ، فتلعب من اجل عملية اللعب ذاتها . ويطفح وجهها بالتأثر والرضى . وايا كان الرابح فهى تقهقه وتصفق بنفس الدرجة . اما اليوشا ، الصبـى الصغير المكتنز المستدير الجسم ، فيشخر ويلهث ويحملق بعينين جاحظتين فى البطاقات . وليس لديه

اى غرض او كرامة . يكفيه انهم لا يطردونه من مائدة اللعب ولا يجبرونه على النوم . ويبدو من مظهره الخارجى انه فاتر عديم المبالاة ، لكنه فى قرارة نفسه شيطان ماكر . وقد اشترك فى اللعب لا حبا فيه بقدر ما هو من اجل المشاحنات الحتمية التى تحدث فى مجرى اللعب . وهو يشعر بفرحة طاغية عندما يضرب احدهم شخصا ما او يسبه . ومنذ فترة طويلة وهو يريد ان يقضى حاجته ، ولكنه لا يترك الطاولة لحظة واحدة خشية ان يسرقوا مربعاته وكوبيكاته فى غيابه . ولما كان لا يعرف سوى ارقام الآحاد والاعداد التى تنتهى بالصفر ، فان شقيقته آنيا تقوم بدلا منه بسد الخانات بالمربعات . اما اللاعب الخامس ، ابن الطاهية اندريه ، الصبى الاسود الشعر المريض الهيئة ، الذى يرتدى قميصا من الشيت ويعلق على صدره صليبا نحاسيا ، فيقف جامدا ويحدق فى الارقام حالما . وهو ينظر الى المكسب والى فوز الآخرين بلا اكتراث ، اذ انه غارق كلية فى حسابات اللعبة وفى فلسفتها البسيطة : فما اكثر الارقام المختلفة فى هذه الدنيا ، وكيف لا تختلط !

ويتناوب اللاعبون اعلان الارقام ما عدا سونيا واليوشا . ونظرا لرتابة الارقام فقد اوجدت الممارسة مصطلحات ومسميات مضحكة كثيرة لها . فمثلا رقم سبعة يسميه اللاعبون «البشكور» ، ورقم احد عشر «العصاتان» ورقم سبعة وسبعون «سميون سميونيتش» ورقم تسعون — «جدو» . . . الخ . . ويسير اللعب بنشاط .

— اثنان وثلاثون ! — يصيح جريشا وهو يخرج من قبعة الاب الاسطوانات الخشبية الصفراء ذات الارقام — سبعة عشر ! بشكور ! ثمانية وعشرون — ماذا تفعلون !

وترى آنيا ان أندريه قد فاته ان يسد خانة الرقم ثمانية وعشرين ، ولو كان الوضع مختلفا لنبهته حتما الى ذلك . اما الآن ، عندما وضعت كرامتها الى جانب الكوبيك فى الطبق ، فقد تهللت .

ويستطرد جريشا :

— ثلاثة وعشرون ! سيميون سيميونيتش ! تسعة !

— صرصار ، صرصار ! — تصيح سونيا وهى تشير الى صرصار يجرى فوق المائدة — آى !

ويقول اليوشعا بصوت غليظ :

— لا تقتليه ، ربما عنده اولاد . . .

وتتابع سونيا الصرصار بعينيها وتفكر فى اولاده : لابد انهم صراصير صغيرة جدا !

ويواصل جريشا وهو يتعذب من فكرة ان آنيا قد بقيت لديها فقط خانتان شاغرتان :

— ثلاثة واربعون ! واحد ! ستة !

وتصيح سونيا وهى تقلب عينيها بدلال وتقهقه :

— كسبت ! انا كسبت !

وتستطيل وجوه اللاعبين .

ويقول جريشا وهو ينظر الى سونيا بحقد :

— فلنراجعها !

اخذ جريشا لنفسه حق القرار بحكم انه اكبر الجميع واذكاهم . وكل ما يريده ينفذونه . وراحوا يراجعون ارقام سونيا بدقة ولمدة طويلة . ولأسفهم الشديد اتضح انها لم تغش . ويبدأ دور جديد .

وتقول آنيا وكأنما تخاطب نفسها :

— ماذا رأيت بالامس ! فيليب فيليبوفتش قلب جفنيه فاصبحت عيناه حمراوين ، مرعبتين ، مثل عيون العفاريت .

فيقول جريشا :

— انا ايضا رأيته . . . ثمانية ! وعندنا تلميذ يستطيع تحريك اذنيه . سبعة وعشرون !

ويرفع اندريه عينيه الى جريشا متفكرا ثم يقول :

— وانا ايضا استطيع تحريك اذنيّ . . .

— اذن هيا حركها !

ويحرك اندريه عينيه وشفتيه وأصابعه ، ويخيل اليه ان اذنيه تتحركان . ويدوي ضحك جماعي .

وتقول سونيا متنهدة :

— رجل سيئ فيليب فيليبوفتش هذا . دخل بالامس غرفتنا ، وكنت بقميص النوم فقط . . . وأحسست بعيب شديد !

وفجأة يصيح جريشا وهو يخطف النقود من الطبق :

— كسبت ! انا كسبت ! راجعوا اذا اردتم !

ويرفع ابن الطاهية عينيه وقد علاه الشحوب ، ثم يهمس :

— يعني انا لن العب بعد .

— لماذا ؟

— لانه . . . لانه لم يعد معي نقود .

فيقول جريشا :

— لايمكن اللعب بدون نقود !

ولمزيد من التأكد يفتش اندريه في جيوبه مرة اخرى . وعندما لا يجد شيئا سوى فتات الخبز وقطعة قلم رصاص معضوضة ، تتقلص شفتاه وتطرف عيناه بعذاب . انه يوشك

على البكاء . . . .

فتقول سونيا وهى لا تقوى على احتمال نظرته المعذبة :

— سأضع بدلك ! لكن لا بد ان تردها فيما بعد .

ويوضع الرهان ويستمر اللعب .

وتقول آنيا وهى تحملق بعينين واسعتين :

— يبدو ان احدا يقرع الجرس .

يتوقف الجميع عن اللعب ويحدقون فى النافذة المظلمة بأفواه مفتوحة . ومن خلف الظلام تتراقص انعكاسات المصباح .

— لقد خيل اليك .

ويقول اندريه :

— الاجراس لا تدق ليلا الا فى المقابر . . .

— ولماذا يدقون الاجراس هناك ؟

— لكى لا يتسلل قطاع الطرق الى الكنيسة . فهم يخافون الرنين .

فتسأل سونيا :

— ولماذا يتسلل قطاع الطرق الى الكنيسة ؟

— معروف لماذا . . . لكى يقتلوا الحراس !

وتمر دقيقة صمت . ويتبادل الجميع النظرات ، وينتفضون ، ثم يواصلون اللعب . ويكسب اندريه فى هذه المرة .

وفجأة يصيح اليوشا بصوت غليظ :

— لقد غش !

— كذاب ، انا لم اغش !

ويمتقع اندريه وتتقلص شفتاه ويخبط اليوشا على رأسه ! فتجحظ عينا اليوشا بغل ، ويقفز من مكانه ويرتكز على

الطاولة بركبته ، وبدوره يصفع اندريه على خده ! ثم يوجه كل منهما الى الآخر صفعة اخرى وينفجران بالبكاء . وسونيا ، التى لا تطيق مثل هذه المشاهد الرهيبة ، تنخرط ايضا فى البكاء ، فتدوى غرفة الطعام بأصوات العويل المتعددة . ولا تظنوا ان اللعب قد انتهى بسبب ذلك . فلا تمر سوى خمس دقائق حتى يعودوا الى الضحك والحديث المسالم . وعلى الوجوه آثار الدموع ، ولكن ذلك لا يعوقهم عن الابتسام . بل ان اليوشا سعيد . . . فها قد حدثت مشاحنة !

ويدلف فاسيا ، تلميذ الصف الخامس ، الى غرفة الطعام . تبدو عليه آثار النعاس وخيبة الأمل . ويقول لنفسه وهو يرى جريشا يتحسس جيبه الذى ترن فيه الكوبيكات : «يااللفظاعة ! كيف يعطون نقودا للاطفال ! كيف يمكن السماح لهم بلعب القمار ! يالها من تربية عظيمـــــة ! يااللفظاعة !»

ولكن الاطفال يلعبون بتلذذ الى درجة تثير فيه الرغبة فى الالتحاق بهم لكى يجرب حظه . فيقول :

— انتظروا ، سألعب معكم .

— ضع كوبيكا !

— حالا ، — يقول وهو يبحث فى جيوبه . — ليس معى كوبيك ، ها هو روبل . اضع روبلا * .

— لا ، لا ، لا . . . ضع كوبيكا !

— ايها الحمقى . . . الروبل على اى حال اغلى من

---

* الروبل وحدة نقدية تساوى مائة كوبيك . **المعرب** .

الكوبيك . — يقول التلميذ موضحا . — من يكسب منكم يعطنى الباقى .

— لا ، ابتعد لو سمحت !

يهز تلميذ الصف الخامس كتفيه ويمضى الى المطبخ ليأخذ من الخدم فكة . ويتضح انه لا يوجد فى المطبخ كوبيك واحد .

ويعود من المطبخ فيلحّ على جريشا :

— فى هذه الحالة فك لى الروبل . سأعطيك مقابل الفك ، الا تريد ؟ اذن بع لى عشرة كوبيكات بروبل .

يتطلع جريشا بارتياب الى فاسيا : أليس فى طلبه هذا مؤامرة ؟ أليس فيه احتيال ؟

ويقول قابضا على جيبه :

— لا اريد .

ويثور فاسيا ويغلى ، ويسبهم بالاغبياء واصحاب الرؤوس الغليظة .

فتقول سونيا :

— فاسيا ، سأضع بدلك ! اجلس .

فيجلس التلميذ ويضع امامه بطاقتين . وتبدأ آنيا فى اعلان الاعداد .

وفجأة يعلن جريشا بصوت منفعل :

— سقط منى كوبيك ! انتظروا !

وينزعون المصباح المعلق ويهبطون تحت الطاولة ليبحثوا عن الكوبيك . وتقع ايديهم على البصقات وقشر الجوز وتصطدم رؤوسهم . ولكنهم لا يعثرون على الكوبيك . ويعاودون البحث من جديد ، ويبحثون الى ان ينتزع فاسيا المصباح من يدى

جريشا ويضعه فى مكانه . ويواصل جريشا البحث فى الظلام .

واخيرا يعثر على الكوبيك ، فيجلس اللاعبون الى الطاولة لمواصلة اللعب .

ويعلن اليوشا :

— سونيا نامت !

وضعت سونيا رأسها المجعد الخصلات على يديها وغابت فى نوم عذب هادئ عميق ، كأنما تنام منذ ساعة . نامت دون قصد ، عندما كان الآخرون يبحثون عن الكوبيك .

فتقول لها آنيا وهى تسحبها من غرفة الطعام :

— هيا نامى على سرير ماما . هيا !

يقودونها جماعة . وبعد ما لا يزيد عن خمس دقائق يتحول سرير ماما الى منظر طريف . سونيا نائمة . وبجوارها يشخر اليوشا . وينام جريشا وآنيا متوسدين ارجل سونيا واليوشا . واندريه ، ابن الطاهية ، تمدد هنا ايضا مع الآخرين . ومن حولهم تناثرت الكوبيكات التى فقدت سلطانها عليهم حتى موعد اللعب القادم . تصبحون على خير !

وحشة

لمن اشكو حزني ؟ . .

غسق المساء . ندف الثلج الكبيرة الرطبة تدور بكسل حول مصابيح الشارع التى أضيئت لتوها ، وتترسب طبقة رقيقة لينة على أسطح المنازل وظهور الخيل ، وعلى الأكتاف والقبعات . والحوذى أيونا بوتابوف أبيض تماما كالشبح . انحنى متقوسا بقدر ما يستطيع الجسد الحي أن يتقوس وهو جالس على المقعد بلا حراك . ويبدو أنه لو سقط عليه كوم كامل من الثلج فربما ما وجد ضرورة لنفضه . . . وفرسه ايضا بيضاء ، تقف بلا حراك . وتبدو بوقفتها الجامدة ، وعدم تناسق بدنها ، وقوائمها المستقيمة كالعصيّ حتى عن قرب أشبه بحصان الحلوى الرخيص . وهى على الأرجح مستغرقة فى التفكير . فمن انتزع من المحراث ، من المشاهد الريفية المألوفة وألقى به هنا فى هذه الدوامة المليئة بالاضواء الخرافية ، والصخب المتواصل والناس الراكضين ، لا يمكن الا أن يفكر . . .

لم يتحرك أيونا وفرسه من مكانهما منذ وقت طويل . كانا قد خرجا من الدار قبل الغداء ولكنهما لم يستفتحا حتى الآن . وها هو ظلام المساء يهبط على المدينة . ويتراجع شحوب اضواء المصابيح مفسحا مكانه للالوان الحية ،

وتعلو ضوضاء الشارع .

ويسمع أيونا :

— يا حوذى ! الى فيبورجسكايا ! يا حوذى !

ينتفض ايونا ، ويرى من خلال رموشه المكللة بالثلج رجلا عسكريا فى معطف بقلنسوة .

ويردد العسكرى :

— الى فيبورجسكايا ، ماذا ، هل انت نائم ؟ الى فيبورجسكايا !

ويشد ايونا اللجام علامة الموافقة ، فتتساقط اثر ذلك طبقات الثلج من على ظهر الفرس ومن على كتفيه . . . ويجلس العسكرى فى الزحافة . ويطقطق الحوذى بشفتيه ، ويمد عنقه كالبجعة ، وينهض قليلا ، ويلوح بالسوط بحكم العادة اكثر مما هو بدافع الحاجة . وتمد الفرس ايضا عنقها ، وتعوج سيقانها العصوية وتتحرك من مكانها بتردد . . .

وما أن يمضى ايونا بالزحافة حتى يسمع صيحات من الحشد المظلم المتحرك جيئة وذهابا :

— الى أين تندفع أيها الاحمق ! أى شيطان القى بك ؟ الزم يمينك !

ويقول العسكرى بانزعاج :

— انت لا تعرف كيف تسوق ! الزم يمينك !

ويسب حوذى عربة حنطور ، ويحدق بغضب أحد المارة ، وكان يعبر الطريق فاصطدمت كتفه بعنق الفرس ، وينفض الثلج عن كمه . ويتململ أيونا فوق المقعد وكأنه جالس على جمر ، ويضرب بمرفقيه فى كلا الجانبين ، ويدور بنظراته كالممسوس ، وكأنما لا يفهم أين هو ولماذا هو هنا .

— يا لهم جميعا من أوغاد ! كلهم يسعون الى الاصطدام بك او الوقوع تحت أرجل الفرس . انهم متآمرون ضدك .

يتطلع ايونا الى الراكب ويحرك شفتيه . . . يبدو أنه يريد ان يقول شيئا ما ، ولكن لا يخرج من حلقه شيء سوى الفحيح .

فيسأله العسكري :

— ماذا ؟

يلوى أيونا فمه بابتسامة ويوتّر حنجرته ويفح :

— أنا يا سيدى . . . هذا الاسبوع يعنى . . ابنى مات .

— إم ! . . ومم مات اذن ؟

يستدير ايونا بجسده كله نحو الراكب ويقول :

— ومن يدرى ؟ الظاهر من الحمى . . . رقد فى المستشفى ثلاثة ايام ومات . . . مشيئة الله .

ويتردد فى الظلام :

— حاسب يا ملعون ! هل عميت ايها الكلب العجوز ؟ افتح عينيك !

ويقول الراكب :

— هيا ، هيا سر . . . بهذه الطريقة لن نصل ولا غدا . عجّل !

ويمد الحوذى عنقه من جديد ، وينهض قليلا ويلوح بالسوط بحركة رشيقة متثاقلة . ويلتفت الى الراكب عدة مرات ، ولكن الأخير كان قد اغمض عينيه ويبدو غير راغب فى الانصات . وبعد ان ينزله فى فيبورجسكايا يتوقف

عند أحدى الحانات ، وينحنى متقوسا وهو جالس على مقعد الحوذى ، ويجمد بلا حراك مرة أخرى . . . ومن جديد يصبغه الثلج الرطب هو وفرسه باللون الابيض . وتمر ساعة ، وأخرى . . .

على الرصيف يسير ثلاثة شبان وهم يقرقعون بأحذيتهم فى صخب ويتبادلون السباب . اثنان منهم طويلان نحيفان ، والثالث قصير أحدب .

ويصيح الأحدب بصوت مرتعش :

— يا حوذى ، الى جسر الشرطة ! ثلاثة ركاب . . بعشرين كوبيكا !

يشد أيونا اللجام ويطقطق بشفتيه . ليست العشرون كوبيكا بسعر مناسب ، ولكنه فى شغل عن السعر . . . فسواء لديه روبل ام خمسة كوبيكات . . . المهم أن يكون هناك ركاب . . . يقترب الشبان من الزحافة وهم يتدافعون بألفاظ نابية ، ويرتمى ثلاثتهم على المقاعد دفعة واحدة . وتبدأ مناقشة قضية : من الاثنان اللذان سيجلسان ، ومن الثالث الذى سيقف ؟ وبعد سباب طويل ونزق وعتاب يصلون الى حل : الأحدب هو الذى ينبغى أن يقف باعتباره الأصغر .

فيقول الأحدب بصوته المرتعش وهو يثبت اقدامه ويتنفس فى قفا ايونا :

— هيا عجّل ! اضربها بالسوط ! يا لها من قبعة لديك يا أخى ! لن تجد فى بطرسبرج كلها اسوأ منها . . .

فيقهقه ايونا :

— هىء—هىء . . . هىء—هىء . هذا هو الموجود . . .

— اسمع انت ، ايها الموجود ، عجّل ! هل ستسير

هكذا طول الطريق [illegible]

ويقول أحد الطويلين :

— رأسى يكاد ينفجر . . . بالأمس شربت أنا وفاسكا عند آل دوكماسوف أربع زجاجات كونياك نحن الاثنين .

ويقول الطويل الآخر بغضب :

— لا أدرى ما الداعى للكذب ! يكذب كالحيوان .

— عليّ اللعنة ان لم يكن حقيقة . . .

— انها حقيقة مثلما هى حقيقة أن القملة تسعل .

فيضحك أيونا :

— هىء—هىء . . سادة ظرفاء !

ويقول الأحدب بسخط :

— فلتخطفك الشياطين ! هل ستعجل ايها الوباء العجوز ام لا ؟ هل هذا سير ؟ ناولها بالسوط ! هيا ايها الشيطان ! هيا ! ناولها جيدا !

ويحس ايونا خلف ظهره بجسد الأحدب المتململ ورعشة صوته . ويسمع السباب الموجه اليه ، ويرى الناس فيبدأ الشعور بالوحدة ينزاح عن صدره شيئا فشيئا . ويظل الأحدب يسب حتى يغص بسباب منتقى فاحش وينفجر فى السعال . ويشرع الطويلان فى الحديث عمن تدعى ناديجدا بتروفنا . ويتطلع ايونا نحوهم . وينتهز فرصة الصمت فيتطلع نحوهم ثانية ويدمدم :

— أصل أنا . . هذا الأسبوع يعنى . . ابنى مات !

فيتنهد الأحدب وهو يمسح شفتيه بعد السعال :

— كلنا سنموت . . . هيا عجّل ، عجّل ! يا سادة ، أنا لا يمكن أن أمضى بهذه الطريقة ! متى سيوصلنا ؟

— حسنا ، فلتشجعه قليلا . . . في قفاه !

— هل سمعت ايها الوباء العجوز ؟ سأكسر لك عنقك ! التلطف مع جماعتكم معناه السير على الأقدام . . . هل تسمع ايها الثعبان الشرير ؟ ام انك تبصق على كلماتنا ؟

ويسمع أيونا اكثر مما يحس بصوت الصفعة على قفاه . فيضحك :

— هيء–هيء . . سادة ظرفاء . . . ربنا يعطيكم الصحة !

ويسأل أحد الطويلين :

— يا حوذى ، هل أنت متزوج ؟

— أنا ؟ هيء–هيء . . . سادة ظرفاء ! لم يعد لديّ الآن الا زوجة واحدة : الارض الرطبة . . هيء–هوء–هوء . . . القبر يعنى ! . . ها هو ابنى قد مات وأنا أعيش . . . حاجة غريبة ، الموت غلط فى الباب . . . بدلا من أن يأتينى ذهب الى ابنى . . . .

ويلتفت ايونا لكى يروى كيف مات ابنه ، ولكـن الأحدب يتنهد بارتياح ويعلن انهم اخيرا ، والحمد لله ، وصلوا . ويحصل ايونا على العشرين كوبيكا ويظل ينظـر طويلا فى أثر العابثين وهم يختفون فى ظلام المدخل . وها هو وحيد ثانية ، ومن جديد يشمله السكون . . . والوحشة التى هدأت قليلا تعود تطبق على صدره بأقوى مما كان . وتدور عينا ايونا بقلق وعذاب على الجموع المهرولة على جانبـى الشارع : ألن يجد فى هذه الآلاف واحدا يصغى اليه ؟ ولكن الجموع تسرع دون أن تلاحظه أو تلاحظ وحشته . . . وحشة هائلة ، لا حدود لها . لو أن صدر ايونا انفجر ، وسالت منه الوحشة فربما اغرقت الدنيا كلها ، ومع ذلك

لا احد يراها . لقد استطاعت ان تختبىء فى [illegible]
ضئيلة فلن تُرى حتى فى وضح النهار . . .

ويلمح ايونا بوابا يحمل قرطاسا فينوى ان يتحدث اليه . ويسأله :

— كم الساعة الآن يا ولدى ؟

— التاسعة . . . لماذا تقف هنا ؟ امش !

يتحرك ايونا عدة أمتار ، ثم ينحنى متقوسا ، ويستسلم للوحشة . . . ويرى انه لا فائدة بعد من مخاطبة الناس . ولكن ما ان تمر بضع دقائق حتى يعتدل ، وينفض رأسه كأنما أحس بوخزة ألم حادة ، ويشد اللجام . . . لم يعد قادرا على التحمل .

ويقول لنفسه : «الى البيت ! الى البيت !»

وكأنما فهمت الفرس أفكاره فتبدأ فى الركض بخبب .

وبعد حوالى ساعة ونصف يكون ايونا جالسا بجوار فرن كبير قذر . وفوق الفرن ، وعلى الارض ، وعلى الأرائك يتمدد اناس يشخرون . والجو مكتوم خانق . . . يتطلع ايونا الى النائمين ويحك جلده ويأسف لعودته المبكرة الى البيت . . .

ويقول لنفسه : «لم اكسب حتى حق الشعير . . ولهذا أشعر بالوحشة . الرجل الذى يعرف عمله . . الذى هو نفسه شبعان وفرسه شبعى ، هو دائما مطمئن البال . . .»

فى احدى الزوايا ينهض حوذى شاب ، ويزحر بصوت ناعس ، ويمد يديه الى الدلو .

فيسأله أيونا :

— أردت ان تشرب ؟

— كما ترى !

— طيب . . بالهنا والشفا . . اما انا يا اخى فقد مات ابنى . . هل سمعت ؟ هذا الاسبوع ، فى المستشفى . . . حكاية !

ويتطلع ايونا ليرى اى تأثير تركته كلماته ، ولكنه لا يرى شيئا . فقد تغطى الحوذى الشاب حتى رأسه وغط فى النوم . ويتنهد العجوز ويحك جلده . . . فمثلما رغب الحوذى الشاب فى الشرب يرغب هو فى الحديث . عما قريب يمر اسبوع منذ أن مات ابنه ، بينما لم يتمكن حتى الآن من الحديث عن ذلك مع أحد كما يجب . . . ضرورى ان يتحدث بوضوح ، على مهل . . . ينبغى أن يروى كيف مرض ابنه ، وكيف تعذب ، وماذا قال قبل وفاته ، وكيف مات . . . ينبغى أن يصف جنازته وذهابه الى المستشفى ليتسلم ثياب المرحوم . وفى القرية بقيت ابنته أنيسيا . . . ينبغى أن يتحدث عنها ايضا . . . وعموما ، فما أكثر ما يستطيع أن يرويه الآن ! ولا بد أن يتأوه السامع ويتنهد ، ويرثى . . . والأفضل ان يتحدث مع النساء . فهؤلاء وان كنَّ حمقاوات ، يعولن من كلمتين .

ويقول ايونا لنفسه : «فلأذهب لأتفقد الفرس . . . أما النوم فبعدين . . سأشبع نوما . .»

يرتدى ملابسه ويذهب الى الاصطبل حيث تقف فرسه . ويفكر فى الشعير ، والدريس والجو . . . فعندما يكون وحده لا يستطيع ان يفكر فى ابنه . . . يستطيع ان يتحدث عنه مع أحد ما ، أما ان يفكر فيه ويرسم لنفسه صورته فشىء رهيب لا يطاق . . .

ويسأل ايونا فرسه عندما يرى عينيها البراقتين :

— تمضغين ؟ حسنا ، امضغى ، امضغى . . . ما دمنا لم نكسب حق الشعير فسنأكل الدريس . . . نعم . . أنا كبرت على السياقة . . . كان المفروض أن يسوق ابنى لا أنا . . . كان حوذيا أصيلا . . . لو أنه فقط عاش . . .

ويصمت ايونا بعض الوقت ثم يواصل :

— هكذا يا أختى الفرس . . لم يعد كوزما ايونيتش موجودا . . . رحل عنا . . . فجأة مات ، خسارة . . فلنفرض مثلا ان عندك مهرا ، وأنت أم لهذا المهر . . ولنفرض ان هذا المهر رحل فجأة . . . أليس مؤسفا ؟

وتمضغ الفرس وتنصت وتزفر على يدى صاحبها . .

ويندمج ايونا فيحكى لها كل شيء . . .

١٨٨٦

هرج

ما ان عادت ماشنكا بافليتسكايا ، الفتاة الشابة ، التى أنهت دورة المعهد النسائى مؤخرا ، من نزهتها الى دار آل كوشكين ، حيث كانت تقطن وتعمل مربية ، حتى رأت هرجا لم يسبق له مثيل . وكان البواب ميخايلو ، الذى فتح لها الباب منفعلا وأحمر الوجه كسرطان البحر .

ومن أعلى تناهى ضجيج .

وفكرت ماشا : «لابد أن السيدة أصيبت بنوبة . . . او انها تشاجرت مع زوجها . . .» .

والتقت فى المدخل ثم فى الطرقة بالخادمات ، وكانت احداهن تبكى . ثم رأت ماشنكا كيف خرج من باب غرفتها هى رب الدار نفسه نيقولاى سيرجييتش ، وهو رجل صغير ، لم يهرم بعد ، ذو وجه متقزز وصلعة كبيرة . كان محمرا ، يرتعد . . . ومر بجوار المربية دون ان يلاحظها ، وصاح هاتفا وهو يرفع يديه الى أعلى :

— اوه ، ما أفظع هذا ! يا لانعدام اللباقة ! ما أغبى هذا ، ما أشنعه ! ما أحطه !

دخلت ماشنكا غرفتها ، وهنا كابدت لأول مرة فى حياتها وبكل حدة ، ذلك الاحساس المعروف جيدا لمن

هم فى وضع التبعية ، لغير القادرين على الرد ، لمن يعيشون فى كنف الأغنياء والأكابر . كانت غرفتها تتعرض للتفتيش . وكانت ربة الدار فيدوسيا فاسيليفنا ، وهى امرأة بدينة ، عريضة الكتفين ، ذات حاجبين أسودين كثيفين وشعر مسترسل ، حادة التقاطيع ، بشارب خفيف لا يكاد يلحظ وذراعين حمراوين ، تشبه بوجهها وحركاتها طاهية من عامة النساء ، كانت تقف الى جوار مكتب ماشنكا وتعيد الى حقيبة يدها لفائف صوف وقطع قماش ، واوراقا ما . . . ويبدو ان مجىء المربية كان مفاجأة لها ، لأنها عندما التفتت ورأت وجهها الشاحب المندهش ، ارتبكت قليلا وغمغمت :

— Pardon * ، انا . . . انا . . سقطت منى عفوا . . اشتبكت بكمى . . .

وبعد ان دمدمت مدام كوشكينا بكلمات ما ، هفهفت بذيل فستانها وخرجت . وطافت ماشنكا بنظرات مندهشة على غرفتها ، وهزت كتفيها وهى لا تفهم شيئا ولا تدرى ماذا تظن ، وتثلجت اطرافها خوفا . . . عم كانت فيدوسيا فاسيليفنا تفتش فى حقيبة يدها ؟ لو كان صحيحا ما قالت بأن كمها اشتبك عفوا بالحقيبة فتبعثرت محتوياتها ، فلماذا اذن انفلت نيقولاى سرجييتش من الغرفة محمرا ومنفعلا بتلك الصورة ؟ ولماذا يبرز قليلا أحد أدراج المكتب . والحصالة التى كانت المربية تخبىء فيها قطع النقود والطوابع القديمة

---

* عفوا (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

كانت مفتوحة . لقد فتحوها ولكنهم لم يتمكنوا من اغلاقها رغم أنهم ملأوا القفل بالخدوش . وكان رف الكتب وسطح المكتب ، والفراش . . كل ذلك كان يحمل آثار التفتيش القريب . وكذلك سلة الملابس . كانت الملابس مرتبة بعناية ، ولكن ليس بنفس الترتيب الذى وضعته بها ماشنكا قبل ان تغادر المنزل . اذن فقد جرى تفتيش حقيقى ، تفتيش بمعنى الكلمة ، ولكن ما الداعى له ، ولماذا ؟ ماذا حدث ؟ وتذكرت ماشنكا اضطراب البواب ، والهرج الذى لا زال مستمرا ، والخادم الباكية . . أليس لكل ذلك علاقة بالتفتيش الذى جرى فى غرفتها منذ قليل ؟ أتكون متورطة فى قضية رهيبة ؟ امتقعت ماشنكا وتهالكت فوق سلة الملابس باردة الجسم تماما .

ودخلت الخادم الغرفة .

فسألتها المربية :

— ليزا ، الا تعرفين لماذا . . . فتشونى ؟

فقالت ليزا :

— ضاع من السيدة بروش ثمنه ألفا روبل . . .

— طيب ، ولكن لماذا يفتشوننى ؟

— فتشوا الجميع يا آنسة . وأنا فتشونى كلى . . . جردونا من ملابسنا تماما وفتشونا . . . اننى يا آنسة . . يشهد الله . لم ألمس بروش السيدة ، بل لم اقترب حتى من تسريحتها . . ومستعدة ان أقول ذلك حتى للشرطة .

ومضت المربية تقول بدهشة :

— ولكن . . لماذا يفتشوننى ؟

— قلت لك ان البروش قد سرق . . السيدة نفسها

فتشت بيديها كل شيء . . حتى البواب ميخايلو فتشته بنفسها . يا للعار ! ونيقولاى سرجييتش لا يستطيع ان يفعل الا أن ينظر ويقوقيء كالدجاجة . اما أنت يا آنسة فعبثا ترتعدين . لم يجدوا شيئا لديك ! ما دمت لم تأخذى البروش فليس هناك ما تخشينه .

فقالت ماشنكا وهى تختنق من الغضب :

— ولكن هذا يا ليزا وضيع . . . مهين ! انها خسة ، وضاعة ! بأى حق تشك فى وتفتش أغراضى ؟

فتنهدت ليزا قائلة :

— انت تعيشين عند الغير يا آنسة . . ورغم أنك آنسة . . فمع ذلك . . أنت كالخادم . . ليس هذا مثل العيش عند بابا وماما . . .

ارتمت ماشنكا على السرير وانتحبت بحرقة . لم يحدث ابدا من قبل ان تعرضت لمثل هذا القهر ، ولم يحدث ابدا من قبل ان أهينت بهذه الصورة كما حدث الآن . . . هى الفتاة الحساسة ، المؤدبة ، ابنة مدرس ، يرتابون فيها كسارقة ، ويفتشونها كامرأة من الشارع ! لا يمكن ، فيما يبدو ، ان تكون هناك اهانة اكبر من هذه . واقترن بهذا الاحساس بالاهانة خوف ثقيل : ترى ماذا سيحدث ؟ ! وطافت برأسها شتى الخواطر الخرقاء . فاذا كانوا قد ارتابوا فى انها سارقة ، فهذا يعنى انه من الممكن ان يعتقلوها ، ويجردوها من ملابسها ويفتشوها ، ثم يسوقوها فى الشارع تحت الحراسة ، ويضعوها فى زنزانة مظلمة باردة مع الفئران والصراصير ، زنزانة تشبه بالضبط تلك التى وضعت فيها

الأميرة تراكانوفا * . فمن ذا الذى سيدافع عنها ؟ أهلها يعيشون بعيدا فى الأرياف ، وليس لديهم نقود ليأتوا اليها . وهى وحيدة فى العاصمة ، كأنما فى حقل خاو ، بلا أهل او معارف . يستطيعون ان يفعلوا بها كل ما يريدون .

وفكرت ماشنكا وهى ترتعش : «سألجأ الى كل القضاة والمحامين . . . سأشرح لهم الأمر ، وسأقسم . . . وسيصدقون اننى لا يمكن ان أكون سارقة !»

وتذكرت ماشنكا ان لديها فى سلة الملابس ، تحت الملاءات ، بعض الحلوى ، التى كانت تخبئها حسب عادتها القديمة ايام المعهد فى اثناء الغداء ، ثم تحملها الى غرفتها . وارتجفت من فكرة ان سرها الصغير هذا أصبح معروفا لأصحاب الدار ، وشعرت بالخجل ، وبسبب هذا كله : بسبب الخوف والخجل والاهانة راح قلبها يدق بعنف ، وتتردد دقاته فى صدغيها ويديها وفى أعماق احشائها .

وسمعت صوتا يدعوها :

— تفضلى للغداء !

«أذهب أم لا ؟»

سوت ماشنكا شعرها ، ومسحت وجهها بمنشفة مبللة ، وذهبت الى غرفة الطعام . وكانوا هناك قد بدأوا الغداء . . . وعلى أحد طرفى المائدة جلست فيدوسيا فاسيليفنا ، بعظمة ،

---

* لوحة شهيرة للمصور فلافيتسكى (١٨٦٤) تصور الاميرة تراكانوفا التى ادعت أحقيتها بعرش روسيا وهى فى فرنسا عام ١٧٧٢ ، والقى القبض عليها فى ايطاليا ، واعيدت الى بطرسبرج حيث سجنت فى قلعة بطرس وباول ، وتوفيت بالسل . **المعرب** .

بوجه بليد جاد ، وعلى الطرف الآخر جلس نيقولاى سيرجيتش . وعلى الجانبين جلس الضيوف والأولاد . وقام وصيفان يرتديان حلل «الفراك» والقفازات البيضاء بتقديم الطعام . وكان الجميع يعلمون ان الهرج يعم المنزل ، وان ربة الدار تعانى الفجيعة ، فلزموا الصمت . ولم يكن يسمع سوى صوت المضغ ودقات الملاعق على الاطباق .

وبدأت الحديث ربة الدار نفسها . فسألت الوصيف بصوت فاتر معذب :

— ماذا لدينا للطبق الثالث ؟

فأجاب الوصيف :

— أستورجون ألا روس !

وأسرع نيقولاى سرجييتش يقول :

— انا الذى طلبته يا فينيا . . . رغبت فى السمك . . . اذا كان لا يعجبك يا ma chère * دعيه لا يقدمه . . . انا طلبته هكذا . . بالمناسبة . . .

لم تكن فيدوسيا فاسيليفنا تحب الأكلات التى لا توصى هى بطلبها ، وها هى عيناها الآن تغرورقان بالدموع .

— ما هذا ، لا ينبغى ان تنفعلى ، — قال ماميكوف ، طبيبها المنزلى بصوت معسول ، وهو يلمس ذراعها برقة ويبتسم ايضا ابتسامة معسولة . — نحن بدون ذلك عصبيون بما فيه الكفاية . فلننس البروش ! الصحة أغلى من ألفى روبل !

---

* عزيزتى — (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

فأجابت ربة الدار بينما انحدرت دمعة كبيرة على خدها :

— أنا لا آسف على الألفى روبل . ان ما يستفزنى هو الواقعة بحد ذاتها ! لن أصبر فى بيتى على اللصوص . أنا لا أبخل ، لا أبخل بشىء ، ولكن أن يسرقونى . . يا له من جحود ! أهكذا يكافئوننى على طيبتى . . .

كان الجميع ينظرون فى اطباقهم ، بيد انه خيل لماشنكا انهم جميعا تطلعوا اليها بعد كلمات ربة الدار . وفجأة اطبقت الغصة على زورها ، فبكت وضغطت بالمنديل على وجهها .

ودمدمت :

— Pardon ، انا لا استطيع . أشعر بصداع . سأذهب .

ونهضت من المائدة فأثارت جلبة بكرسيها وازدادت ارتباكا فأسرعت بالانصراف .

وقال نيقولاى سرجييتش ممتعضا :

— الله يعلم ما هذا ! ما كان ينبغى تفتيشها هذا فى الحقيقة . . غير مناسب .

فقالت فيدوسيا فاسيليفنا :

— انا لا أدّعي أنها اخذت البروش ، ولكن هل تستطيع ان تضمنها ؟ انا بصراحة لا أميل الى تصديق هؤلاء الفقيرات المثقفات .

— حقا يا فينيا هذا غير مناسب . . . عفوا يا فينيا ، ولكنك لا تملكين قانونيا اى حق فى اجراء تفتيش .

— أنا لا أعرف قوانينكم ، أنا أعرف فقط انه قد ضاع منى بروش ، وهذا كل ما هنالك . وسوف أجد

هذا البروش ! — وضربت الطبق بالشوكة ، ولمعت عيناها بغضب . — اما أنت فلتأكل ، ولا تتدخل فى شئونى !

خفض نيقولاى سرجييتش بصره باستكانة وتنهد .

اما ماشنكا ، فبعد أن وصلت الى غرفتها ، ارتمت على الفراش . لم تعد تشعر بالخوف او الخجل ، بل راحت تعذبها رغبة قوية فى أن تذهب وتصفع تلك المرأة القاسية المتغطرسة البليدة السعيدة على خديها .

واخذت ، وهى راقدة تتنفس فى الوسادة ، تحلم بأنه كم يكون جميلا لو استطاعت ان تذهب الآن وتشترى أغلى بروش وتلقى به فى وجه هذه الحمقاء المستبدة . لو ان الله يشاء فينزل الخراب بفيدوسيا فاسيليفنا فتمضى تتسول ، لتدرك كل فظاعة الفقر ووضع التبعية ، ولو ان ماشنكا المهانة تمد لها عندئذ يدها بحسنة ! أوه لو انها تحصل على ميراث كبير ، فتشترى عربة وتمر بها فى جلبة من أمام نوافذ فيدوسيا فاسيليفنا لكى تحسدها !

بيد ان كل ذلك كان مجرد احلام ، اما فى الواقع فلم يكن أمامها الا شىء واحد : أن تذهب من هنا بسرعة ، الا تبقى هنا ولا ساعة واحدة . صحيح أنه من المخيف أن تفقد الوظيفة ، لتعود مرة اخرى الى أهلها الذين لا يملكون شيئا ، ولكن ما العمل ؟ لم تعد ماشنكا تطيق رؤية ربة الدار ولا غرفتها الصغيرة ، كانت تشعر هنا بالاختناق والرعب . ضاقت بفيدوسيا فاسيليفنا ، المهووسة بأمراضها وارستقراطيتها المزعومة ، الى درجة بدا لها معها ان كل شىء فى العالم أصبح فظا وقميئا بسبب وجود هذه المرأة . وقفزت ماشنكا من السرير وراحت تجمع حاجياتها .

— هل استطيع الدخول ؟ — سأل نيقولاى سرجييتش من وراء الباب . كان قد اقترب من الباب بخطوات لا تسمع ، وقال بصوت خافت ليِّن . — ممكن ؟

— ادخل .

ودخل ووقف الى جوار الباب . كانت تطل من عينيه نظرة كابية ، ولمع أنفه الصغير الاحمر . لقد شرب البيرة بعد الغداء ، وظهر ذلك واضحا من مشيته ويديه الضعيفتين الذابلتين .

وسأل وهو يشير الى السلة :

— ما معنى هذا ؟

— أجمع اغراضى . اعذرنى يا نيقولاى سرجييتش ، ولكنى لا استطيع البقاء فى داركم . لقد كان هذا التفتيش اهانة بالغة لى !

— مفهوم . . . ولكن عبثا تفعلين هذا . . لماذا ؟ ليكن انهم فتشوك . . اما انت . . ماذا يضيرك ؟ لن ينقص هذا التفتيش منك شيئا .

لزمت ماشنكا الصمت ومضت تجمع اغراضها .

وشد نيقولاى سرجييتش شعر شاربه وكأنما يفكر فيما يمكن ان يضيفه ، ومضى يقول بصوت متملق :

— انا طبعا مقدّر ، ولكن ينبغى ان تكونى متسامحة . انت تعرفين ان زوجتى عصبية ، غير متزنة ، ولكن لا داعى للقسوة فى الحكم . . .

وصمتت ماشنكا .

واستطرد نيقولاى سرجييتش :

— اذا كنت تشعرين بأنك قد اهنت الى هذه الدرجة ،

حسنا ، اننى مستعد لأن اعتذر لك . ارجو المعذرة .

لم تجب ماشنكا بشيء ، بل انحنت أكثر فوق حقيبتها . لم يكن لهذا الرجل الهزيل الضعيف الارادة اى وزن فى المنزل . كان يلعب دورا بائسا لشخص عالة وزائد حتى عند الخدم . ولم يكن لاعتذاره أيضا أى وزن .

— هم . . تصمتين ؟ تعتبرين هذا غير كاف ؟ اذن فانا اعتذر عن زوجتى . باسم زوجتى . . . لقد تصرفت بعدم لباقة ، وانا اعترف بذلك كنبيل . . .

وتمشى نيقولاى سرجييتش قليلا ، وتنهد ، ثم أضاف :

— اذن فأنت تريدين ان أشعر بالوخز هنا ، تحت القلب . . . انت تريدين أن يعذبنى ضميرى . . .

فقالت ماشنكا وهى تنظر فى وجهه مباشرة بعينيها الواسعتين الباكيتين :

— انا اعرف يا نيقولاى سرجييتش انك لست مذنبا . فلماذا اذن تتعذب ؟

— طبعا . . . ولكن مع ذلك لا تفعلى هذا . . . لا تذهبى . . . أرجوك .

فهزت ماشنكا رأسها بالنفى . وتوقف نيقولاى سرجييتش عند النافذة وأخذ ينقر بأصابعه على الزجاج .

وقال :

— بالنسبة لي تعتبر كل هذه المشاكل عذابا حقيقيا . ماذا تريدين ان أفعل ، هل اركع على ركبتى امامك ام ماذا ؟ لقد أهينت كرامتك ، وها أنت قد بكيت ، وتنوين الرحيل ، ولكن انا ايضا لديّ كرامة ، وانت لا ترحمينها . ام أنك تريدين أن أقول لك ما لن أقوله على كرسى الاعتراف ؟

تريدين ؟ اسمعى ، أتريدين ان اعترف لك بما لن اعترف به حتى فى لحظة الموت ؟

ولزمت ماشنكا الصمت .

— أنا الذى أخذت البروش من زوجتى ! — قال نيقولاى سرجييتش بسرعة . — هل انت راضية الآن ؟ مرتاحة ؟ نعم انا اخذته . . . لكنى بالطبع آمل فى شهامتك . . . استحلفك ، ولا كلمة لأحد ، ولا شبه تلميح !

ومضت ماشنكا تجمع أغراضها فى دهشة وذعر . كانت تلتقط الاشياء وتعصرها وتدسها بلا نظام فى الحقيبة والسلة . وبعد الاعتراف الصريح الذى ادلى به نيقولاى سرجييتش لم يعد بوسعها ان تبقى دقيقة واحدة ، ولم تعد تفهم كيف استطاعت ان تعيش قبل ذلك فى هذا المنزل .

ومضى نيقولاى سرجييتش يقول بعد صمت قصير :

— ليس هناك ما يدعو للدهشة . . . انها قصة عادية ! كنت بحاجة الى نقود ، وهى . . . لا تعطينى . ان هذا المنزل وكل ما هنا . . من ثروة أبـى يا ماريا أندرييفنا ! كل هذا ملكى ، والبروش كان لأمى و . . . كل هذا ملكى ! لكنها اخذت كل شيء ، استولت عليه . . . ولتوافقينى ، فليس من المعقول أن أقاضيها . . . أرجوك ، بشدة ان تعذرينى و . . تبقى . Tout comprendre, tout pardonner * هل تبقين ؟

---

* فهم كل شيء — يعنى الصفح عن كل شيء — (بالفرنسية فى الأصل) . **المعرب** .

فقالت ماشنكا بحزم وبدات ترتعش :

— كلا ! دعنى أرجوك .

— طيب ، سامحك الله ، — قال نيقولاى سرجييتش متنهدا وهو يجلس على الاريكة بجوار الحقيبة . — انا فى الحقيقة أحب اولئك الذين ما زالوا قادرين على الشعور بالغضب والاحتقار وغيره . بودى لو جلست دهرا اتطلع الى وجهك الغاضب . . . اذن فلن تبقى ؟ مفهوم . . . لا يمكن ان يكون الأمر غير ذلك . . . نعم ، طبعا . . انت محظوظة ، أما انا فـ . . . هس ! ولا خطوة من هذا القبو . . . ولو ذهبت الى اية ضيعة من ضياعنا فسأجد هناك أذناب زوجتى فى كل مكان . . أولئك الخوليون ، والمهندسون الزراعيون ، فلتخطفهم الشياطين . يرهنون كل شيء ويعيدون رهنه . . ممنوع صيد السمك ، ممنوع دوس الاعشاب ، ممنـوع تحطيم الأشجار .

وتناهى من الصالة صوت فيدوسيا فاسيليفنا :

— نيقولاى سرجييتش ! يا أجنيا ، نادي السيد !

وسأل نيقولاى سرجييتش وهو ينهض بسرعة ويتجه الى الباب :

— اذن لن تبقي ؟ ربما تبقين مع ذلك ! أي والله . . اذن لجئت اليك فى المساء . . . وتحادثنا . هه ؟ ابقي ! لو ذهبت فلن يبقى فى البيت كله وجه انسانى واحد . هذا فظيع !

كان وجه نيقولاى سرجييتش الهزيل الشاحب يتوسل ، ولكن ماشنكا هزت رأسها نفيا ، فأشاح بيده وخرج .

وبعد نصف ساعة كانت فى الطريق .

١٨٨٦

انيوتا

في أرخص غرفة من غرف البنسيون المفروش «لشبونة» أخذ ستيبان كلوتشكوف ، الطالب بالصف الثالث بكلية الطب يروح ويجيىء من ركن الى ركن وهو يستظهر علومه الطبية . وبسبب الاستظهار المستمر الشاق جف ريق فمه وتفصد العرق على جبينه .

وبجوار النافذة التى غطى الجليد اطرافها بنقشه ، وعلى مقعد بلا ظهر ، جلست خليلته أنيوتا ، وهى فتاة صغيرة الجسم ، نحيلة ، سوداء الشعر ، فى حوالى الخامسة والعشرين ، شاحبة جدا ، ذات عينين رماديتين وديعتين . جلست محنية الظهر وهى تطرز ياقة قميص رجالى بخيوط حمراء . كان العمل مستعجلا . . . ودقت ساعة الطرقة بصوت أبح معلنةً الثانية بعد الظهر ، بينما لم ترتب الغرفة بعد . كانت البطانية المجعدة ، والوسائد المبعثرة ، والكتب ، والحلة ، والوعاء الكبير القذر المملوء بمياه الغسيل الصابونية ، والتى كانت تعوم فيها اعقاب السجائر ، والقاذورات على الارض . . . كان ذلك كله يبدو وكأنه تجمع فى كوم واحد ، وخُلط وجُعِّد عن عمد . . .

وقال كلوتشكوف وهو يستظهر بصوت عال :

— الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص . . . حدودها !
الفص العلوى عند الجدار الامامى للصدر يصل الى الضلع الرابع والخامس ، وعلى السطح الجانبى حتى الضلع الرابع . . . وعند الجدار الخلفى حتى * spina scapulae . . .

ورفع كلوتشكوف عينيه نحو السقف وهو يحاول ان يتصور ما قرأه لتوه . وعندما لم يصل الى تصور واضح أخذ يتحسس ضلوعه العليا من خلال الصديرى .

وقال :

— هذه الضلوع تشبه مفاتيح البيانو . ولكي لا يختلط عليّ الحساب لا بد ان أتعودها . سيكون عليّ ان ادرسها على الهيكل البشرى وعلى شخص حي . . . تعالي يا أنيوتا ، هيا استرشد بك !

تركت أنيوتا التطريز ، ونزعت بلوزتها ، وانتصبت . وجلس كلوتشكوف قبالتها ، وقطب حاجبيه ، وأخذ يعد ضلوعها .

— هم . . . الضلع الاول لا أستطيع ان أتحسسه . . . انه خلف الترقوة . . أما هذا فهو الضلع الثانى اذن . . حسنا . . وهذا الثالث . . وهذا الرابع . . هم . . حسنا . . ما لك تنكمشين ؟

— أصابعك باردة !

— طيب ، طيب ، لن تموتى ، كُفي عن التململ . اذن فهذا هو الضلع الثالث ، وهذا الرابع . . . يبدو من

---

* حتى شوكة عظمة اللوح (باللاتينية) . **المعرب** .

منظرك أنك هزيلة ، ومع ذلك لا اكاد أعثر على ضلوعك . هذا هو الضلع الثانى . . . وهذا الثالث . . . كلا ، هكذا سيختلط عليّ الامر ولن أتصور بوضوح . . . ينبغى أن أرسمها . . . اين قطعة الفحم ؟

تناول كلوتشكوف قطعة الفحم ورسم بها على صدر أنيوتا عدة خطوط متوازية تتفق والضلوع .

— رائع . كل شيء واضح تماما . حسنا ، والآن استطيع ايضا ان أدق بأصابعى . هيا انهضي !

نهضت أنيوتا ورفعت ذقنها . وانهمك كلوتشكوف فى الدق بأصابعه ، واستغرق تماما فى هذا الامر حتى انه لم يلاحظ ان شفتي أنيوتا وأنفها وأصابعها أزرقت من البرد . وكانت أنيوتا ترتجف وهى تخشى أن يلحظ طالب الطب رجفتها فيكف عن الرسم بالفحم وعن الدق ، ثم ربما يرسب فى الامتحان .

وقال كلوتشكوف بعد ان كف عن الدق :

— كل شيء واضح الآن . اجلسي هكذا ولا تمسحي الخطوط ، اما انا فسأستظهر قليلا .

وعاد طالب الطب يتمشى ويستظهر . وجلست أنيوتا منكمشة ، بخطوط الفحم السوداء كالوشم على صدرها ، وراحت تفكر . وعموما لم تكن تتحدث الا قليلا ، وكانت دائما تبقى صامتة ، وتفكر ، وتفكر . . .

طوال السنوات الست او السبع من تقلبها فى البنسيونات المفروشة عرفت حوالى خمسة اشخاص من امثال كلوتشكوف . وقد تخرجوا جميعا من الجامعات ، وأصبحوا الآن ذوي مكانة ، وكأناس محترمين فقد نسوها بالطبع منذ أمد بعيد .

واحد منهم يعيش في باريس ، واثنان يعملان طبيبين ، والرابع مصور ، اما الخامس فيقال حتى انه أصبح استاذا . وكلوتشكوف هو السادس . . . وقريبا يتخرج هو ايضا ، ويصبح ذا مكانة . مستقبله بلا شك رائع ، وسيصبح كلوتشكوف ، على الارجح ، شخصية كبيرة ، ولكن الحاضر سيىء تماما : فليس لديه تبغ أو شاى ، ولم يبق من السكر سوى أربع قطع . ينبغى ان تنتهي من التطريز بأسرع ما يمكن ، وتسلمه لصاحبة الطلب مقابل خمسة وعشرين كوبيكا ، ثم تشترى بها شايا وتبغا .

وتردد من وراء الباب :

— هل يمكن أن أدخل ؟

وألقت أنيوتا بمنديل صوفي على كتفيها بسرعة . ودخل المصور فيتيسوف .

وقال مخاطبا كلوتشكوف وهو ينظر نظرة وحشية من تحت الشعر المتهدل على جبينه :

— لى عندك رجاء . اصنع معروفا ، اعرنى فتاتك الرائعة لمدة ساعتين ! اننى ارسم لوحة ، ولا أستطيع ابدا بدون موديل !

فقال كلوتشكوف موافقا :

— أوه ، بكل سرور ! اذهبي يا أنيوتا .

فدمدمت أنيوتا بصوت خافت :

— وما الذى لم أره هناك !

— طيب ، كفى ! انه يطلبك من اجل الفن ، وليس من اجل تفاهات . فلماذا لا تساعدينه اذا كان في وسعك ؟

وأخذت أنيوتا ترتدي ثيابها .

وسأله كلوتشكوف :

— وماذا ترسم ؟

— بسيشه * . موضوع جيد ، ولكنى لا أوفق فى رسمه ؛ مضطر الى الرسم من موديلات مختلفة . بالامس رسمت واحدة بسيقان زرقاء . سألتها لماذا ساقاك زرقاوان ؟ فقالت : لأن الجورب يبهت . وأنت ، ما زلت تستظهر ؟ يالك من سعيد ، لديك صبر .

— الطب شيء لا يمكن ان تحصله بدون استظهار .

— هم . . لا مؤاخذة يا كلوتشكوف ، ولكنك تعيش عيشة فظيعة ، كالخنازير ! الشيطان يعلم كيف تعيش !

— ماذا تقصد ؟ لا يمكن ان اعيش بصورة اخرى . . . انا لا أتلقى من والدي الا اثني عشر روبلا فى الشهر ، وبهذه النقود يستحيل ان تعيش عيشة لائقة .

فقال المصور وهو يمتعض باشمئزاز :

— هذا مفهوم . . . ومع ذلك من الممكن ان تعيش أفضل . . .الشخص الراقى ينبغى ان يكون محبا للجمال . أليس كذلك ؟ اما هنا فالشيطان يعلم ماذا لديك ! الفراش غير مرتب ، وهذه الزبالة والقاذورات . . وعصيدة الامس ما زالت فى الطبق . . . اخص !

فقال طالب الطب محرجا :

---

* فى الاساطير اليونانية هى تجسيد للروح البشرية فى صورة فتاة فاتنة الجمال ، بجناحي فراشة . **المعرب** .

— هذا صحيح . ولكن أنيوتا لم تتمكن اليوم من تنظيف الغرفة . فهي مشغولة طوال الوقت .

وعندما خرج المصور وأنيوتا استلقى كلوتشكوف على الكنبة ومضى يستظهر وهو راقد ، ثم غافله النعاس . وحينما استيقظ بعد ساعة وضع رأسه بين قبضتيه واستغرق فى التفكير عابسا . تذكر ما قاله المصور من أن الانسان الراقى ينبغى أن يكون محبا للجمال ، فبدا له جو الغرفة الآن بغيضا ومنفرا بالفعل . وكأنما رأى بعين العقل مستقبله حين يستقبل الزبائن المرضى فى غرفة المكتب ، ويشرب الشاى فى غرفة الطعام الواسعة بصحبة زوجته ، المرأة المحترمة . . فأصبح هذا الوعاء ، بماء الغسيل القذر الذى تسبح فيه اعقاب السجائر كريه المنظر الى حد لا يعقل . وبدت له أنيوتا ايضا قبيحة ، مهملة الثياب ، بائسة . . . فقرر أن يفترق عنها على الفور ، مهما كان الأمر .

وحينما عادت من عند المصور وخلعت معطفها ، نهض وقال لها بجدية :

— اسمعي يا عزيزتى . . اجلسي واصغي اليّ . ينبغي أن نفترق ! باختصار انا لا أريد ان أعيش معك بعد الآن .

عادت أنيوتا من عند المصور متعبة منهكة . ومن طول الوقوف كموديل ضمر وجهها وهزل فأصبح ذقنها أكثر حدة . ولم تقل شيئا ردا على كلمات طالب الطب ، بل فقط ارتعشت شفتاها .

وقال طالب الطب :

— على أية حال كنا سنفترق عاجلا ام آجلا . انت فتاة جيدة ، طيبة . انت لست غبية فسوف تفهمين . . .

ارتدت أنيوتا المعطف ثانية ، ولفت تطريزها بورقة في صمت ، وجمعت الخيوط والابر . ووجدت اللفة ذات قطع السكر الاربع على النافذة ، فوضعتها على الطاولة بجوار الكتب .

— هذا . . سكرك . . . — قالت بصوت خافت واستدارت لتخفى دموعها .

وسألها كلوتشكوف :

— طيب ، ولماذا تبكين ؟

وتمشى في الغرفة محرجا ثم قال :

— حقا انت غريبة . . انك تدركين اننا لا بد ان نفترق . لا يمكن ان نبقى معا الى الابد .

كانت قد جمعت كل صررها الصغيرة ، واستدارت نحوه لكى تودعه ، فشعر بالشفقة عليها .

وقال في نفسه : «ربما أدعها تبقى اسبوعا آخر هنا ؟ نعم ، بالفعل فلتبق قليلا ، وبعد اسبوع آمرها أن تذهب» .

وصاح بها بصرامة ، محنقا من ضعف ارادته :

— ما لك واقفة ! اذا كنت ستذهبين فلتذهبي ، واذا لم تشائى فلتخلعى المعطف ولتبقي ! ابقي !

خلعت أنيوتا المعطف في صمت وسكون ، ثم تمخطت ايضا بسكون ، وتنهدت ، واتجهت دون صوت الى موقعها الدائم : الى المقعد بجوار النافذة .

وشد الطالب كتابه اليه وراح يسير من جديد من ركن الى ركن . واخذ يستظهر :

— الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص . الفص

العلوى عند الجدار الأمامى للصدر يصل الى الضلع الرابع والخامس . . .

وصاح أحدهم فى الطرقة بأعلى صوته :

— يا جريجورى ، هات شايا !

١٨٨٦

نزهة

ساعة الظهر فى يوم شتائى صحو . . . الصقيع شديد قارس ، وحبات الجليد الفضية تكسو خصلات فودى «نادنكا» * والزغب فوق شفتها العليا . انها تتأبط ذراعى ، ونحن واقفان فوق تل مرتفع . ويمتد من اقدامنا حتى الارض شريط منحدر تشرق عليه الشمس كأنما تطل فى مرآة . وبجوارنا زحافة صغيرة ، مكسوة بالجوخ الاحمر القانى .

وأتوسل اليها :

— فلنتزحلق الى أسفل يا ناديجدا بتروفنا ! مرة واحدة أرجوك ! أؤكد لك أننا سنصل سالمين دون أذى !

ولكن نادنكا خائفة . وتبدو لها المسافة من قدميها الصغيرتين حتى نهاية التل الجليدى هوةً مرعبة لا قرار لها . وتحتبس أنفاسها وتلهث بمجرد ان تنظر الى أسفل ، بمجرد ان أعرض عليها الجلوس فى الزحافة ، فماذا سيحدث اذن لو انها غامرت بالقفز الى الهوة ! ستموت فورا او تُجن .

---

* «نادنكا» و «ناديا» تدليل من الاسم الكامل «ناديجدا» . المعرب .

واقول لها :

— أتوسل اليك ! لا داعى للخوف ! فلتفهمى ، ان هذا ضعف ، جبن !

وأخيرا ترضخ نادنكا ، فأرى فى وجهها أنها ترضخ مخاطرةً بحياتها . وأجُلسها فى الزحافة وهى شاحبة مرتجفة ، وأطوقها بذراعى ، وأرتمى معها فى الهوة .

تطير الزحافة كالرصاصة . ونشق الهواء فيلفحنا فى وجهينا ، ويعول ، ويصفر فى آذاننا ويعربد ، ويخزنا بألم من شدة الغضب ، ويريد أن ينتزع رأسينا من اكتافنا . ومن شدة ضغط الريح لا نقوى على التنفس . يبدو وكأن الشيطان نفسه قد طوقنا بيديه وأخذ يشدنا الى الجحيم وهو يزأر . وتندمج الاشياء المحيطة بنا فى شريط طويل سريع راكض . . . ويخيل الينا أننا الآن ، بعد لحظة ، سنلقى حتفنا !

وأقول بصوت خافت :

— احبك يا ناديا !

وتقل سرعة الزحافة شيئا فشيئا ، ولا يعود زئير الريح وأزيز قضبان الزحافة يبدوان مخيفين ، وتكف الانفاس عن الاحتباس ، وأخيرا نجد أنفسنا عند أسفل التل . أما نادنكا فبين الحياة والموت . انها شاحبة ، لا تكاد تتنفس . . . وأساعدها على النهوض .

— لن اتزحلق مرة اخرى ابدا ، — تقول وهى تتطلع اليّ بعينين واسعتين ملؤهما الرعب . — أبدا ، أبدا ! كدت أموت !

وبعد قليل تعود الى حالتها الطبيعية ، وترمقنى بنظرات متسائلة : أهو انا الذى قلت تلك الكلمات الثلاث ، أم

خيل اليها أنها سمعتها فى صخب الاعصار ؟ أما أنا فأقف بجوارها أدخن ، واتفحص قفازى باهتمام .

وتتأبط ذراعى ، ونتنزه طويلا بجوار التل . يبدو ان اللغز يحيرها . هل قيلت تلك الكلمات أم لا ؟ نعم أم لا ؟ نعم ام لا ؟ انها قضية كرامة ، شرف ، حياة ، سعادة ، قضية هامة جدا ، أهم قضية فى الدنيا . وتتطلع نادنكا الى وجهى بلهفة ، وحزن ، بنظرة ثاقبة ، وترد بغير ما اسأل ، وتنتظر هل سأبدأ انا الحديث . أوه ، ياله من صراع يرتسم على هذا الوجه الرقيق ، ياله من صراع ! وأرى كيف تغالب نفسها ، تريد ان تقول شيئا ما ، تريد ان تسأل عن شيء ما ، لكنها لا تجد الكلمات المناسبة ، وتشعر بالحرج ، والرهبة ، وتعوقها الفرحة . . .

وتقول دون ان تنظر اليّ :

— أتدرى ؟

فأسألها :

— ماذا ؟

— هيا مرة أخرى . . . نتزحلق .

نصعد سلما الى التل . ومن جديد أجلس نادنكا الشاحبة المرتجفة فى الزحافة ، ومن جديد نطير الى الهوة الرهيبة ، ومن جديد تزأر الريح وتئز القضبان ، ومن جديد ، وفى قمة طيران الزحافة وصخبها ، أقول بصوت خافت :

— أحبك يا نادنكا !

وحينما تتوقف الزحافة تلقى نادنكا نظرة على التل الذى انحدرنا من عليه لتونا ، ثم تتفحص وجهى طويلا ، وتصغى الى صوتى اللامبالى المحايد ، وتنطق كلها ، حتى موفتها

وقلنسوتها ، وهياتها كلها ، بالدهشة البالغة . وعلى وجهها قد كتب :

«ما الامر ؟ من الذى تفوه بتلك الكلمات ؟ هو ، أم ان ذلك خيل اليّ ؟»

ويقلقها هذا المجهول ويخرجها عن صبرها . ولا ترد الفتاة المسكينة على اسئلتى ، وتعبس وهى توشك على البكاء . وأسألها :

— هلا عدنا الى البيت ؟

فتقول وهى تتضرج :

— ولكنى . . أنا يعجبنى هذا التزحلق . ألا نتزحلق مرة أخرى ؟

«يعجبها» هذا التزحلق ، بينما يشحب وجهها وترتعش ، وتحتبس انفاسها خوفا كما فى المرتين السابقتين عندما تجلس فى الزحافة .

نهبط للمرة الثالثة ، وأراها تحدق فى وجهى وتراقب شفتيّ . فأضع منديلا على فمى وأسعل ، وعندما نبلغ منتصف التل أتمكن من الهمس :

— أحبك يا ناديا !

ويظل اللغز لغزا ! وتصمت نادنكا وهي تفكر في شيء ما . . . وأمضى لأوصلها من ميدان التزحلق الى بيتها ، فتتعمد هى أن تسير على مهل ، وتبطئ من خطواتها ، وطوال الوقت تنتظر ان أقول لها تلك الكلمات . وأرى كيف تتعذب روحها ، وكيف تغالب نفسها لكى لا تقول :

«لا يمكن ان تكون الريح هى التى قالتها ! كما أننى لا أريد ان تكون الريح هى التى قالتها !»

في صباح اليوم التالي اتلقى رسالة قصيرة : «اذا كنت تنوي الذهاب اليوم الى ميدان التزحلـــــق ، مر عليّ . ــــ ن .» . ومنذ ذلك اليوم وأنا اذهب مع نادنكا يوميا الى ميدان التزحلق ، وعندما نهوى بالزحافة الى أسفل ، أقول فى كل مرة بصوت خافت نفس الكلمات :

ــ احبك يا ناديا !

وسرعان ما تتعود نادنكا هذه الجملة ، كما يتعود المرء الخمر او المورفين . ولا تستطيع ان تحيا بدونهـا . صحيح أنها ظلت تخاف الهبوط من التل ، ولكن الخوف والخطر أصبحا يضفيان سحرا خاصا على كلمات الحب ، هذه الكلمات التى بقيت كما كانت لغزا يثير الأشجان . والشك ما زال محصورا فى اثنين : أنا والريح . . . من منا الذى يبوح لها بحبه . . انها لا تعرف ، ولكن يبدو ان الامر أصبح بالنسبة لها سيان . لا يهم من اى وعاء تشرب ، المهم ان تصبح ثملا .

وذات مرة ، ذهبت فى الظهر الى ميدان التزحلق وحدى . وعندما اختلطت بالحشد ، رأيت نادنكا تقترب من التل وهى تبحث عنى بعينيها . . . ثم ارتقت السلم فى وجل . . . كم هو مرعب أن تتزحلق وحدها ، أوه كم هو مرعب ! انها شاحبة بلون الثلج ، وترتجف ، تمضى وكأنما تساق الى ساحة الاعدام ، ولكنها تمضى ، باقدام وحزم . يبدو انها قررت أخيرا أن تجرب : ترى هل ستسمع تلك الكلمات الحلوة المدهشة وأنا غير موجود ؟ وأراها وهى تركب الزحافة ، شاحبة ، مفغورة الفم من الرعب ، وتغمض عينيها ، وتودع الارض الى الابد ، وتنطلق من مكانها . . .

وتئز قضبان الزحافة : «ز—ز—ز» . ترى هل تسمع نادنكا تلك الكلمات ؟ لست أدرى . . . أرى فقط أنها تنهض من الزحافة منهكة ، خائرة . ويبدو من وجهها انها هى نفسها لا تدرى هل سمعت شيئا ام لا . فقد سلبها الخـــــوف وهى تهوى الى اسفل القدرة على السمع وتمييز الاصـــوات والفهم . . . .

وها هو شهر مارس ، شهر الربيع ، يأتى . . . وتصبح الشمس اكثر رقة . ويميل لون تلنا الجليدى الى القتامة ، ويفقد بريقه ، وأخيرا يذوب . ونكف عن التزحلق . ولا يعود لدى نادنكا المسكينة مكان تسمع فيه تلك الكلمات ، بل وليس هناك من يقولها ، لأن الريح لم تعد تسمع ، أما أنا فأستعد للسفر الى بطرسبرج لمدة طويلة ، وربما الى الأبد .

وذات مرة ، قبل سفرى بحوالى يومين ، كنت جالسا فى الحديقة ساعة الغسق . وكان هناك سور مرتفع بمسامير يفصل هذه الحديقة عن الفناء الذى يقع فيه بيت نادنكا . . . كان الجو لا يزال باردا ، والثلج لم يذب كله تحت السماد ، والاشجار ميتة ، ولكن روائح الربيع انتشرت فى الجو ، والغربان تصيح بصخب وهى تأوى الى النوم . اقتربت من السور ورحت انظر طويلا فى الشق . ورأيت نادنكا تخرج الى درج المدخل ، وتتطلع الى السماء بنظرة حزينة ملتاعة . . . وتلفح رياح الربيع وجهها الشاحب المكتئب . . . وتذكرها بتلك الريح التى كانت تزأر آنذاك فى وجهينا فوق التل حينما سمعت تلك الكلمات الثلاث ، فيصبح وجهها حزينا حزينا ، وتتدحرج على خدها دمعة . . . وتمد الفتاة المسكينة

ذراعيها ، كأنما تسأل هذه الريح أن تحمل اليها مرة أخرى تلك الكلمات . فأنتظر دفقة ريح وأقول بصوت خافت :

— احبك يا ناديا !

يا الهى ، ماذا جرى لنادنكا ! انها تصرخ وتبتسم بوجهها كله ، وتمد ذراعيها لملاقاة الريح ، متهللة ، سعيدة ، فى غاية الجمال .

وانصرف لأرتب حقائبى . . .

كان ذلك منذ زمن بعيد . أما الآن فنادنكا متزوجة . زوجوها او تزوجت — هذا سيان — من سكرتير مجلس وصاية النبلاء ، ولديها ثلاثة أطفال . ولكنها لم تنس كيف كنا نذهب فى الماضى الى ميدان التزحلق ، وكيف حملت الريح اليها كلمات «احبك يا ناديا» . أصبح هذا بالنسبة لها الآن أسعد وأرق وأروع ذكرى فى الحياة . . .

أما أنا الآن ، وبعد أن صرت اكبر ، فلا أفهم لماذا قلت تلك الكلمات ، ولأى غرض كنت أمزح . . .

١٨٨٦

أجافيا

عندما كنت أعيش فى ناحية «س» ، كثيرا ما كنت أتردد على مزارع الخضروات فى دوبوفو ، والتى يحرسها سافا ستوكاتش ، أو كما كان يدعى ببساطة : سافكا . كانت هذه المزارع أحب مكان اليّ للقيام بما يسمى صيد السمك «العمومى» ، عندما لا تعرف ، بعد أن تغادر البيت ، اليوم او الساعة التى سترجع فيها ، وتأخذ معك كل معدات الصيد عن آخرها وتتزود بالمؤونة . وفى الواقع لم يكن صيد السمك هو الذى يهمنى ، بقدر ما هو التسكع بلا هموم ، والأكل فى غير وقته ، والحديث مع سافكا ، والمواجهات الطويلة مع ليالى الصيف الهادئة . كان سافكا فتى فى حوالى الخامسة والعشرين ، فارع القامة ، جميلا ، قويا كالحجر الصوّان . واشتهر كشخص عاقل فهيم ، وكان متعلما ، لا يشرب الفودكا الا نادرا ، ولكن هذا الفتى الشاب القوى كان لا يساوى ، كعامل ، مليما خردة . فالى جانب القوة ، تمدد فى عضلاته المفتولة كالحبال كسل ثقيل لا يقهر . وكان يعيش مثله مثل الآخرين فى القرية ، فى بيته الخاص ، ويملك قطعة أرض ، لكنه لم يكن يحرث او يبذر ولم يشتغل باية حرفة . وكانت أمه العجوز

تتسول ، وهو ذاته كان يحيا كطيور السماء : لا يعرف صباحا ماذا سيأكل ظهرا . ولم تكن المسألة ترجع الى ضعف ارادته وطاقته ، او عدم اشفاقه على أمه ، وانما ببساطة كان لا يحس بالرغبة فى العمل ولا يدرك فائدته . . . كانت هيأته كلها تنضح بخلو البال ، وبرغبة موروثة ، كرغبات الفنانين ، فى العيش دون عناء ، وباهمال . وعندما كان جسد سافكا الفتيّ القوى يحن فسيولوجياً الى العمل العضلى كان الشاب ينهمك كلية فى عمل حر ولكنه تافه ، مثل سنّ أوتاد لا حاجة اليها البتة ، او التسابق فى الجرى مع نساء القرية . اما أحب وضع اليه فكان الوقوف بلا حراك مستغرقا فى التفكير . وكان بوسعه ان يقف ساعات طويلة فى مكانه دون حركة محدقا فى نقطة واحدة . وكان لا يتحرك الا بدافع الالهام ، وفقط عندما تتاح له فرصة الاتيان بحركة سريعة قصيرة : كأن يقبض على ذيل كلب راكض ، او ينتزع منديلا من على رأس فلاحة ، او يقفز فوق حفرة واسعة . ومن الطبيعى ، مع هذا البخل فى الحركة ، أن يكون سافكا عاريا كوليد ، وان يحيا اسوأ من أى عازب عجوز . وبمرور الوقت كان لا بد أن تتراكم عليه الديون ، فأرسله مجمع القرية ، وهو الشاب القوى ، الى وظيفة يقوم بها الشيوخ ، ليعمل حارسا وفزّاعة طيور فى مزارع الخضروات العامة . ورغم كل السخريات التى تعرض لها بشأن شيخوخته المبكرة ، لم يعر الامر أدنى اهتمام . فهذه الوظيفة الهادئة المناسبة للتأمل الجامد كانت جد ملائمة لطبعه .

وقد تصادف أن ذهبت الى سافكا هذا فى احدى

امسيات شهر مايو الجميلة . واذكر انى تمددت على دثار ممزق مهترئ مباشرة بجوار الخص ، الذى كانت تتصاعد منه رائحة اعشاب جافة قوية خانقة . توسدت ذراعىّ ورحت انظر أمامى . كانت هناك مذراة خشبية ملقاة عند قدميّ . ومن خلفها كانت تخز العين بقعة سوداء هى «كوتكا» . . كلب سافكا الصغير . وعلى بعد ذراعين لا اكثر من «كوتكا» انشقت الارض عن شاطئ شديد الانحدار لنهر صغير . لم اكن أستطيع ان أرى النهر من مرقدى . لم أر غير قمم صفصافات كثيفة على هذا الشاطئ ، وحافة الشاطئ الآخر المتعرجة وكأنها مقضومة . وبعيدا وراء الشاطئ ، وعلى رابية معتمة تلاصقت كحجلات مذعورة بيوت القرية التى كان يعيش فيها صاحبى سافكا . ومن خلف الرابية كانت أضواء المغيب تتلاشى . ولم يبق الا شريط أحمر شاحب ، وحتى هذا فقد أخذت تغلفه سحب صغيرة ، كما يغلف الرماد الجمرات .

وعلى يمين المزارع لاح حرش أشجار حور رومى معتمة وهى تهمس بحفيف خافت وتنتفض من هبات الريح العابرة ، وعلى اليسار امتد حقل لا يحده البصر . وهناك ، حيث لم يكن بوسع العين ان تميز فى الظلام الحقل عن السماء ، تراقص ضوء ساطع . وغير بعيد عنى جلس سافكا . كان يجلس القرفصاء وقد دلى رأسه ، وهو ينظر الى «كوتكا» مستغرقا . كنا قد وضعنا سنانيرنا فى النهر منذ وقت بعيد ، ولم يعد لدينا ما نفعله سوى الاستسلام للراحة التى كان يحبها سافكا المستريح دوما ، الذى لم يجهد نفسه ابدا . ولم يكن شفق المغيب قد تلاشى تماما ، بينما نشر ليل

الصيف على الطبيعة رقته الناعمة المخدرة .

سكن كل شيء فى بداية نوم عميق ، اللهم الا طائر ليلى غير معروف لى اخذ يطلق فى الحرش بكسل صوتا طويلا مؤلفا من مقاطع ، يشبه عبارة «هل رأيت نيـ-كيـ-تا ؟» وعلى الفور يرد على نفسه : «رأيت ! رأيت ! رأيت !»

وسألت سافكا :

— لماذا لا تصدح البلابل الليلة ؟

فاستدار نحوى ببطء . كانت تقاطيع وجهه كبيرة ، ولكنها صافية ، معبرة وناعمة كتقاطيع وجه المرأة . ثم تطلع بعينيه المستكينتين المستغرقتين الى الحرش ، ثم الى الصفصافات ، واخرج من جيبه ببطء زمارة ، ودسها فى فمه ، وصفر كالبلبل . وعلى الفور ، وكأنما ردا على صفيره ، نقَّر طائر التفلق البرى على الشاطئ الآخر .

وضحك سافكا ضحكة قصيرة :

— اليك بلبلا . . . انظر كيف ينقر : قر-قر ، قر-قر ! كأنه يشد ترباسا وتراه يظن أنه يغنى .

فقلت له :

— يعجبنى هذا الطائر . أتدرى ؟ التفلق اثناء الهجرة لا يطير ، بل يجرى على الارض . لا يطير الا فوق الانهار والبحار ، وفيما عدا ذلك يسير .

فتمتم سافكا وهو ينظر باحترام ناحية التفلق الصارخ :

— يا سلام يا ملعون . . .

ولما كنت أعرف شغف سافكا بسماع الاحاديث فقد رويت له كل ما أعرفه من كتب الصيد عن التفلق البرى .

وانتقلت من التعلق الى هجرة الطيور . وكان سافكا يصغى اليّ بانتباه دون ان تطرف عيناه ، وهو يبتسم طول الوقت من المتعة .

وسألني :

— أية ناحية أعز على الطيور ؟ ناحيتنا أم الاخرى ؟

— ناحيتنا طبعا . فالطائر يولد هنا ، وهنا يربى اولاده . هنا موطنه ، وهو يطير الى هناك فقط حتى لا يتجمد من البرد .

فقال سافكا وهو يتمطى :

— عجيبة ! كل ما حولنا عجيب . فسواء طائر ، أم انسان . . أو خذ مثلا هذا الحجر . . فى كل شىء حكمة ! . . آه لو كنت أدرى أنك ستأتى يا سيدى لما سمحت للمرأة ان تحضر اليّ الليلة . . . فقد طلبت واحدة ان تأتى الليلة . . .

فقلت له :

— خذ راحتك ، لن أزعجك ! استطيع أن أنام فى الحرش . . .

— وهل هذا كلام ! ما كانت لتموت لو جاءت غدا . . . لا بأس لو أنها جلست تستمع الى الاحاديث ، ولكنها فقط تجلس ولعابها يسيل . لا يمكن ان تتحدث فى حضورها كما ينبغى .

وصمت قليلا ثم سألته :

— هل تنتظر داريا ؟

— لا . . . هذه المرة واحدة أخرى طلبت أن تأتى . . . أجافيا ستريلتشيخا . . .

قال سافكا ذلك بصوته العادى ، الخالى من العاطفة ، الخافت قليلا ، وكأنما كان يتحدث عن التبغ او العصيدة ، أما أنا فقد انتفضت من الدهشة . كنت أعرف أجافيا ستريلتشيخا . . . لقد كانت امرأة شابة تماما ، فى حوالى التاسعة عشرة او العشرين ، وقد تزوجت منذ ما لا يزيد عن عام من عامل تحويلة بالسكك الحديدية ، وهو فتى شاب ، مهيب الطلعة . وكانت تعيش فى القرية ، أما زوجها فكان يأتى من عمله كل ليلة ليبيت عندها .

وقلت متنهدا :

— حكاياتك هذه مع النساء ستنتهى نهاية سيئة يا أخى !

— فليكن . . .

وفكر سافكا قليلا ثم أضاف :

— أنا قلت لهن ، ولكنهن لا يسمعن الكلام . . . هؤلاء الحمقاوات لا يكفيهن ما هنّ فيه من مصائب ! . .

وحلت فترة صمت . . . وفى تلك الاثناء كان الظلام قد ازداد حلكة ، وفقدت الاشياء ملامحها المميزة . وانطفأ الشريط وراء الرابية ، بينما ازدادت النجوم سطوعا واشعاعا . . . ولم يعكر من صفو السكون الليلى صرير الجنادب الرتيب اللامبالى او نقر التفلق او صياح السمان ، بل على العكس ، أضفى عليه مزيدا من الرتابة . وبدا أن ما يردد هذه الاصوات الخافتة ويسحر الاسماع ليست هى الطيور او الحشرات ، بل النجوم التى كانت تتطلع الينا من السماء . . .

وكان سافكا أول من قطع حبل الصمت . حول نظره ببطء من «كوتكا» اليّ ثم قال :

— أرى يا سيدى انك تضجر . هيا نتعشى .

ودون ان ينتظر موافقتى زحف على بطنه داخل الخص ، وبحث هناك فانتفض الخص كله كورقة شجرة ، ثم عاد زحفا ووضع أمامى الفودكا التى أحضرتها أنا وصحفة من الفخار . كان فى الصحفة بيض مشوى وشطائر من الجودار بدهن الخنزير ، وكسر خبز أسود وأشياء أخرى . . . وشربنا من كوب معوج لا يستقيم فى وقفته ، وشرعنا نأكل . . . ملح رمادى خشن ، وشطائر قذرة مدهنة ، وبيض مرن كالمطاط ، ومع ذلك فما أشهى ذلك كله !

وقلت لسافكا مشيرا الى الصحفة :

— تعيش أعزب ومع ذلك ما أكثر الخيرات لديك . . من أين تحصل عليها ؟

فدمدم سافكا بصوت كالخوار :

— النساء يحضرنها . . .

— ولماذا يحضرنها لك ؟

— هكذا . . . من باب الشفقة . . .

لم يكن الطعام وحده ، بل وملبس سافكا ايضا ، يحمل بصمات هذه «الشفقة» النسائية . ففى هذا المساء مثلا لاحظت عليه حزاما جديدا من التيل وشريطا أحمر فاقعا تدلى منه صليب نحاسى على رقبته القذرة . كنت أعرف ميل الجنس اللطيف الى سافكا ، وكنت أعرف أنه لا يرغب فى الحديث عن ذلك فلم أواصل التحقيق . فضلا عن أن الوقت لم يكن مناسبا للحديث . . . اذ ان «كوتكا» ، الذى كان يدور حولنا وينتظر فى صبر صدقاتنا ، أرهف أذنيه فجأة وأخذ يزمجر . وتناهى من بعيد صوت

طرطشة ماء متقطعة .

وقال سافكا :

— هناك شخص يعبر النهر . . .

وبعد حوالى ثلاث دقائق زمجر «كوتكا» ثانية ، وصدر عنه صوت يشبه السعال .

فصاح به صاحبه :

— هس !

وتردد فى الظلام وقع خطوات وجلة ، وظهر من الحرش شبح امرأة . وعرفتها رغم الظلام . . كانت هـــى أجافيا ستريلتشيخا . اقتربت منا متهيبة ، وتوقفت وهى تلتقط أنفاسها المبهورة . لم تكن تلهث بسبب المشى ، بقدر ما هو ، على الأرجح ، بسبب الخوف والاحساس الكريه الذى يراود كل من يخوض ليلا فى الماء . وعندما رأت بجوار الخص شخصين بدلا من شخص واحد ، ندت عنها صرخة ضعيفة ، وتراجعت خطوة الى الوراء .

وقال سافكا وهو يدس فى فمه شطيرة :

— آه . . . أهى انت !

— انا . . نعم أنا . . . — دمدمت وهى تنظر اليّ شزرا بينما سقطت من يدها لفة بها اشياء ما . — ياكوف يبلغك تحياته وأمرنى أن احمل اليك هذه . . . هنا بعض الأشياء . . .

فضحك سافكا ساخرا :

— كفى كذبا ! أى ياكوف ! لا داعى للكذب ، فالسيد يعرف لماذا جئت ! اجلسى ، ستكونين ضيفتنا .

نظرت أجافيا نحوى شزرا وجلست بتردد .

وقال سافكا بعد صمت طويل :

— ظننت انك لن تاتى الليلة . . . ما لك جالسة ؟ كلى ! أم تريدين أن تشربــى فودكا ؟

فدمدمت أجافيا :

— ما هذا الكلام ! . . وهل أنا سكيرة . . .

— اشربــى ، اشربــى . . . سيزداد قلبك حرارة . . . هيا !

ومد سافكا الى اجافيا الكوب الأعوج . فشربت الفودكا ببطء ، ولم تمز ، بل زفرت بصوت عال .

— أحضرت شيئا ما . . . — قال سافكا وهو يفك الصرة ويضفي على صوته نبرة مازحة متسامحة . — المرأة لا تستطيع ان تأتى دون أن تحضر شيئا ما . آه ، هذه كعكة ، وبطاطس . . . يعيشون فى رغد ! — زفر سافكا وهو يستدير نحوى بوجهه . — لم يبق فى القرية كلها بطاطس من الشتاء الماضى الا عندهم !

لم أر فى الظلام وجه أجافيا ، ولكن خيل اليّ من حركة كتفيها ورأسها أنها لا تحول عينيها عن وجه سافكا . وحتى لا أكون ثالث اثنين فى موعد غرام فقد قررت أن أمضى لأتنزه ، ونهضت . بيد انه فى تلك اللحظة صدح بلبل فى الحرش فجأة بصوت رنان . وبعد نصف دقيقة أطلق نقرا خفيفا كقرع الطبول ، وبعد أن جرّب صوته بهذه الطريقة ، بدأ يشدو . وقفز سافكا واقفا وأصاخ السمع . وقال :

— انه بلبل الأمس ! طيب مهلا ! . .

واندفع راكضا نحو الحرش بخطوات لا تسمع .

فصحت فى اثره :

— ما لك وما له ؟ دعه !

فأشاح بيده ، كأنما يقول : لا تصرخ ، واختفى في الظلام . كان بوسع سافكا عندما يشاء أن يصبح قناصا او صياد سمك رائعا ، ولكن مواهبه فى هذه الحالة ايضا كانت تتبدد هباء مثلها مثل قوته . كان كسولا ازاء الأعمال العادية ، أما كل ولعه بالصيد فكان يسخره لحيل تافهة . فهو مثلا لا يصطاد البلابل الا بيده ، ويطلق أعيرة الرش الرفيع على سمك الكراكى ، ويقف أحيانا ساعات طويلة فى النهر وهو يحاول بكل جهده أن يصطاد سمكة صغيرة بشص كبير .

وعندما أصبحنا وحدنا سعلت أجافيا سعلة خفيفة ومرت بيدها على جبينها عدة مرات . . . لقد بدأت تسكر من الفودكا التى شربتها .

وبعد صمت طويل ، وعندما أصبح السكوت اكثر من ذلك محرجا ، سألتها :

— كيف الحال يا أجاشا * ؟

— الحمد لله — ثم اضافت فجأة همسا : — لا تخبر أحدا يا سيدى . . .

فطمأنتها قائلا :

— لا تخشى شيئا . . . ومع ذلك يا لك من شجاعة يا أجاشا . . . ماذا لو عرف ياكوف ؟

— لن يعرف . . .

---

* اجاشا — تدليل من الاسم الكامل اجافيا . **المعرب** .

— وإذا عرف ؟
— كلا . . . سأكون فى المنزل قبل أن يصل . انه الآن على الخط ، ولن يعود قبل مرور قطار البريد ، ومن هنا يمكن سماع القطار عندما يمر . . .

ومرت أجافيا بيدها مرة اخرى على جبينها ونظرت الى الجهة التى ذهب سافكا اليها . كان البلبل يشدو . وحلق طائر ليلى فوق سطح الارض تماما ، وعندما لمحنا انتفض ، وصفق بجناحيه ، وانطلق نحو الشاطئ الآخر للنهر .

سرعان ما صمت البلبل ، ولكن سافكا لم يعد . ونهضت أجافيا ، وخطت بضع خطوات فى اضطراب ، ثم جلست ثانية .

ولم تطق صبرا فقالت :

— ماذا دهاه ؟ القطار سيمر اليوم وليس غدا ! ينبغى ان أنصرف الآن !

وصحت أنا :

— يا سافكا ! يا سافكا !

ولم يرد عليّ حتى الصدى . وتململت أجافيا بقلق ، ثم وقفت ثانية .

وقالت بصوت مضطرب :

— عليّ ان انصرف ! سيمر القطار حالا ! أنا أعرف متى تمر القطارات !

ولم تخطئْ المرأة المسكينة . فلم يمر ربع ساعة الا وتردد صخب بعيد .

وصوبت أجافيا نظرة طويلة الى الحرش وحركت ذراعيها بنفاد صبر .

وقالت وهى تضحك بعصبية :

— أين ؟ الى أين حمله الشيطان ؟ سأنصرف ! نعم يا سيدى سأنصرف !

وفى تلك الاثناء ازداد الصخب وضوحا . وأصبح من الممكن تمييز دقات العجلات من زفرات القاطرة الثقيلة . وها قد تناهى صفير ، وقرقع القطار فوق الجسر قرقعة مكتومة . . . ومرت دقيقة أخرى ، ثم هدأ كل شىء .

وتنهدت أجافيا وهى تجلس بحزم :

— سأنتظر دقيقة أخرى . . . طيب ، سأنتظر !

وأخيرا ظهر سافكا فى الظلام . كان يخطو بصوت لا يسمع بقدميه الحافيتين على أرض المزرعة الرخوة وهو يدمدم بصوت خافت .

وقال وهو يضحك بمرح :

— انظر الى الحظ ، يا سلام ! ما أن اقتربت من الخميلة ، وما أن بدأت أصوب بيدى حتى سكت ! هذا الكلب الأجرب ! انتظرت وانتظرت حتى يغنى ثانية ، ثم بصقت وعدت . . .

وهوى سافكا على الارض بجوار أجافيا بحركة خرقاء ، ولكى يحفظ توازنه أمسكها من خصرها بكلتا يديه .

وسألها :

— ما لك مبوّزة كأن حماتك هى التى ولدتك ؟

كان سافكا رغم كل طيبة قلبه وسماحة روحه يحتقر النساء . كان يعاملهن باهمال وتعال ، ويتنازل الى مستوى الضحك الهازئ بأحاسيسهن تجاهه هو . ومن يدرى فربما كانت معاملة الاهمال والاحتقار هذه هى احدى اسباب سحره

القوي الذي

جميلا ، ممشوقا ، وكانت عيناه تشعان برقة هادئة حتى وهو ينظر الى النساء اللاتى يحتقرهن ، غير انه لا يمكن تفسير هذا السحر بالصفات الخارجية وحدها . فالى جانب مظهره الموفق وطريقته المميزة فى المعاملة ، كان مما له ايضا تأثيره على النساء ، فيما يبدو ، دور سافكا المؤثر كشخص سيئ الحظ وطريد بائس ، نُفي من داره الحبيبة الى المزارع .

ومضى سافكا يقول وهو لا يزال قابضا على خصر أجافيا :

— هيا قولى للسيد لأى غرض جئت ! هيا خبريه يا زوجة الزوج ! هو-هو . . . هل نشرب مزيدا من الفودكا يا صاحبتى أجاشا ؟

نهضتُ وسرتُ بحذاء المزرعة بين الخطوط المزروعة . كانت هذه الخطوط القاتمة تشبه مقابر كبيرة مبططة . وفاحت منها رائحة التربة المعزوقة ورطوبة النبات الرقيقة وقد بدأ الندى يكسوه . . . والى اليسار كان الضوء الاحمر لا يزال يومض . كان يغمز ببشاشة وكأنه يبتسم .

وسمعت ضحكات سعيدة . تلك كانت ضحكات أجافيا .

وفكرت : «والقطار ؟ لقد مر القطار منذ وقت طويل» .

وانتظرت قليلا ، ثم عدت الى الخص . كان سافكا جالسا القرفصاء بلا حراك وهو يدندن بصوت خافت لا يكاد يسمع أغنية ما تتألف من كلمات قصيرة المقاطع مثل «يا أنت ، ما أنت . . . أنا وأنت . . .» وكانت أجافيا ، وقد

سكرت من الفودكا وحنان سافكا المحتقر والليل الخانق ، ترقد بجواره على الارض وتضغط بوجهها على ركبته فى انفعال . وقد أوغلت فى احاسيسها لدرجة أنها لم تلاحظ مقدمى .

وقلت لها :

— يا أجاشا ، لقد مر القطار من فترة طويلة !

— هيا ، حان الوقت ، — قال سافكا مؤمنا على فكرتى وهو يهز رأسه . — ما لك تمددت هنا ؟ أنت يا عديمة الحياء !

وجفلت أجافيا ، ونزعت رأسها عن ركبته ونظرت اليّ ، ثم التصقت به ثانية .

وقلت :

— حان الوقت من زمان !

وتململت أجافيا ونهضت على ركبة واحدة . . . كانت تعانى . . . ولنصف دقيقة عبر جسدها كله ، بقدر ما استطعت أن أميز فى الظلام ، عن الصراع والتردد . وجاءت لحظة مدت فيها قامتها ، وكأنها أفاقت ، لكى تنهض واقفة ، ولكن قوة قاهرة عنيدة دفعتها فى بدنها كله ، فالتصقت بسافكا .

— فليذهب فى داهية !

قالت وهى تضحك ضحكة جوفية وحشية ، وتبدى فى هذه الضحكة حزم طائش وعجز وألم .

مضيت بهدوء نحو الحرش ، ومن هناك هبطت الى النهر حيث وضعنا سنانيرنا . كان النهر نائما . ولمست خدى برقة زهرة ناعمة منفوشة بساق طويلة ، كأنها طفل يريد أن يشعرك بأنه مستيقظ . ولما لم يكن لدى ما أفعله فقد

بحثت عن خيط أحدى السنانير حتى وجدته فسحبته . وتوتر الخيط قليلا ثم ارتخى . . . لم يعلق بالسنارة شيء . . . ولم يكن الشاطئ الآخر والقرية يبدوان فى الظلام . وومض ضوء فى أحد البيوت ثم سرعان ما انطفأ . وتحسست أرض الشاطئ بيدى فعثرت على الحفرة التى كنت قد لاحظتها نهارا فجلست فيها كما فى مقعد . ظللت جالسا مدة طويلة . . . ورأيت كيف بدأ الضباب يلف النجوم فتفقد بريقها ، وكيف انسابت البرودة فوق الارض كزفرة خفيفة ومست اوراق الصفصاف المستيقظ . . .

— أجا—فيا ! — تناهى من القرية صوت مكتوم . — أجافيا !

كان ذلك صوت الزوج العائد القلق وهو يبحث عن زوجته فى القرية . وفى نفس الوقت انبعث من المزرعة ضحك منطلق : كانت الزوجة غائبة عن وعيها ، ثملة ، تحاول بسعادة بضع ساعات أن تعوض العذاب الذى ينتظرها فى الغد .

ونمت . . .

وعندما استيقظت كان سافكا جالسا الى جوارى يهز كتفى هزا خفيفا . كان النهر والحرش ، وكلا الشاطئين الاخضرين المغسولين ، والاشجار والحقل . . . كان كل ذلك مغمورا بضوء الصباح الساطع . ومن بين جذوع الاشجار الرفيعة سقطت على ظهرى اشعة الشمس التى أشرقت لتوها .

وضحك سافكا ساخرا :

— أهكذا تصيد السمك ؟ حسنا ، قم !

نهضت ، وتمطيت بتلذذ ، وبدأ صدرى المستيقظ

يعب الهواء الرطب العطر بنهم .

وسألت سافكا :

— أجاشا ذهبت ؟

فأشار بيده الى النهر حيث المخاضة :

— ها هى .

نظرت فرأيت أجافيا . كانت تعبر النهر ، مشعثة ، وقد شمرت ثوبها ، وسقط المنديل عن رأسها . وكانت لا تكاد تقوى على تحريك قدميها . . .

ودمدم سافكا وهو يزر عينيه ناظرا اليها :

— تعرف القطة لحم مَنْ سرقت ! تسير وقد طوت ذيلها . . . هؤلاء النسوة شقيات كالقطط وجبانات كالأرانب . . . لم تذهب الحمقاء بالأمس عندما قلنا لها ! والآن ستلقى جزاءها ، وانا ايضا سيجرونني الى المركز . . . سأجلد ثانية بسبب النساء . . .

بلغت أجافيا الشاطئ ومضت عبر الحقل الى القرية . فى البداية سارت بخطوات جريئة ، ولكن سرعان ما تغلب عليها القلق والخوف ، فالتفتت مذعورة ، وتوقفت عن السير وهى تلتقط أنفاسها .

— طبعا لا بد ان تخافى ! — قال سافكا بسخرية حزينة وهو ينظر الى الشريط الأخضر الساطع الذى امتد خلف أجافيا فى العشب الندى . — لا ترغبين فى السير ! زوجها يقف منذ ساعة وينتظر . . . هل رأيته ؟

قال سافكا جملته الاخيرة وهو يبتسم ، أما أنا فقد تثلج قلبى . ففى القرية ، بجوار آخر بيت منها ، وقف ياكوف على الطريق وهو يحدق مباشرة فى زوجته العائدة .

لم يتحرك من مكانه وكان جامدا كالعمود . فيم كان يفكر وهو ينظر اليها ؟ وأية كلمات أعدها للقائها ؟ وقفت أجافيا قليلا ، ثم التفتت مرة أخرى كأنما تنتظر منا العون ، ثم سارت . لم أر من قبل أبدا مثل هذه المشية لا لثمل ولا لمفيق . وبدا كأن أجافيا تتلوى تحت وقع نظرة زوجها . كانت تسير تارة بخطوط متعرجة ، وتارة تراوح فى مكانها وهى تثنى ركبتيها وتشيح بيديها ، وتارة تتراجع . وبعـد أن قطعت حوالى مائة خطوة التفتت مرة اخرى ثم جلست .

وقلت لسافكا :

— هلا اختبأتَ وراء الأغصان . . . سيراك زوجها . . .

— انه على اى حال يعرف من عند مَنْ جاءت أجاشا . . النساء لا يذهبن الى المزارع ليلا لاحضار الكرنب . . هذا يعرفه الجميع .

نظرت الى وجه سافكا . كان شاحبا وقد تقلص بشفقة متقززة كتلك التى تكسو وجوه الناس عندما يرون حيوانـا يعذَّب .

وتنهد سافكا قائلا :

— الضحك للقطة ، والدموع للفأر . . .

وفجأة قفزت أجافيا واقفة ، وهزت رأسها ، ومضت نحو زوجها بخطوات جريئة . يبدو أنها استجمعت قواها وحزمت أمرها .

الذئب

كان الاقطاعى نيلوف ، وهو رجل ممتلئ ، قوى الجسم ، مشهور فى المحافظة كلها بقوته البدنية الخارقة ، عائدا من الصيد ذات مساء مع المحقق كوبريانوف ، فعرجا على الطاحونة ، عند العجوز مكسيم . وكان قد بقى على ضيعة نيلوف حوالى فرسخين فقط ، ولكن الصيادَيْن ادركهما التعب فلم يجدا ميلا الى مواصلة السير ، وقررا التوقف فى الطاحونة لاستراحة طويلة . وكان لهذا القرار ما يبرره ، خاصة وان مكسيم لديه شاى وسكر ، أما الصيادان فكانا يملكان احتياطيا لا بأس به من الفودكا والكونياك ومختلف الأطعمة المنزلية .

وبعد الأكل أخذ الصيادان يتناولان الشاى ، واتصل حبل الحديث .

وسأل نيلوف مخاطبا مكسيم :

— ماذا لديكم من جديد يا جدى ؟

فضحك العجوز ضحكة ساخرة قصيرة :

— ماذا لدينا من جديد ؟ الجديد لدينا هو انني اريد ان اطلب من جنابكم بندقية .

— وما حاجتك الى البندقية ؟

— ماذا ؟ ربما لم أكن بحاجة اليها . هذا مجرد طلب . . . للتظاهر بالاهمية . . . فعلى اية حال انا لا أرى جيدا حتى اطلق النار . الشيطان وحده يعلم من اين جاء هذا الذئب المسعور . يركض هنا لليوم الثانى . . . مساء الأمس عقر مهرا وكلبين قرب القرية ، واليوم خرجت فى الفجر فاذا به ، الملعون ، جالس تحت الصفصافة يضرب بوزه بكفه . وصحت به «امش !» ولكنه ظل يحدق فيّ كالعفريت . . . ضربته بحجر فطقطق بأنيابه وبرقت عيناه كالشموع ، وركض نحو غابة الصفصاف الرجراج . . . كدت أموت من الخوف .

فدمدم المحقق :

— الشيطان يعلم ما هذا . . . هنا ذئب مسعور يركض ، ونحن نتسكع . . .

— وماذا فى ذلك ؟ فالبنادق معنا .

— ولكنك لن تقتل الذئب بعيار رش . . .

— ولماذا تطلق النار ؟ يمكن الاجهاز عليه بكعب البندقية .

وراح نيلوف يؤكد أنه ليس هناك شيء أسهل من قتل الذئب بكعب البندقية ، وروى حادثة قضى فيها بضربة واحدة بعصا عادية على كلب مسعور ضخم هجم عليه .

فتنهد المحقق وهو ينظر بحسد الى كتفى نيلوف العريضتين :

— من السهل عليك ان تقول ذلك ! ففيك من القوة ، والحمد لله ، ما يكفى عشرة . تستطيع ان تقتل الكلب لا بالعصا بل باصبعك . أما اللسكين من أمثالنا

فالى أن يشرع فى رفع العصا ، والى أن يحدد المكان الذى يوجه اليه الضربة ، يكون الكلب قد عضه خمس مرات . ياله من شىء مزعج . . . ليس هناك مرض أشد عذابا وفظاعة من السعار . عندما رأيت انسانا مسعورا لاول مرة ظللت خمسة ايام أسير ذاهلا ، ويومها كرهت كل اصحاب الكلاب فى الدنيا . فأولا هذا المرض فظيع بوقعه المفاجئ المرتجل . . . اذ يسير الانسان سليما ، مطمئنا ، لا يفكر فى شىء ، وفجأة ، وبلا اية مقدمات يعضه كلب مسعور ! وعلى الفور تتملك الانسان فكرة فظيعة بأنه هالك لا محالة ، ولا منقذ له . . . وبعد ذلك يمكنكم أن تتصوروا الانتظار المرهق المقبض للمرض ، والذى لا يترك المعضوض لحظة واحدة . وبعد الانتظار يأتى المرض . . . أما أفظع شىء فهو أن هذا المرض لا علاج له . اذا مرضت به فقد كتب عليك الهلاك . وليس هناك فى الطب ، على قدر علمى ، حتى مجرد اشارة الى امكانيـــــــــة الشفاء .

فقال مكسيم :

— عندنا فى القرية يعالجونه ياسيدى . ميرون يستطيع أن يشفى من تريد .

فزفر نيلوف قائلا :

— هراء . . . كل ما يقال عن ميرون مجرد ثرثرة . فى العام الماضى عقر كلب مسعور ستيوبكا ، ولم يسعفه اى ميرون . . . أصيب بالسعار رغم كل ما سقاه من أشياء كريهة . كلا يا جدى ، ليس من الممكن عمل شىء . لو حدث لى ذلك ، لو عضنى كلب مسعور ، لأطلقت

على راسى رصاصة .

وكان لهذه الاحاديث الرهيبة عن السعار أثرها . اذ كف الصيادان تدريجيا عن الكلام ، وواصلا شرب الشاى فى صمت . وفكر كل منهما لاارادياً فى ان حياة الانسان وسعادته رهن بالصدف والاشياء التافهة ، الضئيلة فيما يبدو ، والتى لا تساوى ، كما يقال ، شروى نقير . وخيمت الكآبة والحزن عليهم جميعا .

وبعد تناول الشاى تمطى نيلوف ونهض . . . وأحس برغبة فى الخروج الى الهواء الطلق . وبعد أن تمشى قليلا بجوار مخزن الغلال ، فتح بابا صغيرا وخرج . كان الغسق قد غاب منذ وقت بعيد ، وحل المساء بكل أبعاده . وغاب النهر فى سبات عميق هادئ .

وعلى السد المغمور بنور القمر لم تكن هناك قطعة ظل . وفى منتصف السد لمعت كنجمة رقبة زجاجة مكسورة . وبدت عجلتا الطاحونة ، المختفيتان الى نصفيهما فى ظل صفصافة عريضة ، غاضبتين وكئيبتين . . .

وزفر نيلوف بملء رئتيه وتطلع الى النهر . . . كان كل شىء ساكنا بلا حراك . واستغرقت المياه والشاطئان فى النوم ، وحتى السمك لم يطرطش . . . بيد أنه خيل لنيلوف فجأة ان شيئا يشبه الظل قد تدحرج كالكرة السوداء على الشاطئ الآخر ، وراء خمائل الصفصاف . وزر عينيه ، فاختفى الظل ، ثم سرعان ما ظهر وتدحرج نحو السد فى خطوط متعرجة .

وهتف نيلوف فى سره : «الذئب !»

ولكن قبل أن يجول بخاطره التفكير فى ضرورة العودة

ركضا الى الطاحونة ، كانت الكرة السوداء قد تدحرجت فوق السد ليس نحوه مباشرة ، بل فى خطوط متعرجة .

وفكر نيلوف وهو يشعر بأن جلد رأسه تحت الشعر يقشعر : «اذا جريت هاجمنى من الخلف . . يا الهى ، ليس معى حتى عصا ! فلأقف فى مكانى و . . . وسأخنقه !»

وأخذ نيلوف يراقب بانتباه حركات الذئب وتعابير بدنه . كان الذئب يجرى على حافة السد ، وأصبح الآن يحاذيه . . .

وفكر نيلوف وهو لا يحول نظره عنه : «انه يمر بـى !»

بيد ان الذئب فى تلك اللحظة ، ودون ان يتطلع اليه ، أصدر كأنما بلا رغبة صوتا متحشرجا مستعطفا ، ثم حول وجهه نحوه وتوقف . وكأنما كان يفكر : هل يهاجمه أم يتجاهله ؟

وفكر نيلوف : «ينبغى أن أضربه بقبضتى فى رأسه . . . أفقده صوابه . . .»

وارتبك نيلوف الى درجة أنه لم يعرف من الذى بدأ المعركة ، هو ام الذئب ؟ أدرك فقط انه قد حلت لحظة رهيبة بصفة خاصة ، لحظة حرجة ، تتطلب منه تركيز كل قوته فى يده اليمنى والاطباق على رقبة الذئب من قفاه . وهنا وقع شيء خارق يصعب تصديقه ، شيء بدا لنيلوف ذاته أنه حلم . فقد زأر الذئب الممسوك متشكيا واندفع بقوة حتى أن طبقة جلده الباردة الرطبة ، التى اطبقت عليها يد نيلوف ، انزلقت من بين أصابعه . ووقف الذئب على ساقيه الخلفيتين محاولا ان يحرر قفاه . عندئذ أطبق نيلوف بيده اليسرى على ساقه الامامية اليمنى ، وضغط عليها تحت الابط مباشرة ، ثم نزع يده اليمنى بسرعة

من قفا الذئب واطبق بها على ابطه الأيسر ، ورفع الذئب في الهواء . جرى ذلك كله في طرفة عين . ولكي يمنع نيلوف الذئب من عضه في يديه ، ولكي لا يمكنه من تحريك رأسه ، غرز ابهامي يديه كمهمازين في رقبة الذئب عند عظمة الترقوة . . . وارتكز الذئب بساقيه الاماميتين في كتفي نيلوف ، واذ وجد بهذه الصورة نقطة ارتكاز انتفض بقوة رهيبة . لم يكن بوسعه أن يعض يدي نيلوف حتى المرفق ، كما عاقته عن مد فمه الى وجه نيلوف وكتفيه الاصبعان المغروزتان في عنقه مسببتين له ألما شديدا . . .

وفكر نيلوف وهو يدفع رأسه الى الخلف الى اقصى ما يمكن : «يا للفظاعة ! لعابه سقط على شفتي . اذن فقد هلكت حتى لو تخلصت منه بمعجزة» .

وصاح .

— الحقوني ! يا مكسيم ! الحقوني !

كان كل من نيلوف والذئب يحدقان في أعين بعضهما البعض ورأساهما على مستوى واحد . . . وقضقض الذئب بأسنانه ، وأصدر أصواتا متحشرجة ، وطرطش لعابه . . . وتخبطت ساقاه الخلفيتان بركبتي نيلوف بحثا عن نقطة ارتكاز . . ولمع القمر في عيني الذئب ، ولكن لم يبد فيهما اى ظل لغضب . كانتا تبكيان ، وبدتا أشبه بعيون بشرية .

وصاح نيلوف من جديد :

— الحقوني ! يا مكسيم !

ولكنهم في الطاحونة لم يسمعوه . كان يدرك بغريزته ان الصراخ بصوت عال قد يضعف قوته ، ولذلك كان يصرخ بصوت غير عال .

وقرر في نفسه : «سوف أتراجع بظهرى . . . وعندما أصل الى الباب سأصرخ» .

وبدأ يتراجع ، ولكنه لم يكد يقطع ذراعين حتى أحس بأن يده اليمنى تضعف وتتخدر . ثم سرعان ما جاءت اللحظة التى سمع فيها هو صراخه اليائس ، وأحس بألم حاد في كتفه اليمنى ، ولزوجة دافئة تسيل فجأة على يده كلها وصدره . ثم سمع صوت مكسيم ، وأدرك تعبير الرعب المرتسم على وجه المحقق الذى جاء ركضا . . .

ولم يفلت عدوه من قبضته الا عندما بسطوا أصابعه بالقوة واكدوا له أن الذئب قد قتل . وعاد الى الطاحونة ذاهلا تحت وطأة احاسيس قوية وهو على وشك الاغماء وقد أحس بالدم يسيل على فخذيه وفى حذائه الأيمن . وأعادته النار ومنظر السماور وزجاجات الخمر الى وعيه ، وذكرته بكل ما عاناه لتوه من رعب ، وبالخطر الذى بدأ الآن فقط يتهدده . وجلس على الزكائب شاحبا ، بحدقتين متسعتين ورأس مبلل ، وأرخى ذراعيه مرهقا . وجرده المحقق ومكسيم من ملابسه وانهمكا فى تضميد جرحه . كان جرحا كبيرا . فقد مزق الذئب جلد الكتف كلها ، بل واصاب العضلات .

وقال المحقق محتجا وهو يوقف النزيف :

— لماذا لم تلق به فى النهر ؟ لماذا لم تقذف به فى النهر ؟

— لم أفطن ! يا الهى ، لم أفطن !

وأراد المحقق ان يخفف عنه ويؤمله خيرا ، ولكن بعد تلك الالوان الصارخة التى أضفاها على السعار بسخاء

عندما وصفه من قبل ، لم يعد ثمة معنى لكلمات التسرية ، فوجد من الافضل أن يصمت . وبعد ان ضمد الجرح كيفما اتفق ، أرسل مكسيم الى الضيعة لاحضار العربة ، ولكن نيلوف لم يرغب فى انتظارها ، ومضى الى البيت سيرا على الاقدام .

وفى الصباح ، فى حوالى السادسة ، جاء الى الطاحونة شاحبا ، مشعثا ، وقد هزل من الألم والسهاد .

وقال مخاطبا مكسيم :

— يا جدى ، خذنى الى ميرون ! بسرعة ! هيا ، اجلس فى العربة .

وارتبك مكسيم ، الشاحب ايضا ، والذى لم ينم طول الليل ، وتلفت حوله عدة مرات ، ثم قال بهمس :

— لا داعى يا سيدى للذهاب الى ميرون . . . انا ايضا ، لا مؤاخذة ، استطيع أن اعالج . . .

— طيب ، لكن بسرعة أرجوك !

وراح نيلوف يخطو فى مكانه بضيق صدر . وأوقفه العجوز مديرا وجهه ناحية الشرق ، وتمتم بكلمات ما ، وقدم له كوزا به سائل دافىء كريه طعمه كالشيح ليشربه .

ودمدم نيلوف :

— ولكن ستيوبكا مات . . . لنفرض ان هناك أدوية شعبية ولكن . . . ولكن لماذا مات ستيوبكا اذن ؟ خذنى مع ذلك الى ميرون !

ومن ميرون ، الذى لم يثق به ، توجه الى المستشفى ، الى الطبيب أفتشينيكوف . وبعد أن حصل هنا على حبوب البلادونة وعلى نصيحة بملازمة الفراش ، بدّل الخيول ودون

ان يعبأ بالألم الرهيب في ذراعه ، انطلق الى اطباء المدينة .

وبعد حوالى أربعة أيام ، وفى ساعة متأخرة من المساء دخل راكضا على أفتشينيكوف ، وارتمى على الكنبة .

— يا دكتور ! — قال مختنقا وهو يمسح العرق من وجهه الشاحب المهزول بكمه . — يا جريجورى ايفانيتش ! اصنع بى ما تريد ، لكنى لا أستطيع أن أبقى هكذا بعد الآن ! اما ان تعالجنى واما أن تسقينى السم ، لكن لا تدعنى هكذا ! اتوسل اليك ! لقد جننت !

فقال افتشينيكوف :

— عليك أن تلازم الفراش .

— أوه فلتذهب بفراشك الى الشيطان ! اننى اسألك بوضوح ، بلغة روسية : ماذا أفعل ؟ أنت طبيب ويجب أن تساعدنى ! اننى اتعذب ! فى كل لحظة يخيل الىّ أننى بدأت انسعر . انا لا أنام ولا آكل ، ولا استطيع أن ازاول عملا ! ها هو المسدس فى جيبى ، وكل لحظة اخرجه لكى اطلق رصاصة على رأسى ! جريجورى ايفانيتش ، عليك ان تهتم بى ، أرجوك ! ماذا أفعل ؟ ما رأيك ، هل أذهب الى البروفيسورات ؟

— الأمر سيان . اذهب اذا أردت .

— اسمع ، ماذا لو أعلنت مسابقة أعطى فيها خمسين ألف روبل لمن يشفينى ؟ ما رأيك ، هه ؟ ولكن الى أن أعلن عنها فى الصحف ، والى أن . . . اكون قد انسعرت عشر مرات . أنا مستعد الآن أن أهب ثروتى كلها ! اشفنى وسأعطيك خمسين ألفا ! عالجنى أرجوك ! انا لا أفهم هذه اللامبالاة المحنقة من جانبك ! افهمنى ، اننى الآن

احسد كل ذبابة . . . انا تعيس ! واسرتي تعيسة !

واختلجت كتفا نيلوف ، وشرع يبكى .

فبدأ أفتشينيكوف يطيب خاطره :

— اسمع . . انا الى حد ما لا أفهم انفعالك هذا . لماذا تبكى ؟ ولماذا تهول من الخطر الى هذه الدرجة ؟ فلتفهم ، ان لديك فرصا لعدم المرض اكثر بكثير من فرص المرض . فأولا : من كل مائة معضوض لا يمرض الا ثلاثون . وعلاوة على ذلك ، وهذا مهم جدا ، فقد عضك الذئب عبر الملابس ، واذن فقد بقى السم فى الملابس . وحتى لو وصل السم الى الجرح فلا بد أن يخرج مع الدم لأنك نزفت بشدة . اننى مطمئن تماما بشأن السعار ، واذا كان هناك ما يقلقنى فهو جرحك فقط . فمع اهمالك هذا من السهل أن تصاب بالحمرة ، او بشيء من هذا القبيل .

— صحيح ؟ هل تطيب خاطرى أم تتكلم بجد ؟

— اقسم بشرفى اتكلم بجد . خذ ، اقرأ !

وتناول أفتشينيكوف كتابا من الرف ، وأخذ ، وهو يتجنب المواضع المخيفة ، يقرأ لنيلوف فصلا عن السعار .

وقال بعد أن فرغ من القراءة :

— اذن فعبثا تقلق .. زد على ذلك كله أننا لا نعلم ما اذا كان ذلك الذئب مسعورا أم سليما .

— هم . . . نعم . . . — وافق نيلوف مبتسما . — طبعا ، الآن مفهوم . اذن فكل ذلك هراء !

— طبعا هراء .

— اشكرك يا عزيزى . . . — وضحك نيلوف بمرح

وهو يفرك يديه . — أنا الآن مطمئن أيها العلامة النابه . . . انا مسرور ، بل وسعيد . . أى والله . . صحيح ، بل . . . اقسم بشرفى .

وعانق نيلوف افتشينيكوف وقبله ثلاث مرات . ثم تملكه طيش صبيانى ، الامر الذى يميل اليه بطبيعتهم الاشخاص الطيبون ، الاقوياء البدن . فالتقط من على الطاولة حدوة وأراد أن يقومها ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا وقد أنهكته الفرحة والألم فى كتفه . فاكتفى بأن طوق الدكتور اسفل خصره اليسرى وحمله على كتفه من مكتبه الى غرفة الطعام . وغادر افتشينيكوف فرحا ، سعيدا ، بل وبدا أن الدموع التى لمعت على لحيته السوداء العريضة كانت تفرح معه . وعندما هبط على الدرج ضحك بصوت غليظ وهز درابزين الدرج الخارجى بقوة ، حتى ان احدى خشباته انخلعت ، بينما اهتز الدرج الخارجى كله تحت اقدام أفتشينيكوف .

وقال افتشينيكوف فى سره وهو يحدق فى ظهر نيلوف العريض : «يا له من عملاق ! يا له من جدع !»

وعندما جلس نيلوف فى العربة بدأ يحكى مرة أخرى ومن البداية وبكل التفاصيل صراعه مع الذئب فوق السد . وأنهى روايته ضاحكا :

— يا له من صراع ! سيكون هناك ما اتذكره فى الشيخوخة . أسرع يا تريشكا !

١٨٨٦

السعيد

من محطة «بولوجويه» فى خط سكك نيقولاى الحديدية يتحرك قطار ركاب . وفى احدى عربات الدرجة الثانيـة «للمدخنين» يجلس حوالى خمسة ركاب ناعسين ، ملتفين بغبش العربة . لقد أكلوا لتوهم ، وها هم يحاولون النوم وقد أسندوا رؤوسهم على مساند الأرائك . ويخيم السكون .

ويفتح الباب ، وتدلف الى العربة قامة طويلة ، على هيئة عصا ، فى قبعة حمراء ومعطف أنيق ، يشبه الى حد كبير معاطف ممثلى الاوبريتات ومراسلى جول فيرن * .

تتوقف القامة وسط العربة وهى تزحر ، وتزر عينيها طويلا متفحصة الأرائك .

وتدمدم :

— لا ، وهذه ايضا ليست هى ! الشيطان يعلم ما هذا ! شيء يغيظ ! كلا ، ليست هى !

ويحدق أحد الركاب فى القامة ، وتند عنه صيحة فرح :

---

* ربما يشير الكاتب الى بطل رواية جول فيرن «الجزيرة المسحورة» هيدسون سبليت ، مراسل جريدة «نيويورك هيرالد» . وقد صدرت أول ترجمة لها الى الروسية فى بطرسبرج عام ١٨٧٥ . **المعرب** .

— ايفان اليكسييفتش ! ما هذه الصدف ؟ أهو أنت ؟

ينتفض ايفان اليكسييفتش العصوي ، ويحدق في الراكب ببلادة ، وعندما يتعرف عليه يشيح بيديه في مرح . ويقول :

— ها ! بيوتر بتروفتش ! من زمان لم نرك ! لم أكن أعرف انك مسافر في هذا القطار .

— كيف الصحة ؟ والاحوال ؟

— لا بأس ، ولكني يا أخي فقدت عربتي ولا أستطيع أن أجدها ، يا لي من غبي ! استحـــــق الجلد !

ويترنح ايفان اليكسييفتش العصوى ويهأهئ ثم يقول :

— يا لها من حوادث ! خرجت من العربة بعد الجرس الثاني لأشرب كونياكا . وشربت طبعا . وقلت لنفسى : ما دامت المحطة التالية بعيدة فلأشرب كأسا أخرى . وبينما كنت أفكر وأشرب دق الجرس الثالث . . . جريت كالمجنون وقفزت في اول عربة صادفتني . حسنا ، ألست غبيا ؟ ألست أحمق ابن احمق ؟

ويقول بيوتر بتروفتش :

— واضح ان مزاجك عال . تفضل بالجلوس . يحصل لنا الشرف !

— لا ، لا . . . سأبحث عن عربتي . الى اللقاء !

— الدنيا عتمة ، وقد تسقط ، لا قدر الله ، بين العربات . اجلس معنا ، وعندما نصل الى المحطة ستجد عربتك . اجلس !

ويتنهد ايفان اليكسييفتش ويجلس بتردد في مقابل

بيوتر بتروفتش . ويبدو أنه منفعل . ويتململ بقلق كأنه جالس على جمر .

ويسأله بيوتر بتروفتش :

— الى أين تسافر ؟

— أنا ؟ الى الفضاء . فى رأسى زحام كبير حتى أني لا أعرف الى أين أسافر . القدر يسير بـى ، حسنا فلأسافر ، ها—ها . . . هل رأيت يا عزيزى حمقى سعداء ؟ كلا ؟ حسنا ، انظر ! . . أمامك أسعد الأحياء ! نعم ! ألا تلاحظ شيئا فى وجهى ؟

— ألاحظ انك . . يعنى . . مبسوط . . قليلا .

— لا بد أن وجهى الآن يبدو غبيا بفظاعة ! آه ، يا للأسف ، لا توجد مرآة ، لكى اتطلع الى سحنتى ! اشعر يا أخى اننى اتحول الى أبله . أى والله ! ها—ها . . تصور أننى أقوم برحلة شهر العسل . حسنا ، ألست أحمق ابن أحمق ؟

— أنت ؟ هل تزوجت حقا ؟

— اليوم يا عزيزى ! عقدت قرانى وركبت القطار فورا .

وبدأت التهانى والأسئلة المعتادة .

ويضحك بيوتر بتروفتش :

— يا سلام . . . لهذا فأنت أنيق هكذا .

— نعم . . بل وتعطرت ايضا لتكتمل الصورة . غرقت الى أذنى فى الامور التافهة ! لا هموم ، لا أفكار ، بل فقط احساس بشىء يشبه . . . الشيطان يعلم كيف أسميه . . . ربما النعيم ؟ لم أشعر فى حياتى بمثل هذه الروعة !

ويغمض ايفان اليكسييفتش عينيه ويهز رأسه .
ويقول :

— سعيد الى درجة تغيظ ! فلتحكم بنفسك . سأذهب الآن الى عربتى . وهناك ، على الكنبة بجوار النافذة ، يجلس مخلوق مخلص لك بكل جوارحه ، كما يقال . . شقراء حلوة ، بأنف صغير . . . وأنامل . . آه يا حبوبتى ! يا ملاكى ! يا حملى الوديع ! يا سلوى فؤادى ! وساقها يا الهى ! ساقها ليست مثل أرجلنا الضخمة ، بل شىء منمنم ، سحرى . . . مجازى ! بودى لو أمسكت بهذه الساق وأكلتها ! أوه ، انك لا تفقه شيئا ! أنت رجل مادى ، كل شىء تحلله وتفلسفه ! أوه ، أنتم عزاب جافون لا اكثر ! عندما تتزوج ستتذكرنى ! ستقول : اين انت الآن يا ايفان اليكسييفتش ؟ نعم ، سأذهب الآن الى عربتى . هناك ينتظروننى على أحر من الجمر . . . يتوقعون حضورى بلهفة . وتستقبلنى ابتسامة . فأجلس وأمد اصبعين فأداعب بهما الذقن . . .

ويهز ايفان اليكسييفتش رأسه ويغيب فى ضحك سعيد .

— ثم تضع رأسك على كتفها وتحيط خصرها بيدك . ومن حولك يسود الهدوء . . . وعتمة شاعرية . تود لو تعانق الدنيا كلها فى هذه اللحظة . بيوتر بتروفتش ، اسمح لى أن اعانقك !

— تفضل .

يتعانق الصديقان وسط ضحكات الركاب ، ويستطرد الزوج الجديد السعيد :

— وللمزيد من الحماقة ، او كما يقال فى الروايات ،

لمزيد من الخيال ، لنذهب الى البوفية ونلقى فى جوفك كأسين أو ثلاثا . وهنا يحدث فى رأسك وصدرك ما لن تقرأ عنه حتى فى الحكايات . أنا رجل صغير ، ضئيل ، ولكن يخيل لى اننى بلا حدود . . . أحيط بالدنيا كلها !

ينظر المسافرون الى الزوج الثمل السعيد فتنتقل اليهم عدوى مرحه ، ويطير النوم من عيونهم . وبدلا من مستمع واحد سرعان ما يتجمع حول ايفان أليكسييفتش خمسة مستمعين . أما هو فيتململ كأنما جالس على جمر ، وينثر لعابه ، ويشيح بيديه ويثرثر بلا انقطاع . ويقهقه ، ويقهقه الجميع .

— المهم يا سادة ان نقلل من التفكير ! الى الشيطان بكل هذه التحليلات . . . اذا شعرت برغبة فى الشراب اشرب ، ولا داعى للتفلسف حول ما اذا كان هذا مفيدا أم ضارا . . . الى الشيطان بكل هذه التحليلات والسيكولوجيات !

ويمر الكمسارى فى العربة .

فيخاطبه الزوج الجديد :

— اسمع يا عزيزى . عندما تمر بالعربة رقم ٢٠٩ ، ستجد هناك سيدة فى قبعة رمادية بطائر أبيض . قل لها اننى هنا !

— حاضر . ولكن لا توجد فى هذا القطار عربة رقم ٢٠٩ . توجد رقم ٢١٩ !

— حسنا ، فليكن ٢١٩ ! سيان ! أبلغ هذه السيدة أن زوجها بخير وسلام !

وفجأة يقبض ايفان اليكسييفتش على رأسه ويتأوه :

— زوج . . سيدة . . منذ متى هذا ؟ زوج . . ها—ها . . انت تستحق الجلد وليس الزواج ! يا لى من أبله ! وهى . .

بالامس كانت صبية . . . بعوضة صغيرة . . شيء لا يصدق !

ويقول أحد الركاب :

— غريب في زمننا هذا أن ترى شخصا سعيدا . . الأسهل أن ترى الفيل الأبيض .

فيقول ايفان اليكسييفتش مادا ساقيه الطويلتين بحذائهما المدبب جدا :

— نعم ، ولكن من المذنب ؟ اذا لم تكونوا سعداء فالذنب ذنبكم ! نعم ، وماذا كنتم تظنون ؟ الانسان هو خالق سعادته . وبوسعكم ، لو أردتم ، أن تصبحوا سعداء ، ولكنكم لا تريدون . أنتم تهربون من السعادة باصرار !

— أما غريبة ! وكيف ذلك ؟

— بسيطة ! . . لقد سنّت الطبيعة للانسان أن يحب في فترة معينة من عمره . فاذا حانت هذه الفترة فلتحب بكل ما تملك . ولكنكم لا تطيعون الطبيعة ، وتظلون في انتظار شيء ما . وبعد ذلك . . . نصّ القانون على ان الفرد الطبيعي ينبغي أن يتزوج . . فبدون الزواج لا توجد سعادة . فاذا جاء الوقت المناسب فلتتزوج ، لا تماطل . . . ولكنكم لا تتزوجون ، وتظلون في انتظار شيء ما ! ثم انه قد جاء في الكتاب المقدس ان الخمر تدخل البهجة في قلوب البشر . . . فاذا كان مزاجك طيبا وتريده أن يكون أحسن ، اذن فلتذهب الى البوفيه ولتشرب . المهم ألا تتفلسف ، بل سر على التقليد ! التقليد شيء عظيم !

— أنت تقول ان الانسان هو خالق سعادته . أيّ خالق هو ، بحق الشيطان ، اذا كان يكفى مجرد ألم في سنه او حماة شريرة لكى تطير سعادته رأسا على عقب ؟

كل شيء رهن بالصدفة . فلو انقلب القطار بنا الآن كما في حادث كوكويفكا * لقلت كلاما آخر . . .

فيقول الزوج الجديد محتجا :

— هراء ! الكوارث لا تحدث الا مرة في السنة . انا لا أخشى اية حوادث ، لأنه ليس هناك مبرر لحدوث هذه الحوادث . الحوادث نادرة ! فلتذهب الى الشيطان ! أنا لا أريد حتى أن اتحدث عنها ! يبدو أننا نقترب من محطة .

ويسأله بيوتر بتروفتش :

— الى أين أنت مسافر الآن ؟ الى موسكو أم ستواصل الى الجنوب ؟

— سلامتك ! كيف أواصل الى الجنوب اذا كنت مسافرا الى الشمال ؟

— ولكن موسكو ليست في الشمال .

ويقول ايفان اليكسييفتش :

— أعرف هذا ، ولكننا الآن مسافرون الى بطرسبرج !

— عفوك ، اننا مسافرون الى موسكو !

فيذهل الزوج الجديد :

— كيف الى موسكو ؟

— غريبة . . . الى أين اشتريت التذكرة ؟

— الى بطرسبرج .

— اذن دعني اهنئك . لقد ركبت قطارا آخر .

وتمر فترة صمت . وينهض الزوج الجديد ويحملق

---

* حادث انقلاب قطار عند قرية كوكويفكا عام ١٨٨٢ راح ضحيته اكثر من ١٠٠ قتيل وجريح . **المعرب** .

فى الجالسين ببلادة .

ويوضح له بيوتر بتروفتش الأمر :

— نعم ، نعم . فى «بولوجويه» قفزتَ الى قطار آخر . . . اذن فقد ركبتَ ، بعد الكونياك ، القطار المضاد .

يمتقع وجه ايفان اليكسييفتش ، ويقبض على رأسه بيديه ويروح ويجيىء فى العربة بسرعة .

ويقول ثائرا :

— آه ، يا لى من حمار غبى ! يا لى من وغد ، فلتخطفنى الشياطين ! ماذا سأفعل الآن ؟ زوجتى فى القطار الآخر ! هناك وحدها ، تنتظر ، تعانى ! آه ، يا لى من مهرج أحمق !

ويتهالك الزوج الجديد على الكنبة ، وينكمش كأنما داس أحدهم على اصبع قدمه المريضة .

ويتأوه :

— يا لى من بائس ! ماذا سأفعل الآن ؟ ماذا ؟

ويخفف الركاب عنه :

— لا بأس ، لا بأس . . بسيطة . . . أرسل لزوجتك برقية ، أما أنت فحاول أن تستقل القطار السريع . وبذلك تلحق بها .

فيبكى الزوج الجديد ، «خالق سعادته» :

— القطار السريع ! ومن أين احصل على النقود للقطار السريع ؟ كل نقودى مع زوجتى !

ويتهامس الركاب الضاحكون ، ويتشاركون فى جمع مبلغ من المال ، ويعطونه للسعيد .

في البيت الريفي

«أنا أحبك . أنتَ حياتي ، سعادتي ، كل ما أملك ! اغفر لي اعترافي ، ولكنني لا أقوى على العذاب في صمت . انا لا أرجو منك المشاركة ، بل العطف . تعال اليوم في الساعة الثامنة مساء الى العريشة القديمة . . . لا أرى لزوما للتوقيع باسمي ، لكن لا تخش من رسالة مجهولة . انا شابة ، وسيمة . . . فماذا تريد ايضا» ؟

قرأ المصطاف بافل ايفانيتش فيخودتسيف ، وهو رجل متزوج ، مستقيم ، هذه الرسالة ثم هز كتفيه ، وحك جبينه في استغراب .

وقال في نفسه : «ما هذا بحق الشيطان ؟ انا رجل متزوج ، وفجأة أتلقى هذه الرسالة الغريبة . . . الحمقاء ! ترى من كاتبها ؟»

قلب بافل ايفانيتش الرسالة امام عينيه ، ثم قرأها ثانية ، وبصق .

وقال في نفسه مقلدا عبارة الرسالة في سخرية : «انا احبك» . . . تظن أنها وجدت صبيا ! اذن فسوف أجري ركضا لألقاك في العريشة ! . . انني يا سيدتي نسيت من

زمان هذه القصص الغرامية وكل هذه الفلور دامور * . . . هم ! . . لا بد أنها امرأة طائشة منحرفة . . . آه من هؤلاء النساء ! أية لعوب — استغفر الله — ينبغى أن تكون لكى تكتب رسالة كهذه الى رجل غريب ، وفوق ذلك متزوج ! انحلال ما بعده انحلال !»

خلال ثمانى سنوات من الحياة الزوجية نسى بافل ايفانيتش المشاعر الرقيقة ، ولم يكن يتلقى أية رسائل ، اللهم الا بطاقات التهنئة ، ولذلك فرغم محاولته التظاهر بالرصانة أمام نفسه ، الا ان الرسالة المذكورة أربكته بشدة وأثارته .

وبعد ساعة من تسلمها رقد على الكنبة وهو يفكر :

«بالطبع أنا لست صبيا ولن أجرى الى هذا الراندى فو الأحمق ، ولكن من الطريف أن اعرف : ترى من كتبها ؟ هِمْ . . . الخط حريمى بلا شك . . . والرسالة مكتوبة بصدق وحرارة ، ومن ثم يستبعد أن تكون نكتة . . . ربما كانت امرأة مضطربة عقليا او أرملة . . . الأرامل عموما رعناوات وشاذات . هِمْ . . . ولكن يا ترى من تكون ؟»

زاد من صعوبة حل هذه المسألة أنه لم يكن لدى بافل ايفانيتش فى البلدة الريفية كلها من المعارف النسائية سوى زوجته .

وفكر مستغربا : «غريبة . . . «أنا أحبك» . . . متى تمكنت من حبى ؟ امرأة مدهشة ! هكذا أحبت ، بلا مقدمات ، حتى دون أن تتعرف بى او تعرف أى رجل أنا . . . يبدو انها صبية جدا وورومانسية اذا كان فى وسعها

---

* زهرة الحب ، من الفرنسية : Fleur d'amour . **المعرب** .

أن تعشق من نظرتين أو ثلاث . . . ولكن . . من هى ؟»

وفجأة تذكر بافل ايفانيتش انه بالامس ، واول امس ايضا ، عندما كان يتنزه فى ميدان البلدة ، التقى عدة مرات بشقراء شابة ، كانت تختلس اليه النظر بين الحين والحين ، وعندما جلس على الأريكة ، جلست بالقرب منه . . .

وفكر فيخودتسيف : «هى ؟ غير معقول ! وهل يمكن لمخلوق رهيف ، نورانى أن يحب قرموطا عجوزا سقيما مثلي ؟ لا ، هذا مستحيل !».

واثناء الغداء حدق بافل ايفانيتش فى زوجته ببلادة وهو يفكر :

«انها تكتب أنها شابة ووسيمة . . . اذن فليست عجوزا . . . هم . . . لو أردنا الصدق ، وبصراحة ، فأنا لست عجوزا ودميما الى حد يمنع من الوقوع فى غرامى . . . أليست زوجتى تحبنى ؟ وفضلا عن ذلك فالحب أعمى ، والقرد فى عين أمه غزال . . .»

وسألته زوجته :

— فيم تفكر ؟

فكذب قائلا :

— ابدا . . لا شىء . . يبدو عندى صداع . . .

وقرر انه من الغباء ان يعير اهتماما لشىء تافه كهذه الرسالة الغرامية ، وسخر منها ومن كاتبتها ، ولكن يا للأسف ! ما أقوى الشيطان الوسواس . وبعد الغداء تمدد بافل ايفانيتش على سريره ، وبدلا من أن ينام راح يفكر :

«ولكنها ، فى الغالب ، تؤمل فى مجيئى ! يا لها من حمقاء ! نعم ، أتخيل كيف ستنفعل وترتعش أردافها

المستعارة عندما لا تجدنى فى العريشة ! . . ولكنى لن أذهب . . . ما لى وما لها !»

ولكن ، وأكرر ، ما أقوى الشيطان الوسواس .

فبعد نصف ساعة فكر المصطاف : «ولكن ماذا لو ذهبت . . . هكذا . . حب استطلاع . . أذهب وانظر من بعيد لأعرف من هى . . من الطريف فعلا لو ألقى نظرة ! شيء مضحك لا اكثر ! وبالفعل ، لماذا لا أضحك قليلا اذا كانت هناك فرصة لذلك ؟»

ونهض بافل ايفانيتش من سريره وبدأ يرتدى ثيابه .

— الى أين تتأنق هكذا ؟ — سألته زوجته وقد لاحظت أنه يرتدى قميصا نظيفا وربطة عنق حديثة .

— أبدا . . . أريد ان أتنزه قليلا . . . يبدو عندى صداع . . . هِمْ . .

تأنق بافل ايفانيتش ، وانتظر بداية الساعة الثامنة ، وخرج من البيت . ودق قلبه عندما لاحت لناظريه على خلفية خضراء ساطعة غمرها ضوء الشمس الغاربة جموع المصطافين والمصطافات الأنيقة .

وفكر وهو يختلس النظر بخجل الى وجوه المصطافات : «ترى من منهن ؟ ولكنى لا أرى الشقراء . . . هم . . اذا كانت هى صاحبة الرسالة ، فاذن هى الآن جالسة فى العريشة» . . . .

ودلف فيخودتسيف الى ممر بين الاشجار بدت فى نهايته «العريشة القديمة» من خلف اوراق اشجار الزيزفون الباسقة . . . ومضى نحوها على مهل . . .

وفكر وهو يتقدم مترددا : «سأطل من بعيد . . . ما

لى أخاف ؟ أنا لست ذاهبا الى راندى فو ! يا لى من أحمق ! اقدم بجرأة ! وماذا لو دخلت العريشة ؟ لا ، لا . لا داعى !»

وازدادت دقات قلب بافل ايفانيتش . . . وعلى الرغم منه ، تخيل لاأراديا عتمة العريشة . . . وومضت فى خياله الشقراء الرشيقة فى فستان أزرق فاتح ، وبأنف أقعى . . . وتصور كيف تقترب منه بوجل ، وهى تخجل من حبها ، وبدنها كله يرتعش ، وانفاسها تتردد بحرارة و . . . وفجأة تطوقه بذراعيها فى عناق عنيف .

وفكر وهو يطرد من رأسه الافكار الحرام : «لو لم أكن متزوجا لهان الأمر . . . وعموما . . لا مانع أن تجرب ذلك مرة فى العمر ، والا فقد تموت دون ان تدرى ما هذا . . . وزوجتى . . حسنا ، ماذا سيحدث لها ؟ الحمد لله لم ابتعد عنها خطوة واحدة طوال ثمانى سنوات . . . ثمانى سنوات من الخدمة المثالية ! يكفيها هذا . . . شىء محنق . طيب ، ماذا لو خنتها نكاية بها !»

اقترب بافل ايفانيتش مرتعش البدن مبهور الأنفاس من العريشة المغلَّفة باغصان الكروم البرية ، وأطل داخلها . . . وهبت عليه رطوبة وروائح عطنة . . .

وفكر وهو يدخل العريشة : «يبدو ليس هناك أحد . . .» ، وعلى الفور رأى شبحا بشريا فى ركن العريشة . . .

كان شبح رجل . . . وعندما حدق بافل ايفانيتش عرف فيه شقيق زوجته ، الطالب ميتيا ، الذى يعيش عندهم فى البيت الريفى .

ودمدم بصوت ساخط : «آه . . . أهو انت ؟» ،

ونزع قبعته وجلس .
فأجاب ميتيا :
— نعم أنا . . . .
مرت دقيقتان فى صمت . . . .
ثم قال ميتيا :
— اعذرنى يا بافل ايفانيتش اذا رجوتك أن تتركنى بمفردى . . . اننى افكر فى موضوع رسالة علمية و . . . ووجود أى شخص هنا يشوش عليّ . . .
فقال بافل ايفانيتش بدعة :
— فلتذهب الى الممر المظلم . . . فى الهواء الطلق يسهل التفكير ، ثم انه . . . يعنى . . أريد ان انام قليلا على هذه الأريكة . . . الجو هنا ليس حارا . . .
فدمدم ميتيا بسخط :
— انت تريد ان تنام وأنا اريد ان أفكر فى الرسالة . . . الرسالة أهم . . . .
وحل الصمت من جديد . . . واذا بباڤل ايفانيتش ، الذى ترك لخياله العنان وأصبح يسمع بين الحين والحين وقع خطوات ، يقفز فجأة ويقول بصوت باك :
— اننى أرجوك يا ميتيا ! أنت أصغر منى وينبغى ان تستجيب لرجائى . . . اننى مريض و . . . وأريد أن أنام . . . اذهب !
— هذه أنانية . . لماذا ينبغى أن تبقى أنت لا أنا ؟ لن أذهب . . هذه مسألة مبدأ . . .
— أرجوك ! فلأكن انانيا ، طاغية ، أحمق . . . اننى أرجوك ! مرة فى حياتى أرجوك ! استجب !

فهز ميتيا رأسه سلبا . . .

وفكر بافل ايفانيتش : «يا له من وغد ! لن يتم الراندىفو فى حضوره ! مستحيل فى حضوره !»

— اسمع يا ميتيا ، أرجوك آخر مرة . . . برهن على أنك انسان ذكى ، عطوف ومثقف !

فهز ميتيا كتفيه :

— انا لا أفهم الحاحك عليّ ! قلت لك لن أذهب يعنى لن أذهب . . سأبقى هنا كمبدأ . . .

وفى تلك اللحظة أطل فى العريشة فجأة وجه نسائى ذو أنف أقعى .

وعندما رأى الوجه ميتيا وبافل ايفانيتش عبس واختفى . . .

وفكر بافل ايفانيتش وهو ينظر الى ميتيا بحقد : «ذهبت ! رأت هذا الوغد فذهبت ! ضاع كل شىء !»

وانتظر فيخودتسيف قليلا ثم نهض وارتدى قبعته وقال :

— انت حيوان ، وغد ، سافل ! نعم ! حيوان ! هذه خسة و . . . حماقة ! كل شىء بيننا انتهى !

فدمدم ميتيا وهو ينهض ايضا ويرتدى قبعته :

— سعيد جدا ! أتعرف انك بحضورك الآن ارتكبت فى حقى عملا دنيئا لن اغفره لك طول العمر !

وخرج بافل ايفانيتش من العريشة وقد أعماه الغضب ، ومضى نحو بيته الصيفى بخطوات سريعة . . . ولم يهدئ ثائرته حتى منظر المائدة المعدة للعشاء .

وقال فى نفسه منفعلا : «مرة فى حياتى تتاح لى هذه الفرصة فيفسدونها عليّ ! انها الآن تشعر بالاهانة . . . انها محطمة !»

واثناء العشاء دفن بافل ايفانيتش وميتيا وجهيهما في الاطباق وصمتا مكفهرين . . . كانا يمقتان بعضهما البعض من صميم قلبيهما .

وهاجم بافل ايفانيتش زوجته :

— ما لك تبتسمين ؟ الحمقاوات وحدهن يبتسمن بلا سبب !

فنظرت الزوجة الى وجه زوجها الغاضب وانفلتت منها ضحكة . . .

وسألته :

— ما هذه الرسالة التى تسلمتها صباح اليوم ؟

فارتبك بافل ايفانيتش :

— انا ؟ . . لم اتسلم اية رسالة . . . انت تختلقين . . . هذه تهيؤات . . .

— دعك من المراوغة ! اعترف بأنك تسلمتها ! هذه الرسالة انا التى أرسلتها ! اقسم لك ! ها—ها !

تضرج بافل ايفانيتش وانحنى فوق الطبق . ودمدم :

— مزاح سخيف .

— وماذا أفعل . . . كان ينبغى أن نغسل الأرضية اليوم ، فكيف نطردكما من البيت ؟ بهذه الطريقة فقط . . . لا تغضب منى ، يا عزيزى . . . ولكى لا تشعر بالملل فى العريشة أرسلت لميتيا رسالة مماثلة ! هل كنت فى العريشة يا ميتيا ؟

ضحك ميتيا ضحكة قصيرة ، ولم يعد ينظر الى غريمه بحقد .

١٨٨٦

مغنية الكورس

ذات مرة ، عندما كانت اكثر صبى وجمالا وأقوى صوتا ، جلس عندها فى البيت الصيفى ، فى السندرة ، عشيقها نيقولاى بتروفتش كولباكوف . كان الجو حارا وخانقا الى درجة لا تطاق . وقد فرغ كولباكوف لتوه من الغداء ومن شرب زجاجة كاملة من الخمر الردىء ، وكان مزاجه معتلا وصحته متوعكة . كانا كلاهما يضجران وينتظران انحسار الحر حتى يخرجا للتنزه .

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، قرع جرس الباب ، فقفز كولباكوف ، الذى كان بلا حلة وفى شبشب ونظر الى «باشا» .

فقالت المغنية :

— ربما كان ساعى البريد ، او احدى صديقاتى .

لم يكن كولباكوف ليخجل من صديقة «باشا» او من ساعى البريد ، ولكنه على أية حال غرف ملابسه تحت ابطه ومضى الى الغرفة الداخلية ، بينما هرعت «باشا» لتفتح الباب . ولدهشتها الشديدة لم يكن على العتبة لا ساعى البريد ولا صديقتها ، بل امرأة لا تعرفها ، شابة ، جميلة ، ترتدى ملابس محترمة ، وتشير كل الدلائل الى انها من بيئة راقية .

كانت المرأة الغريبة شاحبة ، تلهث كأنها ارتقت درجا عاليا .

وسألتها «باشا» :

— أى خدمة ؟

لم ترد السيدة فورا . خطت خطوة الى الأمام ، وتفحصت الغرفة ببطء ، ثم جلست متهالكة كأنما لا تستطيع الوقوف من التعب او المرض . ثم راحت تحرك شفتيها الشاحبتين فترة طويلة وهى تحاول ان تلفظ شيئا ما .

واخيرا سألت وقد رفعت الى «باشا» عينين واسعتين بجفنين احمرين من البكاء :

— هل زوجى عندك ؟

— أى زوج ؟ — تمتمت «باشا» ، وفجأة تملكها الرعب الى درجة تثلجت معها أطرافها . — أى زوج ؟ — كررت وقد بدأت ترتعش .

— زوجى . . . نيقولاى بتروفتش كولباكوف .

— لا . . لا يا سيدتى . . . انا لا أعرف أى زوج .

ومرت دقيقة صمت . مسحت المرأة المجهولة شفتيها الشاحبتين بمنديلها عدة مرات ، ولكى تتغلب على الرجفة الداخلية كتمت انفاسها ، اما «باشا» فوقفت امامها متسمرة بلا حراك وهى تتطلع اليها بحيرة وخوف .

وسألت السيدة بصوت أصبح حازما ، وابتسمت ابتسامة غريبة :

— اذن تقولين انه ليس هنا ؟

— انا . . . انا لا أعرف عمن تسألين .

فدمدمت المرأة المجهولة وهى تلقى على «باشا» نظرة

حقد وتفزز :

— انت لئيمة ، منحطة ، حقيرة . . . نعم ، نعم . . . لئيمة . يسعدنى جدا اننى استطيع ، أخيرا ، أن أقول لك هذا !

وشعرت «باشا» انها تثير فى نفس هذه المرأة المتشحة بالسواد وذات العينين الغاضبتين والأنامل الدقيقة البيضاء ، احساسا بأنها شىء كريه بشع ، فتملكها الخجل من خديها الأحمرين المنتفخين ومن النمش على انفها ، ومن قُصَّتها المنسدلة على جبينها والتى لا تستجيب ابدا للتمشيط الى أعلى . وخيل اليها أنها لو كانت نحيفة ، بدون مساحيق وبدون قُصة ، لكان من الممكن اخفاء سوء سلوكها ، ولما خافت وخجلت الى هذا الحد من الوقوف امام هذه المرأة المجهولة الغامضة .

واستطردت السيدة تسأل :

— أين زوجى ؟ على العموم سيان ان كان هنا أم لا ، ولكنى يجب ان أقول لك انه تم اكتشاف تبديد أموال وانهم يبحثون عن نيقولاى بتروفتش . . . يريدون القاء القبض عليه . . انظري ماذا فعلت به !

نهضت السيدة وتمشت فى الغرفة بانفعال شديد . ونظرت اليها «باشا» وقد عجزت من الخوف عن فهم شىء .

وقالت السيدة :

— سوف يعثرون عليه اليوم ويعتقلونه . . . — وشهقت باكية ، وتجلت الاهانة والحزن فى هذا الصوت . — انا أعرف من الذى دفع به الى هذه الفظاعة ! انت لئيمة ، حقيرة ! مخلوق كريه ، مرتزق ! (والتوت شفتا المرأة وتقلص

انفها من التقزز . — انا عاجزة . . . اسمعى ايتها المرأة المنحطة ! انا عاجزة ، انت أقوى منى ، ولكن لى من يدافع عنى وعن أولادى ! الرب يرى كل شىء ! انه عادل ! سينتقم منك لكل دمعة من دموعى ، ولكل ليالي السهاد ! سيأتى اليوم الذى تتذكريننى فيه !

وساد الصمت من جديد . كانت السيدة تروح وتجىء فى الغرفة وهى تلوي ذراعيها ، بينما ظلت «باشا» تحدق فيها ببلادة وحيرة وعدم فهم وتتوقع منها شيئا ما رهيبا .

وفجأة قالت وهى تنخرط فى البكاء :

— انا لا أعرف شيئا يا سيدتى !

فصاحت السيدة وحدجتها بنظرة غاضبة لاهبة :

— كذابة ! انا أعرف كل شىء ! أعرفك من زمان ! أعرف أنه فى الشهر الأخير كان يتردد عليك كل يوم !

— نعم . وماذا فى ذلك ؟ يزورنى ضيوف كثيرون ، انا لا أجبر احدا على المجىء . كل واحد حر فيما يفعله .

— اننى اقول لك : تم اكتشاف تبديد أموال ! اختلس أموالا عهدة وبددها ! من أجل واحدة . . مثلك ، من اجلك أقدم على جريمة . — وقالت السيدة بنبرة حازمة وهى تتوقف قبالة «باشا» . — اسمعى ، لا يمكن ان تكون لديك مبادىء ، انت تعيشين فقط لتجلبى الشر ، وهذا هو هدفك ، ولكنى لا أظن انك بلغت من الانحطاط الى الدرجة التى لم يبق فيها لديك اثر لاحساس انسانى ! ان لديه زوجة واطفالا . . . لو حكموا عليه وسجنوه فسنموت انا والأولاد جوعا . . . افهمى هذا ! ولكن توجد وسيلة لانقاذه وانقاذنا من البؤس والفضيحة . لو أنا أعدت اليوم

تسعمائة روبل فسيدعونه وسائله . تسعمائة روبل فقط !

فسألت «باشا» بصوت خافت :

— أية تسعمائة روبل ؟ . . أنا . . . أنا لا أعرف . . . لم آخذ شيئا . . .

— أنا لا أطلب منك تسعمائة روبل . . . فليس لديك نقود ، كما أننى لا أطمع فى أملاكك . أنا أطلب شيئا آخر . . . الرجال عادة ما يهدون للنساء من أمثالك أشياء ثمينة . اعيدى فقط الأشياء التى اهداها لك زوجى !

فهتفت «باشا» وقد بدأت تدرك :

— يا سيدتى ، لم يهد لى اى شىء !

— فأين ذهبت النقود ؟ لقد بدد مالي وماله ومال العهدة . . . فأين ذهب هذا كله ؟ اسمعى ، اننى أرجوك ! لقد كنت غاضبة ووجهت اليك اساءات كثيرة ولكنى اعتذر . أنا أعرف انك تمقتيننى ، ولكن اذا كنت قادرة على الشفقة فضعى نفسك فى مكانى ! أتوسل اليك ، اعطينى الأشياء !

— هِمْ . . . — قالت «باشا» وهزت كتفيها . — بكل سرور ، ولكن اقسم لك بالله انه لم يهد لى أي شىء . صدقينى . — ثم ارتبكت المغنية وقالت : — على العموم انت على حق . لقد اهدانى ذات مرة قطعتين . تفضلى ، خذيهما اذا شئت . . .

وسحبت «باشا» أحد ادراج التسريحة ، وأخرجت منه سواراً ذهبيا مجوفا ، وخاتما صغيرا بحجر عقيق .

وقالت وهى تمدهما للضيفة :

— تفضلى !

وتضرج وجه السيدة وارتعش . لقد أحست باهانة . وقالت :

— ما هذا الذى تعطينه لى ؟ اننى لا أطلب منك صدقة ، بل اطلب ما ليس ملكك . . ما اعتصرته ، مستغلة وضعك ، من زوجى . . من هذا الرجل الضعيف البائس . . . يوم الخميس ، عندما رأيتك مع زوجى عند المرفأ ، كنت تضعين بروشات وأساور غالية . اذن فلا معنى لأن تمثلى معى دور الحمل الوديع ! اننى ارجوك للمرة الأخيرة : هل ستعطيننى الأشياء أم لا ؟

فقالت «باشا» وقد بدأت تغضب :

— يا لك من غريبة حقا ! . . اؤكد لك اننى لم آخذ من زوجك نيقولاى بتروفتش اى شىء سوى هذا السوار والخاتم . لم يكن يأتى اليّ الا بفطائر حلوة .

فضحكت السيدة المجهولة بسخرية :

— فطائر حلوة . . . الأولاد فى البيت لا يجدون ما يأكلونه ، وهنا يأكلون فطائر حلوة . اذن فأنت ترفضين رفضا قاطعا اعادة الأشياء ؟

وعندما لم تتلق السيدة ردا جلست وهى تحدق فى شىء ما .

ثم قالت :

— وما العمل الآن ؟ اذا لم أحصل على تسعمائة روبل فسوف يهلك ، وأنا والأولاد أيضا سنهلك . ترى هل اقتل هذه الحقيرة أم أركع أمامها على ركبتى ؟

ودفنت السيدة وجهها فى المنديل وأعولت .

وتردد صوتها من خلال الدموع :

— ارجوك ! انت نهبت زوجى ودمرته ، هيا انقذيه . . .
ليس بقلبك شفقة عليه ، ولكن الأولاد . . . الأولاد . . ما ذنبهم ؟

وتخيلت «باشا» الأولاد الصغار وهم يقفون فى الطريق ويبكون من الجوع فأجهشت هى ايضا بالبكاء .

وقالت :

— وماذا أستطيع يا سيدتى ؟ انت تقولين اننى حقيرة نهبت نيقولاى بتروفتش ، ولكنى اقسم لك ، والله شاهد ، اننى لم استفد منه شيئا . . . فى كورسنا موتيا وحدها التى لديها عشيق غنى ، اما نحن جميعا فنأكل لقمتنا بالكفاف . نيقولاى بتروفتش سيد متعلم ومهذب ، ولهذا كنت استقبله فلا يمكننا الا نستقبل الضيوف .

— أنا أطلب الأشياء ! اعطيني الأشياء ! اننى أبكى . . . أتذلل . . تفضلى ، سأركع على ركبتى ! تفضلى !

صرخت «باشا» رعبا وأشاحت بيديها . وأحست ان هذه السيدة الشاحبة الجميلة ، التى تتحدث بعبارات سامية ، كما فى المسرح ، تستطيع بالفعل ان تركع امامها على ركبتيها ، وبالذات بدافع الكبرياء ، والنبل ، ولكى تعلى من قدرها وتحط من قدر المغنية .

وارتبكت «باشا» مهرولة وهى تمسح دموعها وتقول :

— حسنا ، سأعطيك الأشياء ! تفضلى ! ولكنها ليست من نيقولاى بتروفتش . . . أهداها لى ضيوف آخرون . . . فليكن كما تشائين . . .

وسحبت «باشا» الدرج العلوى للكمودينو ، وأخرجت منه بروشا بفصوص من الماس ، وعقدا من المرجان ، وعدة

خواتم ، وسوارا ، واعطت كل ذلك للسيدة .

واستطردت «باشا» تقول وقد أهانها التهديد بالركوع على الركبتين :

— خذيها اذا شئت ، ولكنى لم استفد من زوجك شيئا . خذى ، اشبعى ! واذا كنت محترمة . . . وزوجته الشرعية ، فلتمسكى به الى جوارك . . يعنى ! انا لم أدعه الىّ ، هو الذى جاء بنفسه . . .

نظرت السيدة من خلال دموعها الى الأشياء التى قدمت لها وقالت :

— ليس هذا كل شىء . . . هذه لا تبلغ قيمتها حتى خمسمائة روبل .

فألقت «باشا» من الكمودينو فى حدة بساعة ذهبية ، وعلبة سجائر ، وازرار اساور قميص ، وقالت وهى تباعد ذراعيها :

— ليس عندى شىء آخر . . فتشى اذا شئت !

فتنهدت الضيفة ، ولفت الأشياء فى منديلها بأصابع مرتعشة ، وخرجت دون ان تنبس بكلمة ، بل حتى لم تومئْ برأسها .

وفتح باب الغرفة المجاورة ، ودخل كولباكوف . كان شاحبا ورأسه ينتفض فى عصبية ، كأنما تناول لتوه دواء مرا . وترقرقت عيناه بالدموع . وهاجمته «باشا» :

— ما هى الأشياء التى اهديتها لى ؟ متى كان ذلك لو سمحت ؟

فدمدم كولباكوف وهز رأسه :

— الأشياء . . . الأشياء أمر تافه ! يا الهى ! لقد

بكت امامك ، تذللت . . .

فصرخت «باشا» :

— انني اسألك : اية أشياء اهديتها لى ؟

— يا الهى ، هى الشريفة ، الأبية ، الطاهرة . . . ارادت أن تركع على ركبتيها امام . . . امام هذه العاهرة ! أنا الذى أوصلتها الى هذا الحد ! أنا سمحت بهذا !

وأمسك رأسه بين يديه وتأوه :

— لا ، لن أغفر لنفسى هذا ابدا ! لن اغفر ! —

وصاح بنفور وهو يتراجع عن «باشا» ويصدها بيدين مرتعشتين : — ابتعدى عنى . . . يا حقيرة ! أرادت أن تركع على ركبتيها . . وأمام من ؟ ! امامك ! أوه يا الهى !

وارتدى ملابسه بسرعة ، واتجه نحو الباب وهو يتحاشى «باشا» بتقزز ، وخرج .

واستلقت «باشا» فى الفراش وراحت تنتحب بصوت عال . كانت تشعر الآن بالأسف على اشيائها التى أعطتها فى لحظة تهور ، كما كانت تشعر بالاهانة . وتذكرت كيف ضربها أحد التجار منذ ثلاث سنوات دون سبب او ذنب ، فعلا نحيبها .

١٨٨٦

المعلم

كان فيودور لوكيتش صيسويف ، المعلم بمدرسة الفابريقة التى تنفق عليها «مانيفاتورة كوليكين وابنائه» ، يستعد لحفل الغداء الرسمى . وكانت ادارة الفابريقة تقيم سنويا ، بعد انتهاء الامتحانات ، حفل غداء يحضره مفتش المدارس الشعبية وكل من شهدوا الامتحانات وادارة الفابريقة . ورغم الطابع الرسمى لتلك الحفلات فقد كانت تستمر دائما فترة طويلة ، وتتميز بالمرح والطعام اللذيذ . اذ ينسى المعلمون عبادة الالقاب ولا يتذكرون الا جهودهم الشريفة ، فيأكلون حتى الشبع ، ويسكرون فى انسجام ، ويثرثرون الى ان تبح اصواتهم ، وينصرفون فى ساعة متأخرة من المساء بينما تدوى فى البلدة كلها اصوات غنائهم وقبلاتهم . وقد شهد صيسويف من هذه الحفلات ثلاث عشرة حفلة ، بقدر عدد السنوات التى عمل فيها بمدرسة الفابريقة .

وسعى ، وهو يستعد للحفلة الرابعة عشرة ، ان يضفى على نفسه هيأة احتفالية لائقة الى أقصى حد . فقضى ساعة كاملة ينظف بالمقشة حلته السوداء الجديدة ، ووقف امام المرآة نفس المدة تقريبا وهو يرتدى قميصا عصريا . وانحشرت ازرار اساور القميص فى العروات ، فأثار ذلك

عاصفة من الشكاوى والوعيد واللوم ضد زوجته . وخارت قوى الزوجة المسكينة وهى تجرى وتدور حوله . وفى النهاية أصبح هو ايضا منهكا تماما . وعندما جاؤوه من المطبخ بحذائه النظيف لم يجد فى نفسه القدرة على انتعاله . فاضطر ان يستلقى ليستريح قليلا ، وشرب ماء .

وتنهدت زوجته قائلة :

— كم أصبحت ضعيفا ! كان من الافضل الا تذهب الى هذا الحفل .

فنهرها المعلم بغضب :

— وفرى نصائحك أرجوك !

كان متكدرا للغاية ، لأنه لم يكن راضيا أبدا عن الامتحانات الأخيرة . وقد مرت هذه الامتحانات بصورة رائعة ، وحصل جميع صبيان المرحلة الأخيرة على شهادات وجوائز ، وأبدى الرؤساء ، من الفابريقة والجهات المسئولة ، ارتياحهم الى ما تحقق من نجاح ، ولكن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة للمعلم . لقد أحزنه ان التلميذ بابكين ، الذى لم يكن يخطئ ابدا فى الكتابة ، ارتكب ثلاثة اخطاء فى امتحان الاملاء ؛ كما لم يستطع التلميذ سرجييف ، بسبب الاضطراب ، معرفة حاصل ضرب ١٧ فى ١٣ . لقد اختار المفتش ، وهو رجل شاب قليل الخبرة ، موضوعا صعبا للاملاء ، أما معلم المدرسة المجاورة ، لابونوف ، الذى طلب منه المفتش ان يملي الموضوع ، فقد تصرف «بصورة لارفاقية» ، فعندما كان يملى كان ينطق الكلمات كما تلفظ لا كما تكتب ، وكأنما كان يلوكها فى فمه .

وبعد ان انتعل المعلم حذاءه بمساعدة زوجته ، وألقى

على نفسه نظرة اخرى فى المرآة ، تناول عصاه المعقدة ، ومضى الى حفل الغداء . وقرب باب شقة مدير الفابريقة ، حيث يقام الاحتفال ، وقع له حادث غير سار . فقد داهمه السعال فجأة . . . وبسبب هزات السعال طارت القبعة من فوق رأسه ، وسقطت العصا من يديه ، وعندما خرج المعلمون والمفتش من شقة المدير ركضا وقد سمعوا سعاله ، وجدوه جالسا على الدرجة السفلى يتصبب عرقا .

ودهش المفتش وسأله :

— أهو انت يا فيودور لوكيتش ؟ اذن ، لقد جئت ؟

— وماذا هناك ؟

— من الأفضل ان تلزم البيت يا عزيزى . انت اليوم مريض جدا . . .

— انا اليوم كما كنت بالأمس . اما اذا كان حضورى يضايقكم فاستطيع ان انصرف .

— ما هذا الكلام يا فيودور لوكيتش ؟ ما الداعى لأن تقول هذا ؟ أهلا ومرحبا ! على العموم لسنا نحن اصحاب الحفل بل انت . بالعكس نحن فى غاية السرور ، بالشرف ! . .

كان كل شيء معدا للاحتفال فى شقة مدير الفابريقة . ففى غرفة الطعام الكبيرة ، ذات نسخ اللوحات الزيتية الالمانية على حيطانها وأريج زهور الجيرانيوم ورائحة طلاء الأثاث ، امتدت طاولتان ؛ واحدة كبيرة للغداء ، واخرى اصغر منها للمزات . ومن النافذة المسدلة الستائر تسلل بوهن ضوء الظهيرة القائظ . . . وبدا ظلام الغرفة الغسقى ، والمناظر السويسرية على الستائر ، والجيرانيوم ، والمرتدلا المقطعة شرائح رقيقة فى الاطباق . . بدا كل ذلك مشوبا بالسذاجة وعاطفيــة

المراهقات ، ويشبه صاحب الشقة نفسه ، ذلك الالمانى الصغير البشوش ، ذا الكرش المدور والعينين المداهنتين الودودتين . وكان ادولف اندرييتش برونى (هكذا كان يدعى صاحب الشقة) يهرول بجوار طاولة المزات ، كأنما يطفئ حريقا ، ويملأ الكؤوس ، ويضع المزة فى الاطباق ، وهو يسعى بكل جهده الى ارضاء الجميع ، واضحاكهم واظهار مودته . كان يربت على الاكتاف ، ويحدق فى الوجوه ، ويقهقه ، ويفرك راحتيه ، وباختصار كان يتمسح متوددا ككلب طيب .

وقال بصوت متهدج عندما رأى صيسويف :

— فيودور لوكيتش . . من أرى ! يا لها من سعادة ! لقد جئت رغم مرضك ! . . يا سادة ، اسمحوا لى ان اسعدكم . . فيودور لوكيتش جاء !

كان المربون يتزاحمون حول طاولة المزات وهم يأكلون . وتجهم صيسويف ، اذ لم يعجبه ان رفاقه بدأوا فى تناول الطعام والشراب ولم ينتظروه . ورأى بينهم لابونوف ، ذلك الذى املى موضوع الاملاء فى الامتحان ، فاقترب منه وقال :

— هذه ليست روحا رفاقية ! نعم ! السادة المحترمون لا يُملون هكذا !

فقال لابونوف مقطبا :

— يا الهى ، ما زلت تتحدث عن نفس الشىء ! ألم تمل ذلك ؟

— نعم ، عن نفس الشىء ! تلميذى بابكين لم يكن يخطئ أبدا ! انا أعرف لماذا أمليت بهذه الطريقة . كنت تريد ان يرسب تلاميذى ، لكى تبدو مدرستك افضل .

انا فاهم كل شيء !

فدمدم لابونوف بغضب :

— ما لك تتمحك ! لماذا تتحرش بـى بحق الشيطان ؟

فتدخل المفتش بوجه يتصنع البكاء :

— كفاكم يا سادة ! لا داعى للاحتداد من اجل اشياء تافهة . ثلاثة اخطاء . . . لا اخطاء . . . أليس الامر سيان ؟

— كلا ، ليس سيان . تلميذى بابكين لم يرتكب ابدا اى خطأ .

فمضى لابونوف يقول وهو يزفر بانزعاج :

— انه يتحرش بـى ! يستغل وضعه كرجل مريض ويفترس الجميع ! ولكنى يا سيدى لن اراعى انك مريض !

فصاح صيسويف بغضب :

— دعوا مرضى وشأنه ! ما دخلكم بذلك ؟ الكل يرددون : مريض ! مريض ! مريض ! لا حاجة بـى الى مواساتكم ! ثم لماذا قررتم اننى مريض ؟ كنت مريضا قبل الامتحانات ، هذا صحيح ، اما الآن فقد شفيت تماما ، ولم يبق الا بعض الضعف .

فقال مدرس الدين ، الأب نيقولاى ، وكان قسا شابا ، يرتدى غفّارة بنية أنيقة وسروالا مسدلا فوق الحذاء الطويل :

— احمد الله انك شفيت . ينبغى ان تفرح ، ولكنك تنفعل وما شابه ذلك .

فقاطعه صيسويف :

— وانت ايضا فيك الخير ! الاسئلة ينبغى ان تكون

مباشرة ، وأصحه ، لكنك ألقيت عليهم العارا . هذا لا يجوز !

واستطاعوا بعد جهود مشتركة ان يهدئوه ، واجلسوه الى المائدة . وظل طويلا ينتقى اى شراب يشرب ، ثم قطب وجهه وشرب نصف كأس من شراب منزلى اخضر ، وبعدها شد اليه قطعة كعكة وراح يستبعد من حشوتها بعناية قطع البيض والبصل . ومن القضمة الأولى خيل اليه ان الكعكة قليلة الملح . فملحها ، وعلى الفور أبعدها عنه بغضب لانها أصبحت زائدة الملح .

اجلسوا صيسويف على الغداء بين المفتش وبرونى . وفور الفراغ من الحساء ، بدأت الانخاب حسب التقليد المتبع من زمان .

ونهض المفتش ، فقال :

— يسرنى ويشرفنى ان اتوجه بالشكر الى رعاة المدرسة الغائبين عن الحفل : الشقيقين دانيلا بتروفتش و . . و . . و . .

فذكره برونى :

— وايفان بتروفتش .

— وايفان بتروفتش كوليكين ، اللذين لم يبخلا بالمال على المدرسة ، واقترح ان نشرب هذا النخب فى صحتهما . . .

فقفز برونى كالملدوغ وقال :

— ومن جانبى اقترح ان نشرب فى صحة مفتش المدارس الشعبية المحترم بافل جناديفتش نداروف .

تحركت المقاعد ، وتبسمت الوجوه ، وبدأ قرع الكؤوس المعهود . وكان النخب الثالث مخصصا دائما لصيسويف . وفى هذه المرة ايضا نهض وراح يتكلم . اكتسب وجهه

سيماء الجدية ، وبعد ان تنحنح أعلن قبل كل شيء انه لا يملك موهبة الفصاحة ، ولم يستعد لالقاء الكلمة . ثم قال بعد ذلك انه خلال اربعة عشر عاما من الخدمة واجه الكثير من المؤامرات والدسائس بل وحتى الوشايات ضده ، وانه يعرف اعداءه والواشين به ، ولكنه لا يريد ان يفصح عن اسمائهم «خوفا من ان يفسد شهية البعض» . ورغم المؤامرات فقد احتلت مدرسة كوليكين المركز الاول في المحافظة كلها ، «ليس من الناحية المعنوية فحسب ، بل ومن الناحية المادية ايضا» .

ومضى يقول :

— في كل مكان يتقاضى المعلمون ٢٠٠ او ٣٠٠ روبل ، اما انا فأتقاضى ٥٠٠ روبل ، وعلاوة على ذلك فقد جرى تصليح شقتي بل وتأثيثها على حساب الفابريقة . وفي هذا العام غطيت جميع جدران الشقة بالورق الجديد . . .

ثم أفاض المعلم بعد ذلك في الحديث عن السخاء في تزويد التلاميذ بالادوات المكتبية بالمقارنة مع تلاميذ المدارس الحكومية ومدارس المجالس المحلية . والمدرسة مدينة بكل ذلك ، حسب رأيه ، لا لاصحاب الفابريقة ، المقيمين في الخارج ولا يعلمون ربما حتى بوجود المدرسة ، بل للشخص الذي يملك ، رغم اصله الالماني وعقيدته البروتستانتية ، روحا روسية . تحدث صيسويف طويلا ، وهو يتوقف لالتقاط انفاسه ، محاولا ان يضفي على حديثه اسلوبا فخما معقدا ، فجاءت كلمته مقبضة منفرة . واشار عدة مرات الى اعداء له ، ولجأ الى التلميح ، وكرر ما قاله ، وتنحنح بينما كانت اصابعه تتحرك بصورة قبيحة .

واخيرا ادركه التعب ، وتصبب عرقه ، واخذ يتحدث بصوت خافت لاهث ، كأنما يحدث نفسه ، وأنهى حديثه بصورة مضطربة :

— وهكذا ، اقترح ان نشرب فى صحة برونى ، اعنى فى صحة ادولف اندرييتش الذى يجلس هنا ، بيننا . . . وعموما . . ومفهوم .

وعندما أنهى كلمته تنفس الجميع الصعداء ، كأنما رش احدهم فى الجو رذاذا باردا فبدد الحر الخانق . ويبدو ان برونى وحده هو الذى لم يشعر بالنفور . فقد تهللت اساريره ، وقلب عينيه العاطفيتين ، وهز يد صيسويف بتأثر ، وتمسح متوددا من جديد كالكلب .

وقال وهو يضع يده اليسرى على قلبه :

— أوه ، أشكرك ! انا سعيد جدا بأنك تفهمنى ! اتمنى لك كل التوفيق ، من صميم قلبـى ! لكنى أريد ان أقول انك تبالغ فى تقدير دورى . المدرسة مدينة بازدهارها لك ، لك وحدك يا صديقى المبجل فيودور لوكيتش ! لولاك لما تميزت بشىء عن المدارس الاخرى ! انك تظن ان هذا الألمانى يتحدث مجاملا ، يتكلم بلباقة . ها — ها ! كلا يا عزيزى فيودور لوكيتش ، اننى انسان شريف ولا أجامل ابدا . واذا كنا ندفع لك خمسمائة روبل فى السنة فهذا يعنى انك عزيز علينا . أليس كذلك ؟ يا سادة ، ألست أقول الحق ؟ ما كنا لندفع لاحد غيرك مثل هذا المبلغ . . . عفوك ، ان المدرسة الجيدة هى شرف للفابريقة !

فقال المفتش :

— أريد ان اعترف لكم بصراحة بأن مدرستكم حقا

غير عادية . لا تظنوا هذا مديحا . على الاقل انا لم أر مدرسة مثلها طوال حياتى . لقد حضرت الامتحانات عندكم وكنت طوال الوقت مندهشا . . . ما أروعهم من أولاد ! يعرفون الكثير ، ويجيبون على الاسئلة بطلاقة ، وعلاوة على ذلك فهم من نوع خاص ، ليسوا مذعورين ، صادقون . . . ومن الواضح انهم يحبونك يا فيودور لوكيتش . انت مرب حتى النخاع ، لا بد أنك ولدت معلما . ولديك كل المؤهلات لذلك : التوجه الموروث ، والخبرة الطويلة ، وحب المهنة . . . والمرء ليدهش . . فرغم ضعف صحتك تمتلك كل هذه الطاقة ، وهذه المعرفة العميقة بالعمل ، وهذه ال . . التفهم . . الصلابة والثقة ! صحيح ما قاله احدهم فى مجلس المدرسة من انك شاعر فى مهنتك . . . نعم بالضبط ، شاعر !

وانطلق جميع الحاضرين فى صوت واحد يتحدثون عن موهبة صيسويف البارزة . وكأنما انفجر سد يحجز المياه ، اذ تدفقت الكلمات الصادقة المعجبة التى لا يقولها المرء عندما يكون مفيقا يحسب حساب الكلمات ويحترس . ونسوا كلمة صيسويف ، وطبعه الذى لا يحتمل ، وتعبير وجهه الشرير الكريه . انطلقت ألسنة الجميع ، حتى المدرسين الجدد الصامتين الوجلين ، اولئك الشبان البؤساء المنكمشين ، الذين لم يكونوا يخاطبون المفتش الا بـ «يا صاحب المعالى» . وكان من الواضح ان صيسويف فى مجاله شخصية مشهورة .

ولما كان قد ألف النجاح والمديح خلال اربعة عشر عاما من الخدمة ، فقد أصغى بلا مبالاة الى طنين محبيه المعجب .

وبدلا منه كان بروني يستمتع بالاطراء . كان الالماني يتصيد كل كلمة ، ويتهلل ، ويصفق ، ويتضرج خجلا ، كأنما كان المديح موجها اليه لا الى المعلم .

وكان يصيح :

— برافو ؛ برافو ! لقد خمنت أفكاري ! . . ممتاز ! . .

ويحدق في وجه المعلم كأنما يريد ان يشاركه سعادته . وفي النهاية لم يطق صبرا فقفز ناهضا ، وصاح فطغى صوته الرفيع المعول على جميع الاصوات :

— يا سادة ! اسمحوا لي بكلمة ! هس ! لا أجد ما أرد به على كل كلماتكم الا ان أقول : ان ادارة الفابريقة لن تُبقي في عنقها دين فيودور لوكيتش ! . .

وصمت الجميع . ورفع صيسويف عينيه نحو وجه الالماني المتورد .

ومضى بروني يقول وقد خفض صوته واضفى على وجهه سيماء الجدية :

— اننا نعرف كيف نقدر الناس . وردا على كل ما قلتموه أود ان أخبركم بأن . . . اسرة فيودور لوكيتش ستكون مؤمّنة ، وانه في هذا الصدد قد وضعنا لها رصيدا في البنك منذ شهر .

نظر صيسويف مستفهما الى الالماني ثم الى رفاقه وكأنما يستغرب : لماذا ستؤمن اسرته وليس هو نفسه ؟ وهنا قرأ في جميع الوجوه ، وفي جميع العيون الجامدة المحدقة فيه شيئا ليس بالمواساة أو الشفقة ، وهو ما لم يكن يطيقه ، بل شيئا آخر ، ناعما ، رقيقا ، وفي نفس الوقت منذرا بالشر الى اقصى حد ، شيئا يشبه الحقيقة

الرهيبة ، بعث على الفور فى جسده كله البرودة ، وفى روحه يأسا لا يوصف . وفجأة قفز واقفا وقد شحب وجهه وانقلب ، وأمسك برأسه . ووقف هكذا حوالى ربع دقيقة ، وهو يتطلع امامه فى رعب ، محدقا فى نقطة واحدة ، كأنما رأى امامه ذلك الموت القريب الذى تحدث عنه برونى ، ثم جلس واجهش بالبكاء .

وسمع وهو يبكى اصواتا منفعلة :

— كفى ! . . ماذا بك ؟ . . هاتوا ماء ! اشرب قليلا !

وبعد قليل هدأ المعلم ، الا ان المرح السابق لم يعاود المحتفلين . وانتهى الغداء فى صمت وتجهم وفى وقت مبكر بكثير عما كان فى السنوات السابقة .

وعندما عاد صيسويف الى البيت كان اول ما فعله ان نظر فى المرآة .

وقال فى نفسه وهو ينظر الى عينيه بالدوائر السوداء المحيطة بهما والى خديه الغائرين : «ما كان ينبغى طبعا ان استسلم للبكاء هناك ! لون وجهى اليوم احسن بكثير مما كان بالامس . عندى فقر دم والتهاب فى المعدة ، والسعال بسبب المعدة» .

واذ ارتاح الى ذلك راح يخلع ملابسه ببطء وينظف بالمقشة حلته السوداء مدة طويلة ، ثم طواها بعناية وأغلق الكمودينو عليها .

ثم اقترب من الطاولة حيث رصت كومة من دفاتر التلاميذ ، فانتقى من بينها دفتر بابكين ، وجلس واستغرق فى تأمل الخط الطفولى الجميل . . .

وفى تلك الاثناء ، وبينما كان يتفحص املاء تلاميذه ،

كان طبيب المجلس المحلى جالسا فى الغرفة المجاورة ، ويقول همسا لزوجة صيسويف انه ما كان يجوز السماح بالذهاب الى الحفل لرجل لم يبق امامه فى الحياة ، على ما يبدو ، اكثر من اسبوع .

١٨٨٦

الزوج

توقف احد افواج الخيالة اثناء المناورات للمبيت فى مدينة (ك) الريفية الصغيرة . وحَدَثٌ مثل مبيت السادة الضباط يثير دائما مشاعر السكان المحليين الى اقصى درجات الانفعال والحماس . فاصحاب الدكاكين ، الذين يحلمون بتصريف المرتدلا الكاسدة الصدئة و«احسن انواع» السردين المرصوص على الارفف منذ عشر سنوات ، واصحاب الحانات ، وغيرهم من رجال الاعمال ، لا يغلقون ابواب محالهم طوال الليل . ويرتدى الحاكم العسكرى وسكرتيره وجنود الحامية المحلية افضل حللهم . ويهرول رجال الشرطة كالمجانين ، اما النساء فالشيطان وحده يعلم ماذا يحدث لهن !

وعندما سمعت سيدات (ك) باقتراب الفوج ، تركن جانبا قدور المربى الساخنة وهرعن الى الخارج . لم يعبأن بثيابهن المنزلية وهيآتهن المشعثة وانطلقن لاهثات مبهورات لملاقاة الفوج وهن يصغين بنهم الى انغام المارش . ولو نظرت الى وجوههن الشاحبة المتحمسة لخيل اليك ان هذه الانغام لم تكن تتردد من أبواق الجنود بل من السماء .

وتصايحن بسرور :

— الفوج ! الفوج قادم !

فما الذى كن يبغينه من هذا الفوج الغريب ، الذى عرج على المدينة صدفة وسيرحل غدا فى الفجر ؟ وفيما بعد ، حينما وقف السادة الضباط وسط الميدان ، عاقدين اذرعهم خلف ظهورهم ، وهم يبحثون مسألة الايواء ، كانت السيدات مجتمعات فى شقة زوجة المحقق ويتسابقن فى انتقاد الفوج . ولا يعلم الا الله من اين عرفن ان قائد الفوج متزوج ، لكنه لا يعاشر زوجته ، وان كبير الضباط يولد له كل عام اطفال ميتون ، وان الياور غارق فى حب كونتيسة ما بلا امل ، بل حاول الانتحار مرة . كن يعرفن كل شيء . وعندما مر من امام النوافذ جندى مجدور الوجه ، فى قميص احمر كن يعلمن تمام العلم انه جندى مراسلة الملازم ريمزوف ، وانه يهرول فى المدينة بحثا لسيده عن فودكا انجليزية مع تأجيل الدفع . ولم يكنَّ قد رأين الضباط الا لمحا ، ومن ظهورهم ، الا انهن قد قررن انه لا يوجد بينهم ضابط واحد جميل أو جذاب . . . وبعد ان شبعن من الكلام طلبن ان يأتى اليهن الحاكم العسكرى ورئاسة النادى ، وامرنهم باقامة حفل راقص مهما كان الامر .

ونفذت رغبتهن . وفى التاسعة مساء دوت امام النادى انغام اوركسترا عسكرية ، وفى داخل النادى نفسه كان السادة الضباط يرقصون مع سيدات مدينة (ك) . واحست السيدات انهن يحلقن باجنحة . ثملن من الرقص والموسيقى وصليل المهاميز ، فاستسلمن بكل قلوبهن للتعارف العابر ، ونسين تماما رجالهن المدنيين . وتجمع اباؤهن وازواجهن ، الذين تراجعوا الى اقصى خلفية الصورة ، حول البوفيه الهزيل فى المدخل . كان كل هؤلاء الصيارفة والسكرتيرون والمفتشون ،

ذوو الوجوه السقيمة ، والبواسير والملابس المهدلة يدركــــون ضآلتهم تمام الادراك فلم يدخلوا الصالة ، بل راحوا يتطلعون من بعيد الى زوجاتهم وبناتهم وهن يراقصن الضباط المهرة ذوى الاجسام الرشيقة .

وكان من بين الازواج مأمور ضرائب رسوم الانتاج كيريل بتروفتش شاليكوف ، وهو مخلوق ثمل ، ضيق وخبيث ، ذو رأس كبير حليق وشفتين سمينتين متدليتين . كان فى وقت ما طالبا فى الجامعة ، يقرأ بيساريف ودوبرولوبوف * ، ويغنى الاغانى ، اما الآن فيقول عن نفسه أنه مساعـد اعتبارى ** ولا شيء اكثر . وقف مرتكزا على قائم الباب دون أن يحول نظره عن زوجته . وكانت زوجته ، آنّا بافلوفنا ، وهى سيدة صغيرة ، سوداء الشعر ، طويلة الانف ، فى حوالى الثلاثين ، حادة الذقن ، مزينة بالمساحيق ومشدودة بالكورسيه ، ترقص بلا توقف الى درجة الاعياء . وقد ارهقها الرقص ، ولكن التعب كان تعبا جسديا لا روحيا . . . كانت هيئتها كلها تطفح بالاعجاب والاستمتاع . كان صدرها يختلج ، ولمعت على خديها بقع حمراء ، وكانت كل حركاتها فاترة ، ناعمة . وبدا واضحا انها كانت ، وهى ترقص ، تتذكر الماضى ، ذلك الماضى البعيد ، عندما

---

* ديمترى بيساريف (١٨٤٠ — ١٨٦٨) ونيقولاى دوبرولوبوف (١٨٢٦ — ١٨٦١) ناقدان أدبيان وصحفيان من كبار ممثلي الثوريين الديمقراطيين فى القرن التاسع عشر . **المعرب** .

** من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية . **المعرب** .

كانت ترقص وهى طالبة فى المعهد وتحلم بحياة مترفة مرحة ، وعندما كانت واثقة من انها ستتزوج حتما من بارون أو أمير .

وأخذ مأمور الضرائب يتطلع اليها مقطب الوجه من الغيظ . . . لم يكن يشعر بالغيرة ، الا انه كان متضايقا من انه : اولا ، بسبب الرقص ، لم يكن هناك مكان للعب الورق ، وثانيا لأنه كان لا يطيق الموسيقى ، وثالثا لأن السادة الضباط ، كما بدا له ، كانوا يعاملون المدنيين باهمال وتعال بالغين ، ورابعا ، وهو الأهم ، فقد أثار سخطه وأجج غضبه تعبير الغبطة على وجه زوجته . . .

ودمدم :

— منظر كريه ! عما قريب ستبلغ الأربعين ، لا مال ولا جمال ، ومع ذلك تزينت وتصففت ، ولبست الكورسيه ! تتدلل وتتقصّع ، وتظن ان ذلك يبدو جميلا . . . يا سلام ، ما أروعك يا سيدتى !

استسلمت آنّا بافلوفنا للرقص تماما ، حتى انها لم تنظر الى زوجها نظرة واحدة .

وقال المأمور بكراهية :

— طبعا ، وماذا نكون نحن الفلاحين ! نحن الآن خارج الهيئة . . . نحن افيال بحر ، دببة ريفيون ! اما هى فأميرة الحفل . ما زالت تحتفظ بشبابها الى درجة انها تثير اهتمام الضباط ، بل وربما وقع أحدهم فى غرامها .

واثناء رقصة المازوركا تقلص وجه المأمور تماما من شدة الغيظ . كان هناك ضابط اسود الشعر ، جاحظ العينين ذو وجنتين تتريتين بارزتين يراقص آنّا بافلوفنا . وكان يعمل بساقيه فى جدية ، وقد اكتسى وجهه بتعبير صارم ، وأخذ

يلوى ركبتيه بشدة حتى انه كان مثل الدمية الخشبية التى يشدونها بالخيوط فتتحرك . اما آنا بافلوفنا فكانت شاحبة مرتجفة ، وقد ثنت قوامها بفتور وقلبت عينيها ، محاولة ان تبدو وكأنها لا تكاد تلمس الأرض ، والظاهر انه خيل اليها انها ليست على الأرض ، فى ناد ريفى ، بل فى مكان بعيد ، فوق السحاب ! لم يكن وجهها وحده الذى يعبر عن الغبطة بل جسدها كله . . . ولم يعد فى وسع مأمور الضرائب ان يحتمل . أحس برغبة فى السخرية من هذه الغبطة ، واشعار آنا بافلوفنا بأنها غابت عن وعيها ، وبان الحياة ليست أبدا بهذه الروعة التى تبدو لها الآن وهى سكرى بالنشوة . . .

ودمدم قائلا :

— مهلا ، سوف أريك كيف تبتسمين بغبطة ! لست طالبة او بنتا صغيرة . الشمطاء يجب ان تعرف انها شمطاء !

تحركت فى صدره كما تتحرك الفئران احاسيس خسيسة بالغيرة والحنق ، والكبرياء المهان ، والكراهية الريفية المحدودة ، تلك الكراهية التى تعشش فى نفوس الموظفين الصغار بسبب الفودكا وحياة الجلوس الى المكاتب . . . وانتظر حتى انتهت المازوركا ثم دخل الصالة واتجه نحو زوجته . كانت آنا بافلوفنا فى ذلك الوقت جالسة مع مراقصها وهى تخفق بالمروحة ، وتزر عينيها بدلال وتروى كيف رقصت فى وقت ما فى بطرسبرج . (كانت تزم شفتيها على شكل قلب وتلفظ الحروف هكذا : «عندنا فى بيوتيورسبيورج») .

وقال المأمور بصوت متحشرج :

— اليونا ، هيا الى البيت !

وعندما رأت آنا بافلوفنا زوجها أمامها انتفضت فى البداية وكأنما تذكرت ان لديها زوجا ، ثم تضرجت خجلا . شعرت بالخجل من ان لها زوجا سقيما ، عبوسا ، عاديا كهذا . . .

وكرر المأمور :

— هيا الى البيت !

— لماذا ؟ الوقت مبكر .

فقال المأمور متباطئا وبوجه شرير :

— هيا الى البيت أرجوك !

فسألت آنا بافلوفنا بقلق :

— لماذا ؟ هل حدث شيء ؟

— لم يحدث شيء ، ولكنى أريد ان تعودى الى البيت حالا . . . أريد وكفى ، وأرجوك لا داعى للكلام !

لم تكن آنا بافلوفنا تخاف زوجها ، ولكنها شعرت بالخجل امام مراقصها الذى كان ينظر الى المأمور بدهشة وسخرية . فنهضت وانتحت بزوجها جانبا . قالت له :

— ماذا دهاك ؟ لماذا أعود الى البيت ؟ الساعة لم تبلغ حتى الحادية عشرة بعد !

— أنا أريد وانتهينا ! تفضلى عودى وكفى !

— دعك من هذه الحماقات ! اذهب انت اذا أردت .

— حسنا ، سأثير فضيحة !

رأى المأمور كيف تلاشى تعبير الغبطة شيئا فشيئا من وجه زوجته ، وكيف كانت تشعر بالخجل وتعانى ، فأحس بشيء من الراحة .

وسالته زوجته :

— ما حاجتك اليّ الآن ؟

— لست بحاجة اليك ، ولكنى أريد ان تبقى فى البيت . أريد وكفى .

لم ترغب آنا بافلوفنا حتى فى السماع ، ولكنها راحت بعد ذلك تتوسل الى زوجها ان يسمح لها بالبقاء ولو نصف ساعة . ثم أخذت تعتذر وتقسم وهى لا تدرى لماذا تفعل ذلك . كانت تتحدث فى همس وتبتسم ، حتى لا يظن الحاضرون ان هناك خلافا بينها وبين زوجها . ومضت تؤكد له انها لن تبقى طويلا ، فقط عشر دقائق ، فقط خمس دقائق . بيد ان المأمور أصر على موقفه بعناد .

— كما تشائين ، ابقى ! ولكنى سأثير فضيحة .

وبينما كانت آنا بافلوفنا تتحدث مع زوجها ضمرت وهزلت وشاخت . ومضت الى المدخل شاحبة وهى تعض شفتيها وتكاد تبكى ، وبدأت ترتدى معطفها .

وأبدت سيدات (ك) دهشتهن فسألن :

— الى أين ؟ آنا بافلوفنا ، الى أين يا عزيزتى ؟

فرد المأمور نيابة عنها :

— عندها صداع .

وبعد ان خرج الزوجان من النادى سارا فى صمت حتى بلغا البيت . كان المأمور يسير خلف زوجته . وبينما كان ينظر الى قامتها المحنية الذليلة التى هدها الحزن ، تذكر غبطتها التى أثارت حنقه فى النادى ، فامتلأ قلبه باحساس الظفر عندما أدرك ان هذه الغبطة قد تلاشت . كان سعيدا وراضيا ، وفى الوقت نفسه أحس بأن شيئا ما

ينقصه ، وراودته رغبة في أن يعود الى النادى ليصنع شيئا يجعل الجميع يشعرون بالملل والمرارة ، وبضآلة هذه الحياة وسطحيتها عندما تسير هكذا في ظلام الشارع وتسمع بقبقة الوحل تحت قدميك ، وعندما تعرف أنك ستستيقظ غدا في الصباح فلا تجد امامك شيئا آخر سوى الفودكا وأوراق اللعب ! اوه ، ما أفظع ذلك !

اما آنا بافلوفنا فكانت تخطو بالكاد . . . كانت لا تزال تحت تأثير الرقص والموسيقى والاحاديث والبريق والصخب . وسارت وهى تسأل نفسها : ما الذى جنته ليعاقبها الله هذا العقاب ؟ كانت تشعر بالمرارة والمهانة وتكاد تختنق من الحقد الذى اعتمل فى صدرها وهى تسمع خطوات زوجها الثقيلة . ولزمت الصمت وهى تحاول ان تعثر على اكثر الكلمات اهانة ووخزا وسما لترمى بها زوجها ، وفى الوقت نفسه كانت تدرك ان مأمورها لا تؤثر فيه اية كلمات . فماذا تعنى الكلمات بالنسبة له ؟ ولم يكن فى وسع اعدى الاعداء ان يضعها فى حالة اشد عجزا من هذه الحالة .

بينما كانت الموسيقى تدوى ، والظلمة مشبعة بأكثر الانغام رقصا واثارة .

توافه الحياة

توجه نيقولاى ايليتش بليايف ، أحد أصحاب العقارات في بطرسبرج ، ومن المترددين كثيرا على سباق الخيل ، وهو رجل شاب ، فى حوالى الثانية والثلاثين ، ممتلئ الجسم ، وردى البشرة ، توجه ذات مساء الى السيدة أولجا ايفانوفنا ايرنينا التى كان يعاشرها ، أو التى كانت له معها ، على حد تعبيره ، قصة طويلة مملة . وبالفعل ، فالصفحات الأولى من هذه القصة ، تلك الصفحات التى كانت شيقة ملهمة ، قد فرغ من قراءتها منذ أمد بعيد ، وامتدت الصفحات الآن ببطء ، خلوة من أى شيء جديد أو شيق .

وعندما لم يجد بطلنا أولجا ايفانوفنا فى البيت ، استلقى على أريكة فى غرفة الجلوس ، وشرع ينتظرها .

وسمع صوتا طفوليا يقول :

— مساء الخير يا نيقولاى ايليتش . ماما ستعود قريبا . لقد ذهبت مع سونيا الى الخياطة .

فى غرفة الجلوس ذاتها استلقى على الكنبة أليوشا ابن أولجا ايفانوفنا . وهو صبى فى حوالى الثامنة ، رشيق ، معتنى به ، يرتدى سترة مخملية وجوربا طويلا من التريكو الأسود حسب أحدث موضة . كان راقدا على وسادة من الحرير الأطلسى ، ويبدو انه كان يقلد لاعب الاكروبات

الذى رآه مؤخرا فى السيرك ، فقد كان يرفع عاليا ساقيه بالتناوب . وعندما تتعب ساقاه الرشيقتان ، يطلق العنان ليديه ، أو يقفز بحدة ويجثم على أربع محاولا أن يقف على يديه . وكان يفعل ذلك كله بوجه فى غاية الجدية ، وهو يزحر بمعاناة ، وكأنما كان هو نفسه غير راض اذ وهبه الله هذا الجسد القلق .

فقال بلبايف :

— آه ، مرحبا يا صديقى . أهو أنت ؟ لم ألاحظ وجودك . هل ماما بصحة طيبة ؟

تشقلب أليوشا ، الذى أمسك بمشط قدمه اليسرى بيده اليمنى واتخذ وضعا غير عادى تماما ، ثم قفز واقفا ، وأطل على بلبايف من خلف أباجورة كبيرة منتفخة .

وقال وهو يهز كتفيه :

— ماذا أقول لك ؟ ماما فى الواقع لا تشعر بنفسها فى صحة طيبة أبدا . فهى امرأة ، والمرأة ، يا نيقولاى ايليتش ، لديها دائما شىء ما مريض .

ولما لم يكن لدى بلبايف ما يفعله ، فقد راح يتأمل وجه أليوشا . فطوال فترة معرفته بأولجا ايفانوفنا لم يعر الصبى أدنى اهتمام ، ولم يلاحظ وجوده أبدا . . . مجرد صبى يلوح لناظريه ، أما ما سبب وجوده هنا ، وأى دور يؤديه ، فهذا ما لم يشأ ، لأمر ما ، أن يفكر فيه .

وفى عتمة الغسق ذكّره وجه أليوشا ذو الجبين الشاحب والعينين السوداوين غير البراقتين ، ذكره على غير توقع بأولجا ايفانوفنا عندما كانت فى أولى صفحات القصة . فأحس برغبة فى ملاطفة الصبى .

فقال له :

— تعال هنا يا صغير ! دعنى انظر اليك عن قرب .

وقفز الصبى من فوق الكنبة وركض الى بليايف .

ووضع نيقولاى ايليتش يده على كتف الصبى النحيلة وقال :

— حسنا ؟ ماذا ؟ كيف الحال ؟

— ماذا أقول لك ؟ كان الحال فى السابق أفضل بكثير .

— لماذا ؟

— بسيطة جدا ! فى السابق كنت أنا وسونيا ندرس الموسيقى والقراءة فقط ، أما الآن فعلينا أن نحفظ اشعارا بالفرنسية . أنت حلقت منذ وقت قريب .

— نعم ، منذ وقت قريب .

— لقد لاحظت ذلك . أصبحت لحيتك أقصر . اسمحى لى أن ألمسها . . . ألا يؤلمك ؟

— كلا ، لا يؤلمنى .

— وما السبب انك عندما تشد شعرة واحدة تشعر بالألم وعندما تشد شعرا كثيرا لا تشعر أبدا بأى ألم ؟ ها — ها ! أتدرى ، خسارة أنك لا تطلق سوالفك . لو حلقت هنا قليلا ، اما هنا ، من الجنبين ، فتترك الشعر . . .

والتصق الصبى ببليايف وراح يعبث بسلسلته . وقال :

— عندما أدخل المدرسة ستشترى لى ماما ساعة . وسأطلب منها أن تشترى لى سلسلة مثل هذه . . . أوه ، يا لها من مدلاة ! بابا عنده مدلاة مثلها بالضبط ، ولكن عندك هنا خطوط أما هو فعنده حروف . . . وفى الوسط

عنده صورة ماما . أصبح لدى بابا الآن سلسلة أخرى .
ليست حلقات ، بل شريطا . . .

— ومن أين عرفت ؟ هل تقابل بابا ؟

— أنا ؟ مم . . . لا ! أنا . . لا

أحمر أليوشا وراح يخدش المدلاة بظفره باهتمام وهو في ارتباك شديد من اكتشاف كذبه . وحدق بليايف في وجهه مليا ثم سأله :

— هل تقابل بابا ؟

— لـ . . . لا !

— لا ، خبرنى بصراحة . . فأنا أرى من وجهك انك تكذب . . . ما دمت قد ثرثرت فلا داعى اذن للمراوغة . قل ، هل تراه ؟ خبرنى كأصدقاء .

واستغرق أليوشا في التفكير . ثم سأل :

— ألن تقول لماما ؟

— وهل هذا معقول !

— كلمة شرف ؟

— كلمة شرف .

— اقسم !

— أوه يا لك من صعب ! من تظننى ؟

تلفت أليوشا حواليه ، واتسعت عيناه وقال هامسا :

— لكن استحلفك ألا تقول لماما . . . وعموما لا تقل لأحد لأنه سر . لو عرفت ماما ، لا قدر الله ، فسيحل العقاب بـى وبسونيا وبيلاجيا . . حسنا ، اسمع . أنا وسونيا نقابل بابا كل ثلاثاء وجمعة ، عندما تصحبنا بيلاجيا للتنزه قبل الغداء ، نذهب الى محل حلوى «أبفل» ، وهناك

يكون بابا فى انتظارنا . . . وهو دائما يجلس فى غرفة مستقلة ، أتدرى ، تلك الغرفة التى بها طاولة مرمرية وطفاية على شكل أوزة بدون ظهر . . . .

— وماذا تفعلون هناك ؟

— لا شىء ! فى البداية نتبادل التحية ، ثم نجلس جميعا الى الطاولة ويضيفنا بابا قهوة وشطائر . أتدرى ، سونيا تأكل شطائر باللحم ، أما أنا فلا اطيق شطائر اللحم ! انا احب الشطائر بالكرنب والبيض . ونأكل حتى الشبع ، الى درجة اننا فيما بعد ، اثناء الغداء ، نحاول أن نأكل اكثر حتى لا تلاحظ ماما أننا سبق أن أكلنا .

— وعم تتحدثون هناك ؟

— مع بابا ؟ عن كل شىء . وهو يقبلنا ويعانقنا ، ويروى لنا مختلف النكات والحوادث المضحكة . اتدرى ، انه يقول أننا عندما نكبر فسوف يأخذنا اليه . وسونيا لا تريد ، أما أنا فموافق . بالطبع سأشتاق الى ماما ، ولكنى سأكتب لها رسائل ! شىء غريب . . . سيكون بامكانى أن أزورها فى الأعياد ، أليس كذلك ؟ ويقول بابا ايضا انه سيشترى لى حصانا . شخص طيب جدا ! أنا لا أدرى لماذا لا تدعوه ماما للعيش معنا وتحرم علينا مقابلته . انه يحب ماما جدا . ودائما يسألنا عن صحتها وعما تفعله . وعندما كانت مريضة امسك رأسه بيديه هكذا و . . . أخذ يهرول . . . ودائما يطلب منا أن نطيعها ونحترمها . اسمع ، هل صحيح أننا تعساء ؟

— هِمْ . . . ولماذا ؟

— بابا يقول هذا . يقول : أنتم أطفال تعساء .

غريب أن تسمع منه هذا الكلام . يقول : أنتم تعساء ، وأنا تعيس ، وماما تعيسة . صلوا لله من أجلكم ومـــن أجلها .

وتوقفت نظرة أليوشا على طائر محنط ، واستغرق فى التفكير .

وقال بلبايف بصوت كالخوار .

— هكذا . . . اذن فأنتم تعقدون المؤتمرات فى محلات الحلوى . وماما لا تعرف ؟

— لا . . . ومن أين تعرف ؟ بيلاجيا لا يمكن أن تقول لها . وأول أمس ضيفنا بابا كمثرى . حلوة كالمربــى ! أنا أكلت اثنتين .

— هم . . . وهذا . . اسمع ، وبابا لا يقول عنى شيئا ؟

— عنك ؟ ماذا أقول لك ؟

حدق أليوشا فى وجه بلبايف متفحصا ثم هز كتفيه .

— لا يقول شيئا ذا بال .

— وتقريبا ، ماذا يقول ؟

— ألن تغضب ؟

— هل هذا معقول ! أهو يسبنى ؟

— لا يسبك ، ولكن ، أتدرى . . . غاضب عليك . يقول ان ماما تعيسة بسببك ، وأنك . . . قضيت عليها . انه كما تعلم غريب ! اننى أحاول ان افهمه انك طيب ، ولا تصرخ فى ماما أبدا ، ولكنه فقط يهز رأسه .

— اذن فهو يقول أننى قضيت عليها ؟

— نعم ، لا تغضب يا نيقولاى ايليتش !

نهض بليايف ، ووقف قليلا ، ثم أخذ يذرع غرفة الجلوس .

ودمدم وهو يهز كتفيه ويبتسم بسخرية .

— هذا غريب و . . . مضحك ! هو المذنب فى كل شىء ومع ذلك فأنا الذى قضيت عليها ، هه ؟ انظروا ، يا له من حمل وديع . اذن فقد قال لك اننى قضيت على أمك ؟

— نعم ، ولكن . . . لقد قلت انك لن تغضب !

— أنا لست غاضبا و . . . وليس هذا شأنك ! لا ، هذا . . ان هذا مضحك ! أنا الذى وقعت فى مطب ، ثم اذا بـى أنا المذنب !

ودق جرس الباب . فوثب الصبـى من مكانه وانطلق خارجا . وبعد دقيقة دخلت غرفة الجلوس سيدة ومعها طفلة صغيرة . . . كانت تلك أولجا ايفانوفنا ، والدة أليوشا . وتبعها أليوشا وهو يقفز ويغنى بصوت عال ويهز ذراعيه . واومأ بليايف برأسه محييا ، ثم واصل سيره فى الغرفة .

ودمدم وهو يزفر :

— طبعا ، من غيرى الآن يمكن توجيه الاتهام اليه ؟ انه محق ! انه زوج مهان !

فسألت أولجا ايفانوفنا :

— عم تتحدث ؟

— عمّ ؟ . . اذن فلتسمعى المواعظ التى يلقيها زوجك الموقر ! لقد ظهر أننى وغد وشرير ، قضيت عليك وعلى الأولاد . كلكم تعساء ، وأنا السعيد الوحيد ! سعيد الى درجة فظيعة ، فظيعة !

— أنا لا أفهم يا نيقولاى عم تتحدث !

فقال بليايف مشيرا الى أليوشا :

— فلتسمعى اذن هذا السنيور الصغير !

احمر اليوشا ، ثم امتقع فجأة ، وتقلص وجهه كله من الفزع .

وهمس بصوت عال :

— نيقولاى ايليتش ! هس !

ونظرت أولجا ايفانوفنا بدهشة الى أليوشا ، ثم الى بليايف ، ثم الى اليوشا مرة أخرى .

واستطرد بليايف يقول :

— هيا اسأليه ! خادمتك بيلاجيا ، هذه الحمقاء ، تتردد على محلات الحلوى وترتب اللقاءات هناك مع الوالد المحترم . ولكن ليست هذه هى القضية ، القضية هى ان الوالد المحترم ضحية ، اما أنا فشرير ، سافل ، حطمت حياتكم . . .

فتأوه أليوشا :

— نيقولاى ايليتش ! لقد اعطيتنى كلمة شرف !

فأشاح بليايف بيده :

— ايه ، دعنى ! الأمر الآن أهم من أية كلمات شرف . ما يثير سخطى هو الرياء ، الكذب !

فقالت أولجا ايفانوفنا وقد ترقرقت الدموع فى عينيها :

— أنا لا أفهم ! — وخاطبت ابنها : — اسمع يا لولكا ، هل تقابل أباك ؟

بيد أن أليوشا لم يكن يصغى اليها بل كان يحدق فى بليايف بارتياع .

وقالت الأم :

— مستحيل ! سأذهب الى بيلاجيا واستجوبها .

وخرجت أولجا ايفانوفنا .

فقال اليوشا وبدنه كله يرتجف :

— اسمع ، ألم تعطنى كلمة شرف !

فأشاح بليايف نحوه بيده ومضى يذرع الغرفة . كان مستغرقا فى غضبه ولم يعد يلاحظ وجود الصبى كما فى السابق . لقد كان — وهو الرجل الجاد الكبير — فى شغل عن الصبيان . أما اليوشا فقد انزوى فى الركن ، واخذ يروى لسونيا بارتياع كيف خدع . كان يرتجف ويتلجلج ، ويبكى ، . . . كانت تلك اول مرة فى حياته يصطدم بالكذب وجها لوجه ، وبهذه الفظاظة . لم يكن يعرف من قبل انه يوجد فى هذه الدنيا ، بالاضافة الى الكمثرى الحلوة والشطائر والساعات الثمينة ، كثير من الأشياء الأخرى التى لا أسماء لها فى لغة الأطفال .

١٨٨٦

كلخاس

استيقظ الممثل الكوميدى فاسيلى فاسيليفتش سفيتلوفيدوف ، وهو عجوز ممتلئ الجسم ، قوى البدن ، فى الثامنة والخمسين من عمره ، وتطلع حوله بدهشة . فعلى جانبى مرآة صغيرة أمامه كانت تشتعل بقايا شمعتين . واضاء اللهب الثابت الكسول بوهن غرفة صغيرة بجدران خشبية مطلية معبأة بدخان السجائر وعتمة الغبش . وظهرت فى كل ما يحيط به آثار اللقاء القريب بين ديونيس وملبومينا * ، ذلك اللقاء الذى تم سرا ، ولكنه كان عاصفا وقبيحا كالرذيلة . فعلى الأرض وفوق الكراسى تناثرت سترة وسروال ، وأوراق صحف ومعطف ذو بطانة زاهية وقبعة اسطوانية . وعمت الفوضى والاضطراب المائدة : فقد ازدحمت هنا وأختلطت الزجاجات الفارغة والاكواب ، وثلاثة اكاليل ، وعلبة سجائر مذهبة ، وحامل كوب ، وورقة يانصيب رابحة من سحب القرض الثانى مبللة الحافة ، وعلبة بدبوس ذهبى . وكان هذا الخليط المتنافر

---

* ديونيس — اله الخمر والمرح ، وملبومينا — ربة التراجيديا فى الاساطير الاغريقية . **المعرب** .

مغطى بسخاء باعقاب السجائر ورمادها ، وبقطع صغيرة من رسالة ممزقة . أما سفيتلوفيدوف نفسه فكان جالسا فى كرسى فوتيل وفى حلة كلخاس * . وقال الممثل الكوميدى وهو يتطلع حوله :

— يا ربى ، اننى فى غرفة الملابس ! أما حكاية ! متى نعست يا ترى ؟

وأصاخ السمع . كان الصمت مطبقا كصمت القبور . وذكرته علبة السجائر وورقة اليانصيب الرابحة على الفور بأن اليوم كان يوم حفلته «البنيفيس» ** ، وانه حظى بنجاح كبير ، وانه شرب الكثير من الكونياك والنبيذ الأحمر فى فترات الاستراحة مع محبيه الذين كانوا يقتحمون عليه غرفة الملابس .

وكرر تساؤله :

— متى نعست يا ترى ؟ آه ، يا لى من عجوز مخرف ! ماذا ايها الكلب العجوز ! ألهذه الدرجة تسكر حتى تنام جالسا فى المقعد ! شاطر !

وأحس الممثل الكوميدى بالمرح . انفجر فى ضحك ثمل يتخلله السعال ، وتناول احدى الشمعتين ، وخرج من غرفة الملابس . كانت خشبة المسرح خاوية ومظلمة . ومن عمق الخشبة وجانبيها ، ومن الصالة هب نسيم خفيف ولكنه

---

* الكاهن كلخاس — احدى شخصيات أوبريت «هيلينا الرائعة» لأوفينباخ . . مقامر ، عربيد يعشق الذهب . **المعرب** .

** حفلة يخصص ايرادها (او جزء منه) لصالح الممثل . **المعرب** .

محسوس . كانت تيارات الهواء تجول كالأرواح فوق الخشبة وهى تتصادم وتدوّم وتداعب لهيب الشمعة . وتراقص اللهيب وتلوى فى جميع الاتجاهات ملقيا ضوء ضعيفا تارة على صف الأبواب المفضية الى غرف الملابس ، وتارة على الكواليس الحمراء حيث كان ثمة دلو ، وتارة على اطار كبير ملقى وسط الخشبة .

وصاح الممثل :

— يجوركا ، يجوركا ، ايها الشيطان ، بتروشكا ! نام الشياطين عليهم اللعنة ! يجوركا !

ورد الصدى :

— آ . . . آ . . . آ . . .

وتذكر الممثل أنه قد منح كلا من يجوركا وبتروشكا ثلاثة روبلات ليشربا فودكا بمناسبة «البنيفيس» . ومن غير المحتمل ، بعد هذه المنحة السخية ، ان يمكثا فى المسرح للمبيت .

تأوه الممثل وجلس على كرسى بلا مسند ، ووضع الشمعة على الأرض . كان رأسه ثقيلا ثملا ، وقد بدأت الكمية الهائلة التى شربها من البيرة والنبيذ والكونياك «تحترق» لتوها فى جسده كله ، وأحس بالضعف والخوار بسبب نومه جالسا .

ودمدم وهو يبصق :

— سرية خيالة باتت فى فمى . . . آه ، يالى من عجوز أحمق ! ما كان يجب ان اشرب ! ما كان يجب ! ظهرى يؤلمنى ، ورأسى يكاد ينفجر ، وجسدى كله يرتجف . . . انها الشيخوخة .

ونظر أمامه . . . كانت تلوح بالكاد كوشة الملقن والمقصورات الخاصة وحاملات النوت الموسيقية ، أما الصالة كلها فكانت تبدو كحفرة سوداء بلا قرار ، كشدق مفغور تطل منه ظلمة باردة صارمة . . . كانت الصالة عادة متواضعة مريحة ، الا انها بدت الآن ، ليلا ، عميقة بلا حدود ، مقفرة كالقبر ، قاسية . . . وحدق الممثل فى الظلام ثم فى الشمعة ومضى يقول بتذمر :

— نعم ، الشيخوخة . . . مهما لففت ودرت ، وتصنعت الشجاعة ، ومهما تغابيت ، فقد بلغت الثامنة والخمسين . . خلاص ! قل على الحياة السلام ! نعم يا فاسنكا * . . . لقد خدمت على الخشبة ٣٥ سنة ، ولكنى فيما يبدو أرى المسرح ليلا لأول مرة . . . يالها من مفارقة ، أى والله . . . نعم ، لاول مرة ! شىء مرعب ، يا للشيطان ! . . — وصاح وهو ينهض — يجوركا !

ورد الصدى :

— آ . . آ . . آ . .

ودوت مع الصدى فى وقت واحد أجراس صلاة الصبح فى مكان بعيد ، وكأنما انبعثت من أعماق الشدق المفغور . ورسم كلخاس علامة الصليب . ثم صاح :

— بتروشكا ! اين انتم ايها الشياطين ؟ يا الهى لماذا اذكر اسم الشيطان ؟ دع عنك هذه الكلمات ، كفّ عن الشراب فقد هرمت ، آن أن تموت ! فى الثامنة

---

* تدليل من الاسم الكامل فاسيلى . **المعرب** .

والخمسين يذهب الناس لصلاة الصبح ، يستعدون لمفارقة الموت . . . وأنت . . . أوه يا الهى !

ودمدم :

— الرحمة يارب ، هذا مرعب ! لو قضيت الليلة هنا بهذه الصورة فقد أموت من الخوف . هذا هو المكان الحقيقى لتحضير الارواح !

وازداد رعبا عند ذكر كلمة «الأرواح» . . . أثارت التيارات المتجولة وذبذبة البقع الضوئية خياله وألهبته الى أقصى درجة . . . فانكمش وضمر ، وانحنى ليلتقط الشمعة ، وللمرة الاخيرة تطلع خلسة وبخوف طفولى الى الحفرة المظلمة . كان وجهه الذى شوهه المكياج متبلدا خاليا من أى معنى تقريبا . وقبل ان تصل يده الى الشمعة قفز واقفا وحملق فى الظلام بنظرة جامدة . وقف صامتا حوالى نصف دقيقة ، ثم أمسك برأسه وخبط بقدميه وقد تملكه فزع غير عادى . . .

وصرخ الممثل بصوت حاد غير طبيعى :

— من أنت ؟ من أنت ؟

فى احدى المقصورات الخاصة وقف شبح بشرى أبيض . وعندما كان الضوء يسقط ناحيته يصبح من الممكن ان تميز فيه يدين ورأسا بل ولحية بيضاء .

وكرر الممثل بصوت يائس :

— من أنت ؟

رفع الشبح الأبيض ساقه وعبر حاجز المقصورة وقفز الى موضع الاوركسترا ، ثم سار نحو خشبة المسرح بلا صوت كالظل .

وتمتم وهو يصعد الى الخشبة :

— انه انا !

فصرخ كلخاس وهو يتراجع :

— من ؟

— أنا . . أنا . . نكيتا ايفانيتش . . . الملقن . عفوا ، لا داعى للقلق .

تهالك الممثل على المقعد خائر القوى وطأطأ رأسه . كان يرتجف وقد افقده الرعب صوابه .

اقترب منه رجل طويل ، معروق ، أصلع ، بلحية شيباء ، حافى القدمين وفى الملابس الداخلية فقط ، وقال :

— انه أنا ! انه انا ! الملقن .

فنطق الممثل وهو يمسح براحته على جبينه ويتنفس بصعوبة :

— يا الهى . . . أهو انت يا نيكيتوشكا ؟ * . . لماذا . . . لماذا أنت هنا ؟

— انا هنا أبيت فى المقصورة الخاصة . . . ليس عندى مكان آخر للمبيت . . . لكن أرجوك ألا تقول لأليكسى فوميتش .

— هذا أنت يا نيكيتوشكا . . . — دمدم الممثل الخائر مادا يده المرتعشة نحوه — يا الهى ، يا الهى ! . . . طلبونى للظهور ست عشرة مرة ، وحملوا لى ثلاثة أكاليل وهدايا كثيرة . . . كانوا جميعا معجبين ، ولكن لم يوقظ أحد العجوز السكران ولم يحمله الى البيت . أنا عجوز يا نيكيتوشكا .

---

* تدليل من الاسم الكامل نكيتا . **المعرب** .

عمرى ٥٨ سنة . مريض ! روحى الضعيفة تتعذب .

وهمّ الممثل نحو الملقن وأطبق على يده وبدنه كله يرتعش .

ودمدم وكأنما يهذى :

— لا تتركنى يا نيكيتوشكا . . . انا عجوز ، ضعيف . . . على وشك الموت . . انا خائف !

فقال نيكيتوشكا برقة :

— آن لك ان تذهب الى البيت يا فاسيليتش !

— لن أذهب . لا بيت لى . كلا ، كلا !

— رحماك يارب ! لقد نسيت أين تسكن ؟

— لا أريد ان اذهب الى هناك ، لا أريد . . . —

دمدم الممثل فى لوعة . — هناك أنا وحيد . . ليس عندى أحد يا نيكيتوشكا ، لا أهل ، ولا زوجة ، ولا أولاد . . . وحيد كالريح فى الخلاء . . . لو مت فلن يذكرنى أحد .

انتقلت عدوى الرعشة من الممثل الى نيكيتوشكا . . . كان العجوز الثمل المنفعل يهز يد الملقن وهو يعصرها بعصبية ويلوثها بخليط المكياج والدموع . وانكمش نيكيتوشكا من البرد وطوى كتفيه .

ودمدم كلخاس :

— انا خائف من وحدتى . . . ليس هناك من يلاطفنى أو يعزينى ، أو يضعنى ، انا الثمل ، فى الفراش . لمن انا ؟ من بحاجة الىّ ؟ من يحبنى ؟ لا أحد يحبنى يا نيكيتوشكا !

— الجمهور يحبك يا فاسيلى فاسيليتش !

— الجمهور انصرف ، وهو الآن نائم . . كلا ، لا

احد بحاجة الى ، لا احد يحبنى . . لازوجة لى ولا أطفال .

— يا سلام ، وجدت ما تأسف عليه .

— ولكنى انسان ، حّى . . أنا نبيل يا نيكيتوشكا ، من أصل كريم . . قبل أن اسقط فى هذه الحفرة كنت فى الخدمة العسكرية ، فى سلاح المدفعية . كنت فتى وأى فتى ، كنت جميلا ، مندفعا ، جريئا . . . وأيّ ممثل كنت ، يا الهى ، يا الهى ! أين ذهب ذلك كله ، اين ذلك العهد ؟

نهض الممثل معتمدا على يد الملقن ، وطرفت عيناه بشدة كأنه خرج من الظلام الى غرفة ساطعة النور . وسالت على خديه دموع غزيرة مخلفة خطوطا من أصباغ الماكياج . . .

واستطرد يهذى :

— يا له من عهد ! نظرت لتوى الى هذه الحفرة فتذكرت كل شيء . . . كل شيء ! هذه الحفرة ابتلعت ٣٥ سنة من عمرى يا نيكيتوشكا ! انظر اليها الآن فأرى كل شيء بأدق تفاصيله كما أرى وجهك ! . . اذكر عندما كنت ممثلا شابا ، وبدأت تتملكنى وقدة الحماس ، احبتنى احداهن لأدائى . . . كانت جميلة ، رشيقة كشجرة حور ، فتية ، بريئة ، ذكية ، حارة كفجر صيفى ! كنت على يقين من أنه لو اختفت الشمس من السماء فستبقي الارض رغم ذلك منيرة ، لأنه ما كان بوسع أي ظلام أن يصمد أمامها !

كان كلخاس يتحدث بحرارة وهو يهز رأسه ويده . . . وأمامه وقف نيكيتوشكا يصغى اليه حافيا وفى ملابسه الداخلية فقط . ولفهما كليهما الظلام الذى لم يكن ضوء الشمعة

الواهن قادرا على تبديده . كان ذلك مشهدا غريبا ، غير عادى ، لم ير مثله أى مسرح فى العالم ، ولم يكن هناك من مشاهدين سوى الحفرة السوداء الصماء . . .

ومضى كلخاس يقول مختنقا :

— لقد أحبتنى ، ثم ماذا ؟ اذكر وقفتى أمامها كما أقف أمامك الآن . . . كانت رائعة فى تلك المرة كما لم تكن أبدا من قبل ، وكانت تنظر الىّ بعينين لن أنساهما حتى الممات ! الرقة ، المخمل ، بريق الشباب ، العمق ! كنت ثملا بالنشوة ، سعيدا ، فجثوت أمامها على ركبتى سائلا السعادة . . .

التقط الممثل انفاسه وقال بصوت خائر :

— قالت لى : اترك المسرح ! هل تفهم ؟ كانت تستطيع أن تحب ممثلا ، أما ان تصبح زوجته فلا ، مستحيل ! اذكر اننى فى ذلك اليوم كنت أمثل الـ . . . كان دورا حقيرا ، دور مهرج . وكنت أمثل بينما احشائى تتمزق أسى وقلقا . . . لم اهجر المسرح ، كلا ، ولكن الحقيقة تكشفت لى أنذاك ! . . ادركت انى عبد ، لعبة فى أيدى أناس فارغى البال ، وانه ليس هناك فن مقدس ، بل كل ذلك هذيان وخداع . فهمت ما هو الجمهور ! ومنذ ذلك الوقت لم أعد أصدق التصفيق أو الأكاليل أو الاعجاب ! نعم يا أخى ! المتفرج يصفق لى ، ويشترى صورتى بروبل ، ومع ذلك فأنا غريب بالنسبة له ، أنا عنده قذارة ، غانية تقريبا ! وهو يريد التعرف بـى ارضاء لغروره ، لكنه لن يهين نفسه بتزويجى أخته أو ابنته ! أنا لا أصدقه ، امقته ، انه غريب بالنسبة لى !

فقال الملقن بوجل :

— آن لك ان تعود الى البيت .

فصاح كلخاس مهددا الحفرة السوداء بقبضته :

— افهمهم تمام الفهم ! . . من يومها فهمت . . . سقطت الغشاوة عن عينى شابا فرأيت الحقيقة . . . ودفعت ثمن هذه الصحوة غاليا يا نيكيتوشكا . . . اصبحت بعد تلك الواقعة ، بعد تلك الفتاة ، أصبحت أهيم بلا معنى ، أعيش دون جدوى ، ولا أنظر للمستقبل . . . لعبت أدوار المهرجين ، وسخرت ، وأفسدت العقول . . . ابتذلت لسانى وشوهته ، أضعت نفسى وكرامتى . . ايه ، ايه ! التهمتنى هذه الحفرة . لم أشعر بذلك قبلا ، أما اليوم . . . عندما استيقظت ، نظرت الى الوراء ، فاذا ورائى ٥٨ سنة ! الآن فقط أحسست بالشيخوخة ! ضاع العمر !

وظل كلخاس يرتعش ويختنق . . . وبعد ذلك بفترة ، عندما قاده نيكيتوشكا الى غرفة الملابس وراح ينزع عنه ملابسه ، تداعى كلخاس وخار ، لكنه لم يكف عن الدمدمة والبكاء .

١٨٨٦

الخطيب

ذات صباح رائع جرى دفن المساعد الاعتبارى كيريل ايفانوفتش فافيلونوف ، الذى توفى من جراء مرضين جد منتشرين فى بلادنا : الزوجة الشريرة ، وادمان الخمر. وعندما تحرك موكب الجنازة من الكنيسة الى المقابر ، استقل أحد زملاء المتوفى ، المدعو بوبلافسكى ، عربة وانطلق الى صديقه جريجورى بتروفتش زابويكين ، وهو رجل شاب ولكنه مشهور الى حد كبير . وزابويكين ، كما يعرف كثير من القراء ، رجل ذو موهبة نادرة فى ارتجال خطب الزفاف والمناسبات اليوبيلية والتأبين . وبوسعه ان يخطب فى أى وقت : اثر الاستيقاظ مباشرة ، وعلى الريق ، وفى حالة السكر الفظيع ، وأثناء الحمى . وينساب كلامه ناعما ، سلسا كما يسيل الماء من ميزاب ، وغزيرا . وفى قاموسه الخطابى من كلمات الرثاء أكثر مما فى أية حانة من صراصير. وخطبه دائما فصيحة ، طويلة حتى انهم احيانا ، وخاصة فى أعراس التجار ، يضطرون للجوء الى الشرطة لايقافه عن الكلام .

وقال بوبلافسكى عندما وجده فى البيت :

— اننى اقصدك يا أخى ! البس بسرعة وهيا بنا .

لقد توفى احد زملائنا ، والآن نشيعه الى العالم الآخر ، ومطلوب يا أخى ان تقول فى وداعه بعض الهراء . . . الأمل كله فيك . لو كان المتوفى من صغار الموظفين لما أزعجناك ، ولكنه سكرتير . . . يعنى من أعمدة الادارة . ومن غير اللائق أن ندفن هذا الرأس الكبير بدون خطبة .

فقال زابويكين متثائبا :

— آه ، السكرتير ! أهو ذلك السكير ؟

— نعم ، السكير . ستكون هناك شطائر ومزّات . . . وستمنح أجرة العربة . هيا يا عزيزى ! فلتلق على قبره خطبة عصماء أفصح من خطب شيشرون ، وستتلقى كل الشكر !

وافق زابويكين عن طيب خاطر . نكش شعره ، وأضفى على وجهه سيماء الكآبة وخرج مع بوبلافسكى .

وقال وهما يجلسان فى العربة :

— أعرف سكرتيركم هذا . قَلَّ أن تجد أفاقا وشيطانا مثله ، عليه الرحمة .

— لا يصح يا جريشا أن تشتم الموتى .

— أنت محق ، طبعا aut mortuis nihil bene* ولكنه مع ذلك محتال .

لحق الصديقان بركب الجنازة وانضما اليه . وكانوا

---

* تعبير محرف عن اللاتينية ومعناه هنا «لا يذكر الموتى الا بسوء» وأصله فى اللاتينية de mortuis aut bene aut nihil ومعناه «اما ان تذكر الموتى بالحسنى او لا تذكرهم بشىء» . **المعرب** .

يحملون المتوفى ويسيرون به ببطء فتمكن الصديقان قبل بلوغ المقابر من أن يعرجا ثلاث مرات على الحانات ويشربا في ذكرى المرحوم .

واقيمت صلاة الميت فى المقابر . وجريا على العادة بكت زوجته وأختها وحماته كثيرا . وعندما انزل التابوت الى القبر صاحت زوجته «ادفنونى معه !» لكنها لم تنزل الى القبر وراء زوجها ربما لأنها تذكرت المعاش . وانتظر زابويكين حتى عمّ الهدوء ، ثم تقدم الى الأمام ، وطاف على الحاضرين بنظراته ، وقال :

— هل نصدق سمعنا وأبصارنا ؟ أليس حلما رهيبا هذا التابوت وهذه الأوجه الباكية ، وهذا الأنين والنحيب ؟ يا للحسرة ، هذا ليس حلما ، وأبصارنا لا تخدعنا ! ان ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب مكتمل الصحة ، فى أوج شبابه وبهائه ونضارته ، ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب يضع ، كالنحلة ، عسله فى الخلية العامة لبناء الدولة ، ذلك الذى . . . هو بعينه أصبح الآن ترابا ، أصبح سرابا ماديا . لقد أطبقت عليه قبضة الموت الذى لا يرحم عندما كان ، رغم عمره المتأخر ، مفعما بالقوة المتأججة والأحلام المشرقة . فيالها من خسارة لا تعوض ! من ذا الذى يعوضنا عنه ؟ لدينا الكثير من الموظفين الممتازين ، ولكن بروكوفى أوسيبوفتش كان الوحيد بينهم . لقد كان مخلصا من صميم قلبه لواجبه الشريف ، ولم يرحم نفسه ، لم ينم الليل ، وكان مثلا للتفانى والنزاهة . . . كم كان يحتقر اولئك الذين يحاولون رشوته على حساب المصلحة العامة ، اولئك الذين حاولوا بخيرات الحياة المغرية دفعه الى خيانة

واجبه ! نعم ، لقد راينا باعيننا كيف كان بروكوفى اوسيبوفتش يوزع راتبه الصغير على رفاقه المعوزين ، وها قد سمعتم الآن عويل الأرامل واليتامى الذين كانوا يعيشون على حسناته . لقد كان مخلصا لواجبه الوظيفى ولأعمال الخير فلم يذق ملذات الدنيا ، بل حرم نفسه حتى من سعادة الحياة العائلية . فأنتم تعرفون انه ظل عازبا حتى آخر ايام عمره ! ومن ذا الذى يعوضنا عنه رفيقا ؟ كأنى أرى الآن وجهه الحليق البشوش الذى يهل علينا بابتسامة طيبة ، وكأنى أسمع الآن صوته الناعم الودود الرقيق . طيب الله ثراك يا بروكوفى أوسيبوفتش ! فلتنعم بالسكينة أيها الكادح الشريف النبيل !

ومضى زابويكين يخطب بينما أخذ المستمعون يتوشوشون . أعجب الجميع بالخطبة ، التى استدرت بعض الدموع ، ولكن الكثير فيها بدا لهم غريبا . فأولا : لم يكن مفهوما لماذا دعا الخطيب المرحوم باسم بروكوفى أوسيبوفتش بينما كان اسمه كيريل ايفانوفتش . وثانيا : كان الجميع يعرفون ان المرحوم ظل طوال حياته يصارع زوجته الشرعية ، وبالتالى فلا يمكن ان يكون عازبا . وثالثا : فقد كانت لديه لحية غزيرة حمراء ، ولم يحلق ذقنه قط ، ولذا فلم يكن مفهوما لماذا وصف الخطيب وجهه بالحليق . أبدى السامعون استغرابهم وتبادلوا النظرات ، وهزوا أكتافهم .

ومضى الخطيب يقول بحماس وهو ينظر فى القبر :

— يا بروكوفى أوسيبوفتش ! لم يكن وجهك جميلا ، بل حتى كان قبيحا ، متجهما صارما ، ولكننا كنا نعرف جميعا ان هناك ، تحت هذه القشرة الظاهرة ، ينبض قلب شريف ودود !

وسرعان ما بدأ السامعون يلاحظون شيئا غريبا على الخطيب نفسه . فقد ثبت بصره على نقطة واحدة ، ثم أخذ يتململ بقلق ، وراح يهز كتفيه . وفجأة صمت ، وفغر فاه بدهشة ، والتفت الى بوبلافسكى .

وقال وهو ينظر برعب :

— اسمع ، انه حىّ !

— من الحيّ ؟

— بروكوفى أوسيبوفتش ! ها هو يقف هناك بجوار التمثال !

— انه لم يمت أصلا ! كيريل ايفانيتش هو الذى مات !

— ألم تقل لى أن سكرتيركم مات ؟

— كيريل ايفانيتش كان سكرتيرا . يا لك من مضحك ، لقد خلطت الأمور ! صحيح أن بروكوفى أوسيبوفتش كان سكرتيرا ولكنه نقل منذ عامين الى القسم الثانى رئيس قلم .

— آه ، الشيطان وحده يفهمكم !

— وما لك توقفت ، أكمل ، لا تحرجنا !

والتفت زابويكين نحو القبر وواصل حديثه المنقطع بنفس البلاغة السابقة . وبالفعل كان بروكوفى اوسيبوفتش ، وهو موظف عجوز ، بوجه حليق ، يقف بجوار التمثال . وكان يتطلع الى الخطيب وقد قطب حاجبيه بغضب .

وضحك الموظفون اثناء عودتهم من المقابر مع زابويكين :

— ما الذى دهاك ؟ تدفن شخصا حيا !

ودمدم بروكوفى اوسيبوفتش :

— عيب عليك ايها الشاب ! ربما كانت خطبتك

مناسبة للمرحوم ، ولكنها محض سخرية بالنسبة لشخص حى ! ما هذا الذى قلته ؟ متفان ، نزيه ، لا يقبض رشاوى ! هذا الكلام عن شخص حى ليس الا سخرية ! كما ان احدا لم يطلب منك يا سيدى أن تفيض فى وصف وجهى . غير جميل ، قبيح ، فليكن ، ولكن ما الداعى لعرض وجهى فرجة امام الجميع ؟ هذا مهين !

١٨٨٦

تحفة فنية

تصنع ساشا سميرنوف ، وحيد أمه ، الحزن وهو يدلف الى عيادة الدكتور كوشيلكوف وقد وضع تحت ابطه شيئا ملفوفا فى العدد ٢٢٣ من جريدة «اخبار البورصة» .

واستقبله الدكتور قائلا :

— أهلا بالفتى العزيز ! حسنا ، كيف صحتنا ؟ ماذا لديك من اخبار طيبة ؟

طرف ساشا بعينيه ، ووضع يده على قلبه وقال بصوت منفعل :

— ماما تبلغكم تحياتها يا ايفان نيقولايفتش ، وطلبت منى أن اشكركم . . . انا وحيد أمى ، وانتم انقذتم حياتى . . . شفيتمونى من مرض خطير و . . . ولا نعرف كيف نشكركم . . .

فقاطعه الدكتور وهو يسترخى من السرور :

— كفى يا فتى . انا لم أفعل الا ما كان يجب أن يفعله أى شخص آخر لو كان مكانى .

— أنا وحيد أمى . . . ونحن فقراء ، ولا نستطيع بالطبع ان نكافئكم على تعبكم و . . . نحن فى غاية الخجل يا دكتور ، وان كنا ، ماما وانا . . وحيد أمى ، نرجوكم رجاء حارا ان تقبلوا منا ، رمزا لامتناننا . . . هذه الهدية التى . . .

انها تحفة ثمينة ، من البرونز القديم . . . تحفة فنية نادرة .

فامتعض الدكتور :

— لا لزوم لذلك ! ما الداعى ؟

فمضى ساشا يدمدم وهو يفك اللفة :

— لا ، أرجوكم ، لا ترفضوها . ان رفضكم سيكون اهانة لى ولماما . . . انها قطعة ممتازة . . . من البرونز القديم . تركها لنا المرحوم بابا فاحتفظنا بها كذكرى غالية . . . كان بابا يشترى التحف البرونزية القديمة ويبيعها للهواة . . . والآن نزاول ماما وأنا نفس الشيء . . .

فك ساشا اللفة ووضع التحفة على الطاولة بحفاوة . كانت شمعدانا متوسط الارتفاع ، من البرونز القديم ، مصاغا بصورة فنية . وكان يصور مجموعة : فعلى القاعدة وقف جسدان نسائيان فى لباس حواء وفى وضع لا تكفينى لوصفه لا الشجاعة ولا الحمية الكافية . كان الجسدان يبتسمان بدلال ، وكان يلوح من منظرهما ، انه لولا ما ألقى عليهما من مسئولية رفع الشمعدان لقفزا من القاعدة وعربدا فى الغرفة بصورة لا يليق حتى التفكير فيها ايها القارئ .

وبعد ان تأمل الدكتور الهدية ، حك خلف أذنه ببطء ، وتنحنح ، ثم تمخط بتردد . ودمدم :

— نعم ، تحفة رائعة فعلا ، ولكنها . . كيف أقول . . ليست يعنى . . . غير أدبية ابدا . . . ليس هذا حتى ديكولتيه ، بل الشيطان يعلم ما هذا . . .

— ماذا تقصد ، لماذا ؟

— شيطان الغواية نفسه لا يستطيع أن يبتكر شيئا أفظع من هذا . ان وضع هذا الهراء على الطاولة معناه

تدنيس الشقة كلها .

فقال ساشا غاضبا :

— ما أغرب نظرتك الى الفن يا دكتور . انها تحفة فنية ، انظر جيدا ! فيها من الجمال والرشاقة ما يملأ النفس بمشاعر الرهبة ، ويدفع الى الحلق بغصة البكاء ! وعندما ترى هذا الجمال تنسى كل ما هو دنيوى . . . انظر أية حركات ، وأية شفافية واية قوة تعبيرية !

فقاطعه الدكتور قائلا :

— أعرف كل ذلك جيدا يا عزيزى ، ولكنى رجل متزوج ، وأولادى يلعبون هنا ، وتزورنا سيدات محترمات .

فقال ساشا :

— طبعا اذا نظرنا من وجهة نظر الغوغاء ، فان هذه التحفة الفنية السامية ستبدو لنا بالطبع بصورة مختلفة . . . ولكن يا دكتور ، فلتعلُ فوق مستوى الغوغاء ، خاصة وأن رفضك للهدية سيحزننى وماما كثيرا . انا وحيد أمى . . وقد أنقذت حياتى . . . اننا نهديك أعز شىء علينا . . . و . . . ولا يؤسفنى الا انه لا يوجد لديك شمعدان مماثل ليناسب هذا الشمعدان . . .

— شكرا يا عزيزى ، انا ممتن جدا . . بلغ تحياتى لماما ، ولكن فى الحقيقة . . انظر بنفسك . . الأولاد يلعبون هنا ، وتزورنا سيدات محترمات . . على العموم دعها ، فلتبق ! فلن تفهم مهما شرحت لك .

فقال ساشا مسرورا :

— لا داعى لأى شرح . ضع الشمعدان هنا ، بجوار المزهرية . من المؤسف انه لا يوجد شمعدان مماثل !

مؤسف جدا ! حسنا ، وداعا يا دكتور .

وبعد انصراف ساشا ظل الدكتور يحدق طويلا فى الشمعدان ، ثم حك خلف اذنه ومضى يفكر .

وقال لنفسه : «تحفة رائعة ، لا شك فى هذا ، يعز عليّ أن أرميها . . . كما ان الاحتفاظ بها مستحيل . هم ! . . . يا لها من مسألة محيرة ! ترى لمن يمكن اهداؤها او التبرع بها ؟»

وبعد تفكير طويل تذكر صديقه الطيب ، المحامى أوخوف ، الذى كان مدينا له بأتعاب قضية .

فقرر الدكتور :

— ممتاز ! انه محرج كصديق من أن يتقاضى منى أجرا ، وسيكون من اللائق تماما لو أهديته هذه التحفة . فلأحمل اليه هذه المصيبة ! وبالمناسبة فهو أعزب وأرعن . . .

ومضى الدكتور بلا تسويف فارتدى ملابسه ، وأخذ الشمعدان ورحل الى أوخوف .

وجد المحامى فى البيت فحياه :

— مرحبا يا صديقى ! ها قد جئتك . . لكى اشكرك يا أخى على مجهوداتك . . . اذا لم تكن تريد ان تأخذ منى نقودا ، فلتأخذ على الأقل هذه التحفة . . . انها يا أخى تحفة فخمة ! .

وحينما رأى المحامى التحفة تملكه اعجاب لا يوصف . وقال وهو يقهقه :

— يا لها من تحفة ! يا للملاعين ، انظر كيف يبتكر هؤلاء الشياطين اشياء كهذه ! رائعة ! خلابة ! من أين حصلت على هذه الفتنة ؟

وبعد أن سكب المحامي أعجابه نظر الى الباب بخوف وقال :

— ولكن احمل يا أخى هديتك من هنا . لن آخذها . . .

فسأل الدكتور بذعر :

— ولماذا ؟

— هكذا . . . والدتى تأتى الى هنا ، والزبائن . . . بل حتى الخدم سأشعر بالحرج أمامهم .

فأشاح الدكتور بيديه :

— لا يمكن ، ابدا ! . . . اياك أن تجرؤ على رفضها ! سيكون ذلك خسة من جانبك ! هذه تحفة فنية . . . انظر أية حركات . . اية قوة تعبيرية . . . انا لا أقبل أى نقاش ! سأغضب منك !

— لو أنها كانت مدهونة ، أو مستورة بـــأوراق التوت . . .

ولكن الدكتور اشاح بيديه أكثر ، وانطلق راكضا من شقة أوخوف ، ومضى الى البيت سعيدا بأنه أفلح فى التخلص من الهدية . . .

وبعد خروجه تفحص المحامى الشمعدان وتحسسه بأصابعه من جميع الجوانب ، وراح مثل الدكتور يفكر طويلا فيما يفعله بهذه الهدية .

وقال لنفسه : «انها تحفة رائعة ، يعز عليّ أن أرميها ، كما ان الاحتفاظ بها لا يليق . أحسن شىء أن أهديها لأحد ما . . . نعم ، فلأحمل هذا الشمعدان مساء اليوم الى الممثل الكوميدى شاشكين . هذا اللئيم يحب امثال هذه الاشياء ، وبالمناسبة ، فاليوم حفلته «البنيفيس» . .

وهذا ما كان . ففى المساء قدّم الشمعدان الملفوف بعناية الى الممثل شاشكين . وتعرضت غرفة الملابس الخاصة بالممثل طوال المساء لهجوم الرجال الذين جاءوا للتفرج على الهدية . وتردد فى الغرفة طوال الوقت هدير الاعجاب والضحكات الشبيهة بصهيل الخيل . وعندما كانت احدى الممثلات تقترب من باب الغرفة وتسأل : «هل استطيع ان أدخل» ، تسمع على الفور صوت الممثل الأبح :

— كلا ، كلا يا عزيزتى ! لم البس بعد !

وبعد الحفل هز الممثل كتفيه واشاح بيديه وقال :

— حسنا ، وماذا أفعل بهذه النجاسة ؟ اننى اسكن شقة مؤجرة ! والممثلات يزرننى ! وليست هذه صورة بحيث يمكن اخفاؤها فى درج المكتب !

وقال له الحلاق وهو يزيل عنه المكياج :

— بعها يا سيدى . . توجد هنا فى الضاحية سيدة عجوز تشترى البرونز القديم . . . اذهب الى هناك واسأل عن سميرنوفا . . . الجميع يعرفونها .

واتبع الممثل النصيحة . . . وبعد يومين كان الدكتور كوشيلكوف جالسا فى عيادته وقد وضع اصبعه على جبينه وهو يفكر فى الأحماض الصفراوية . وفجأة فتح باب الغرفة واندفع ساشا سميرنوف داخلا . كان يبتسم متهللا ، وقد طفحت هيئته كلها بالسعادة . . . وكان فى يده شىء ملفوف .

وقال وهو يكاد يختنق :

— يا دكتور ! تصور مدى فرحتى ! لحسن حظك استطعنا ان نحصل على شمعدان مماثل لشمعدانكم ! . .

ماما فى غاية السعادة . . . انا وحيد ماما . . . لقد انقذت حياتى . . .

ووضع ساشا الشمعدان امام الدكتور وهو يرتجف من الفرحة . وفغر الدكتور فمه ، واراد ان يقول شيئا ما ولكنه لم ينبس بشىء . . . اذ فقد النطق .

١٨٨٦

فانكا

في ليلة عيد الميلاد لم ينم الصبـي فانكا جوكوف ابن الاعوام التسعة والذى اعطوه منذ ثلاثة اشهر للاسكافى ألياخين ليعمل صبيا لديه . وانتظر حتى انصرف اصحاب البيت والاسطوات الى الصلاة فأخرج من صوان الاسكافى محبرة وقلما بسن صدئ ، وفرش أمامه ورقة مجعدة وراح يكتب . وقبل ان يخط اول حرف نظر الى الباب والنوافذ بحذر ، وتطلع بطرف عينه الى الأيقونة الداكنة التى امتدت عن جانبيها أرفف محملة بالنعال ، وزفر زفيرا متقطعا . كانت الورقة مبسوطة على الاريكة ، اما هو فقد جثا على ركبتيه امامها . وكتب :

«جدي العزيز قسطنطين مكاريتش ! انا أكتب اليك خطابا . اهنئكم بعيد الميلاد وارجو لك من الله كل الخير . انا ليس لديّ أب او أم ، ولم يبق لي غيرك وحدك» .

وحوّل فانكا بصره الى النافذة المظلمة التى عكست ضوء شمعته المتذبذب ، وتخيل بوضوح جده قسطنطين مكاريتش الذى يعمل حارسا ليليا لدى السادة آل جيفارف . هو عجوز صغير نحيل الا انه خفيف الحركة بصورة غير عادية ، فى حوالى الخامسة والستين ، ذو وجه باسم دائما

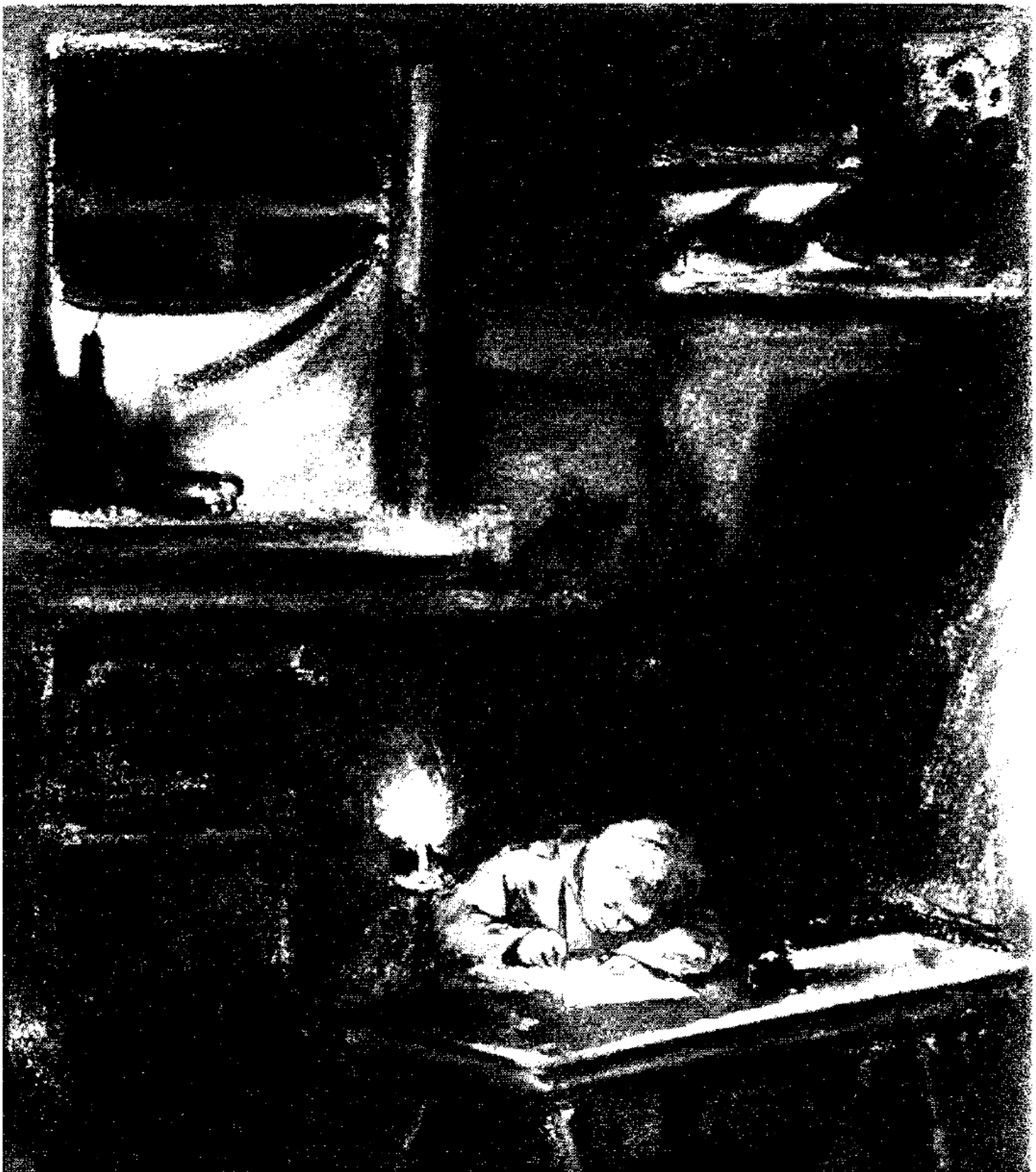

وعينين ثملتين . كان نهارا ينام فى مطبخ الخدم أو يثرثر مع الطاهيات ، أما فى الليل فيطوف حول بيت السادة متدثرا بمعطف فضفاض من جلد الحمل ويدق على صفيحة . ومن خلفه يسير مطأطأى الرأسين الكلبة العجوز «كاشتانكا» ، والكلب «فيون» الذى سمى هكذا للونه الاسود وجسده الطويل كالنمس . كان هذا الـ«فيون» مهذبا ورقيقا بصورة غير عادية ، وكان ينظر بنفس الدرجة من التأثر سواء لأصحابه أم للغرباء ، ولكنه لم يكن يحظى بالثقة . كان يخفى تحت تهذيبه واستكانته خبثا غادرا الى اقصى حد . فلم يكن هناك من هو أحسن منه فى التلصص فى الوقت المناسب ليعض الساق ، او التسلل الى المخزن ، أو سرقة دجاجة من بيت فلاح . وقد حطموا له ساقيه الخلفيتين غير مرة ، وعلقوه مرتين ، وكانوا يضربونه كل اسبوع حتى الموت ، ولكنه كان يبعث من جديد .

وربما يقف الجد الآن امام البوابة ويزر عينيه وهو يتطلع الى نوافذ كنيسة القرية الساطعة الحمرة ، ويثرثر مع الخدم وهو يدق الارض بحذائه اللباد . والصفيحة التى يدق عليها معلقة الى خصره . ويشيح بيديه ثم يتململ من البرد ، ويضحك ضحكة عجوز ويقرص الخادم تارة والطاهية تارة اخرى .

ويقول وهو يقدم للفلاحات كيس تبغه :

— ألا ترغبن فى استنشاق التبغ ؟

وتستنشق الفلاحات ويعطسن ، ويستولي على الجد اعجاب لا يوصف ويقهقه بمرح ويصيح :

— بقوة والا لزقت !

ويقدمون التبغ للكلاب لتشمه . وتعطس «كاشتانكا» ، وتلوى بوزها ، وتبتعد مغضبة . اما «فيون» فلا يعطس تأدباً ، بل يهز ذيله . والجو رائع . الهواء هادئ وشفاف ومنعش . والليل حالك ومع ذلك تلوح القرية كلها بأسقف منازلها البيضاء واعمدة الدخان المنبعثة من المداخن ، والاشجار وقد كساها الثلج ثوبا فضيا ، واكوام الثلج . والسماء كلها مرصعة بنجوم تتراقص بمرح ، ويبدو درب التبانة واضحا وكأنما غسلوه قبل العيد ودعكوه بالثلج . . .

وتنهد فانكا ، وغمس الريشة في الحبر ومضى يكتب :

«بالأمس ضربوني علقة . شدّني المعلم من شعري الى الحوش وضربني بقالب الاحذية لأني كنت أهز ابنه فى المهد فنعست غصبا عنى . وفى هذا الاسبوع أمرتنى المعلمة ان أقشر فسيخة ، فبدأت اقشرها من ذيلها ، فشدت منى الفسيخة وأخذت تحك رأسها فى وجهى . والاسطوات يسخرون منى ويرسلوننى الى الخمارة لشراء الفودكا ويأمروننى ان أسرق الخيار من بيت المعلم ، والمعلم يضربني بكل ما يقع فى يده . وليس هناك أي طعام . فى الصباح يعطوننى خبزاً ، وفى الغداء عصيدة ، وفى المساء أيضا خبزا ، أما الشاي أو الحساء فالسادة وحدهم يشربونه . ويأمرونني أن أنام فى المدخل ، وعندما يبكي ابنهم لا أنام أبدا وأهز المهد . يا جدي العزيز ، اعمل معروفا لله وخذني من هنا الى البيت فى القرية . لم أعد احتمل ابدا . . . اتوسل اليك وسوف اصلى لله دائما ، خذني من هنا والا سأموت . . .»

وقلص فانكا شفتيه ومسح عينيه بقبضته السوداء وأجهش .

ومضى يكتب : «سأطحن لك التبغ ، واصلى لله ، واذا بدر مني شيء اضربني كما يضرب الكلب . واذا كنت تظن انه ليس لى عمل فسأرجو الخولي بحق المسيح ان يأخذني ولو لتنظيف حذائه ، او أعمل راعيا بدلا من فيدكا . يا جدي العزيز ، لم أعد احتمل ابدا ، لا شيء سوى الموت . أردت أن اهرب الى القرية ماشيا ولكن ليس لديّ حذاء واخشى الصقيع . وعندما أصبح كبيرا فسوف اطعمك مقابل هذا ولن أسمح لأحد أن يمسك ، واذا مُتَّ يا جدي فسأصلي من أجل روحك كما أصلي من أجل أمي بيلاجيا .

وموسكو مدينة كبيرة . والبيوت كلها بيوت اكابر ، والخيول كثيرة ، وليس هناك غنم ، والكلاب ليست شريرة . والأولاد فى العيد لا يطوفون بالبيوت منشدين ولا يسمح لأحد بالذهاب للترتيل فى الكنيسة . ومرة رأيت فى أحد الدكاكين ، فى الشباك ، صنانير تباع بخيوطها لصيد كل أنواع السمك ، عظيمة جدا ، بل وتوجد صنارة تتحمل قرموطا وزنه بود * . ورأيت دكاكين فيها مختلف انواع البنادق التى تشبه بنادق السادة ، ويمكن الواحدة منها تساوى مائة روبل . . . وفى دكاكين اللحوم يوجد دجاج الغابة وأرانب ، ولكن الباعة لا يقولون اين يصطادونها .

يا جدى العزيز ، عندما يقيم السادة شجرة عيد الميلاد خذ لى جوزة مذهبة وخبئها فى الصندوق . قل للآنسة اولجا اجناتيفنا انها من اجل فانكا» .

---

* البود — وحدة وزن روسية تساوى ١٦,٣٨ كيلوجراما . **المعرب** .

وتنهد فانكا وسمر عينيه فى النافذة من جديد . وتذكر ان جده كان دائما يذهب للغابة لاحضار شجرة عيد الميلاد ويصحب معه حفيده . ياله من عهد سعيد ! كان الجد يتنحنح والثلج يتنحنح وفانكا يتنحنح مثلهما . وكان يحدث ان الجد ، قبل ان يقطع الشجرة ، يجلس ليدخن الغليون ، ويشم التبغ طويلا وهو يضحك من فانكا المقرور . وشجيرات عيد الميلاد الشابة تقف ملفعة بالثلج وساكنة وهى تنتظر ايها التى ستموت ؟ وفجأة يمرق أرنب كالسهم عبر اكوام الثلج . . . ولا يستطيع الجد ان يمسك نفسه عن الصياح :

— امسك ، امسك . . . امسك ! آه ، يا شيطان يا ملعون !

ثم يسحب الجد الشجرة المقطوعة الى منزل السادة ، حيث يشرعون فى تزيينها . . . وكانت الآنسة اولجا اجناتيفنا التى يحبها فانكا ، هى التى تنشغل اكثر الجميع . وعندما كانت أم فانكا بيلاجيا على قيد الحياة وتعمل خادما لدى السادة ، كانت اولجا اجناتيفنا تعطى لفانكا الحلوى ، ولما لم يكن لديها ما تعمله فقد علمته القراءة والكتابة والعد حتى مائة ، بل وحتى رقصة الكادريل . ولما ماتت بيلاجيا ، ارسلوا فانكا اليتيم الى جده فى المطبخ مع الخدم ، ومن المطبخ الى موسكو عند الاسكافي ألياخين . . .

ومضى فانكا يكتب : «احضر يا جدي العزيز . استحلفك بالمسيح الرب ان تأخذني من هنا . اشفق عليّ انا اليتيم المسكين ، لأن الجميع يضربونني ، وأنا جوعان جدا ، ولا أستطيع ان اصف لك وحشتي ، وأبكي طول الوقت . ومن مدة ضربني المعلم بالنعل على رأسي حتى

وقعت ولم أفق الا بالعافية . ما أضيع حياتي ، اسوأ من حياة أي كلب . . . تحياتى لأليونا ويجوركا الأحول ، والحوذى ، ولا تعط الهارمونيكا لأحد . حفيدك دائما ايفان جوكوف ، احضر يا جدي العزيز» .

وطوى فانكا الورقة المكتوبة اربع مرات ووضعها فى مظروف كان قد اشتراه من قبل بكوبيك . . . وفكر قليلا ثم غمس الريشة وكتب العنوان :

الى قرية جدى

وحك رأسه وفكر ، ثم اضاف : «قسطنطين مكاريتش» . وارتدى غطاء الرأس وهو سعيد لأن احدا لم يعقه عـــن الكتابة ، ولم يضع المعطف على كتفيه ، بل انطلق الى الخارج بالقميص فقط . . .

كان الباعة فى دكان الجزار الذين سألهم من قبل قد اخبروه ان الرسائل تلقى فى صناديق البريد ، ومن الصناديق تنقل الى جميع انحاء الارض على عربات بريد بحوذية سكارى وأجراس رنانة . وركض فانكا الى اول صندوق بريد صادفه ، ودس الرسالة الغالية فى فتحة الصندوق . . .

وبعد ساعة كان يغط فى نوم عميق وقد هدهدت الآمال الحلوة روحه . . وحلم بالفرن . كان جده جالسا على الفرن مدليا ساقيه العريانتين وهو يقرأ الرسالة للطاهيات . . . وبجوار الفرن يسير «فيون» ويهز ذيله . . .

الاعداء

في حوالى الساعة العاشرة من مساء مظلم في شهر سبتمبر توفى بالدفتيريا الابن الوحيد لدى الطبيب الريفى الدكتور كيريلوف ، الطفل اندريه ذو الستة اعوام . وعندما جثت زوجة الدكتور على ركبتيها امام سرير الصبى الميت وقد دهمتها اول نوبة يأس ، دوى فى المدخل بحدة رنين الجرس .

كان الخدم جميعا قد صرفوا منذ الصباح بسبب الدفتيريا . فذهب كيريلوف ليفتح الباب بنفسه ، كما هو ، بدون سترة ، فى صديرى مفكوك الازرار ، ودون ان يمسح وجهه المبلل ويديه المبللتين اللتين كواهما حامض الكربوليك . كان المدخل مظلما فلم يميز فى الشخص القادم سوى قامة متوسطة وملحفة بيضاء ، ووجه كبير بالغ الشحوب الى درجة بدا معها ان المدخل اضاء قليلا بظهوره . . .

وسأل القادم بسرعة :

— الدكتور موجود ؟

فاجاب كيريلوف :

— انا موجود . ماذا تريدون ؟

— آه ، اهو انت ؟ سعيد جدا ! — قال القادم

بفرح وراح يبحث فى الظلام عن يد الدكتور حتى وجدها فضغط عليها بقوة بين كفيه . — سعيد جدا . . جدا ! اننا معارف ! . . انا ابوجين . . . تشرفت برؤيتكم صيفا عند آل جنوتشيف . سعيد جدا اذ وجدتك . . . اتوسل اليك ان تأتى معى الآن . . . زوجتى فى حالة خطرة . . . معى عربة . . . .

بدا واضحا من صوت القادم وحركاته انه كان فى حالة انفعال شديد . كان يتكلم بسرعة وبصوت مرتعش وهو لا يكاد يقوى على كتم لهاثه ، وكأنما افزعه حريق او كلب مسعور ، ولاحت فى حديثه نبرة جبن غير مفتعلة . وككل المذعورين والمذهولين كان يتكلم بجمل قصيرة حادة ويتفوه بكلمات زائدة كثيرة لا دخل لها اطلاقا بالموضوع . ومضى يقول :

— خشيت الا اجدك . . تعذبت كثيرا وانا فى الطريق اليك . . . ارجوك البس ثيابك وهيا بنا . . . حدث ذلك هكذا : جاءنى بابتشينسكى ، الكسندر سيميونوفتش ، انت تعرفه . . . وتحدثنا . . . ثم جلسنا نشرب الشاى . وفجأة صرخت زوجتى ، وامسكت بقلبها وسقطت على ظهر الكرسى . وحملناها الى الفراش و . . . دلكت صدغيها بالنشادر ، ورششتها بالماء . . . ولكنها ترقد كالميتة . . . اخشى ان يكون ذلك أنورسما * . . . هيا بنا . . لقد مات والدها بالأنورسما . . . .

كان كيريلوف يصغى اليه صامتا ، وبدا وكأنه لا يفهم الروسية .

---

* تمدد مرضى فى شرايين القلب . **المعرب** .

وعندما ذكر ابوجين مرة اخرى بابتشينسكى ووالد زوجته ، وراح من جديد يبحث فى الظلام عن يد الدكتور ، هز هذا رأسه وقال بتبلد وهو يمط كل كلمة :

— عفوا ، انا لا استطيع ان اذهب . . . منذ خمس دقائق . . . مات ابنى . . .

فهمس ابوجين وهو يتراجع خطوة :

— كيف ؟ ! يا الهى ، فى اية ساعة مشؤومة جئت ! يا له من يوم منحوس . . . منحوس بصورة غريبة ! ما هذا التوافق . . . كأنما عن عمد !

امسك ابوجين بمقبض الباب وطأطأ رأسه متفكرا . ويبدو انه كان مترددا ولا يدرى ماذا يفعل : هل ينصرف ام يواصل الالحاح على الدكتور .

ثم قال بحرارة وهو يشد كيريلوف من ذراعه :

— اسمع ، اننى افهم حالتك تماما ! ويشهد الله كم اخجل وانا اسعى فى هذه اللحظات الى الاستحواذ على اهتمامك ، ولكن ماذا افعل ؟ احكم بنفسك . . الى من استطيع ان اتوجه ؟ ليس هنا طبيب غيرك . اتوسل اليك ان تأتى معى ! انا لا اطلب شيئا لنفسى . . . لست انا المريض !

وساد الصمت . استدار كيريلوف موليا ظهره الى ابوجين ، ووقف قليلا ، ثم خرج ببطء من المدخل الى الصالة . وبدا من مشيته الآلية غير الواثقة ، ومن الاهتمام الذى سوى به الاباجورة الكثة على المصباح المنطفئ فى الصالة والذى قلب به صفحات كتاب سميك ملقى على الطاولة ، انه لم تكن لديه فى هذه اللحظة اية نوايا او رغبات ، ولم

يكن يفكر فى شيء ، وربما لم يعد يذكر ان هناك شخصا غريبا ينتظر فى المدخل . ويبدو ان عتمة الصالة وسكونها قد زادا من ذهوله . وعندما سار من الصالة الى غرفة مكتبه كان يرفع قدمه اليمنى اعلى مما ينبغى ، ويبحث بيديه عن قوائم الابواب ، وفى تلك اللحظة افصحت هيئته كلها عن نوع من الحيرة وكأنما دخل شقة غريبة ، او انه سكر بشدة لاول مرة فى حياته فاستسلم فى حيرة لهذا الاحساس الجديد . وعلى احد جدران غرفة المكتب ، وعبر خزانات الكتب امتد شريط ضوئى عريض . وكان هذا الضوء قادما مع رائحة الكربوليك والاثير الثقيلة الخانقة من الباب الموارب المفضى من المكتب الى غرفة النوم . . . وغاص الدكتور فى الكرسى امام الطاولة . ونظر بعينين ناعستين الى كتبه المضاءة حوالى دقيقة ، ثم نهض ومضى الى غرفة النوم .

وهنا ، فى غرفة النوم ، اطبق سكون الموت . كان كل شيء ، بأدق تفصيلاته ، يدل بجلاء على العاصفة التى مرت منذ قليل ، وعلى الارهاق ، ثم اخلد كل شيء الآن الى الراحة . واضاءت الغرفة بسطوع الشمعة الموضوعة على الكرسى فى زحمة القوارير والعلب والبرطمانات ، والمصباح الكبير على الكمودينو . وعلى السرير ، بجوار النافذة مباشرة ، تمدد الصبى بعينين مفتوحتين وتعبير دهشة على وجهه . كان ساكنا بلا حراك ، ولكن بدا ان عينيه المفتوحتين تظلمان أكثر مع كل لحظة وتغوصان داخل الجمجمة . وجثت امه على ركبتيها امام السرير وقد وضعت يديها على جسده ودفنت وجهها فى طيات الفراش . كانت مثل الصبى ساكنة ، ولكن اية حركة حية تجلت فى ثنايا جسدها وفى

ذراعيها ! كانت ملتصقة بالسرير بكل كيانها ، وبقوة ونهم ، كأنما كانت تخشى ان تتحرك فتخل بهذا الوضع الساكن المريح الذى وجدته اخيرا لجسدها المنهك . كان كل شيء جامدا . . . البطاطين ، والخرق ، والطسوت ، وبرك المياه على الارضية ، والفرش والملاعق المتناثرة فى كل مكان ، وزجاجة المحلول الجيرى البيضاء ، والهواء نفسه ، الخانق الثقيل . . . وبدا كل ذلك غارقا فى السكينة .

توقف الدكتور بجوار زوجته ، ودس يديه فى جيبى سرواله وامال رأسه جانبا وحدق فى ابنه . وكان وجهه يعبر عن اللامبالاة ، ومن القطرات الدقيقة فحسب التى كانت تلمع فى لحيته كان واضحا انه بكى منذ قليل .

لم يكن فى الغرفة ذلك الرعب الذى يراود الذهن عند الحديث عن الموت . ففى ذلك الجمود الشامل ، وفى وضع الام ، وفى لامبالاة وجه الدكتور كان ثمة شيء جذاب ، يأسر القلب ، وهو بالذات ذلك الجمال المرهف الذى لا يكاد يلحظ للمأساة الانسانية ، ذلك الجمال الذى لن يعرف الناس قريبا كيف يفهمونه ويصفونه ، والذى لا يحسن التعبير عنه ، فيما يبدو ، سوى الموسيقى . وكان هذا الجمال ملموسا ايضا فى السكون الجهم . وكان كيريلوف وزوجته صامتين ، لا يبكيان ، كأنما يدركان ، الى جانب وطأة المصاب ، كل وجدانية وضعهما : فكما انقضى شبابهما فى حين ما ، يمضى الآن ، مع رحيل ولدهما ، الى الابد وبلا رجعة حقهما فى انجاب الاطفال ! فالدكتور فى الرابعة والاربعين ، وقد شاب شعره واصبح اشبه بالعجوز . اما زوجته المنطفئة المريضة ففى الخامسة والثلاثين . ولم

يكن اندريه ابنهما الوحيد فحسب ، بل والاخير ايضا .

وعلى عكس زوجته كان الدكتور ينتمى الى ذلك الطراز من الشخصيات التى تشعر فى حالة الالم النفسى بالحاجة الى الحركة . فبعد ان وقف بجوار زوجته حوالى خمس دقائق ، خرج من غرفة النوم وهو يرفع قدمه اليمنى عاليا ، ودلف الى غرفة صغيرة تشغل نصفها كنبة كبيرة عريضة . ومنها انتقل الى المطبخ . وتسكع قليلا بجوار الفرن وفراش الطاهية ، ثم انحنى وخرج من باب صغير الى المدخل .

وهنا رأى ثانية الملحفة البيضاء والوجه الشاحب .

وتنهد ابوجين وهو يمسك بمقبض الباب وقال :

— اخيرا ! فلنرحل لو سمحت !

انتفض الدكتور ، ثم تطلع اليه فتذكر . . .

وقال له وهو يستعيد حيويته :

— اسمع ، لقد قلت لك اننى لا استطيع الذهاب ! ما اغرب هذا !

فقال ابوجين بصوت ضارع واضعا يده على صدره :

— يا دكتور ، انا لست بليد الاحساس ، واقدر وضعك تماما . . . كم آسى لك ! لكنى لا اطلب شيئا لنفسى . . . زوجتى تحتضر ! لو انك سمعت تلك الصرخة ورأيت وجهها ، لادركت سبب الحاحى ! يا الهى ، لقد ظننت انك ذهبت لترتدى ثيابك ! الوقت ضيق يا دكتور ! فلنذهب ارجوك .

فقال كيريلوف ببطء :

— لا استطيع ان اذهب !

وخطا نحو الصالة .

ومضى ابوجين فى اثره وامسك بكمه .

— لديك فجيعة ، انا ادرك ذلك ، ولكنى لا ادعوك لعلاج اسنان ولا لوضع تقرير فنى ، بل لانقاذ حياة بشرية ! — ومضى يتوسل اليه كالشحاذ . — هذه الحياة فوق اية فجيعة شخصية ! حسنا ، اننى اسألك النخوة ، اسألك بطولة ! باسم المحبة الانسانية !

فقال كيريلوف بعصبية :

— المحبة الانسانية سكين ذو حدين . وباسم المحبة الانسانية نفسها ارجوك ان تتركنى . حقا شىء غريب ! انا لا اكاد اقوى على الوقوف بينما تخوفنى بالمحبة الانسانية ! انا لا اصلح لشىء الآن . . . لن اذهب مهما كان ، وكيف اترك زوجتى ؟ لمن ؟ كلا ، كلا . . .

ولوح كيريلوف بيديه وعاد ادراجه .

ومضى يقول بفزع :

— لا . . . لا تطلب ! اعذرنى . . . نعم ، حسب المجلد الثالث عشر لمجموعة القوانين يتوجب علىّ ان ارحل معك ، ومن حقك ان تجرجرنى من قفاى . . . هيا ، تفضل جرجرنى ، ولكن . . . انا غير صالح . . . لا اقدر حتى على الكلام . . اعذرنى . . .

فقال ابوجين وهو يمسك الدكتور من كمه ثانية :

— لا داعى لان تتحدث معى بهذه اللهجة يا دكتور . دعنا من هذا المجلد الثالث عشر ! ليس من حقى ابدا ان اجبرك على شىء . اذا شئت ان ترحل فلترحل ، واذا لم تشأ سامحك الله . لكنى لا اخاطب ارادتك بل اخاطب مشاعرك . هناك امرأة شابة تحتضر ! لقد قلت ان ابنك

مات الآن ، فمن غيرك يستطيع ان يفهم بلواي ؟

كان صوت ابوجين يرتعش من الانفعال . وكان في هذه الرعشة وفي نبرة الصوت من قوة الاقناع اكثر مما في كلماته . كان ابوجين صادقا ، ولكن الملفت للانتباه انه مهما قال من عبارات ، فقد كانت كلها تبدو جوفاء ، بلا نبض ، او زاهية بصورة لا تليق وكأنما تهين جو شقة الدكتور والمرأة المحتضرة بعيدا . وحتى هو احس بذلك ، ولهذا فقد حاول بكل قواه ، خشية الا يُفهم ، ان يضفي على صوته نعومة ورقة كي يؤثر في الطبيب ان لم يكن بالكلمات ، فبصدق النبرة على الاقل . وعموما فالكلمات مهما كانت جميلة وعميقة فانها لا تؤثر الا في ذوي النفوس اللامبالية ولا تستطيع دائما ان ترضي السعداء او التعساء . ويبدو ان اسمى تعبير عن السعادة او التعاسة هو في اغلب الاحوال الصمت . فالعشاق يفهمون بعضهم بعضا عندما يصمتون ، اما الخطبة الحارة المشبوبة الملقاة على القبر فلا تؤثر الا في الغرباء ، بينما تبدو لأرملة المتوفى واولاده باردة تافهة .

وقف كيريلوف صامتا . وعندما تفوه ابوجين ببضع عبارات اخرى عن رسالة الطبيب السامية ، وعن التضحية بالنفس وما الى ذلك ، سأله الطبيب عابسا :

— هل المسافة بعيدة ؟

— حوالي ١٣ — ١٤ فرسخا . خيولي ممتازة يا دكتور ! اعدك بشرفي ان احملك الى هناك واعود بك في ساعة واحدة . ساعة واحدة فقط !

اثرت الكلمات الاخيرة على الدكتور بأقوى من الاستشهاد

بمحبة البشر ورسالة الطبيب . ففكر قليلا ثم قال متنهدا :

— حسنا ، لنذهب !

ومضى نحو مكتبه بسرعة ، بخطوة اصبحت واثقة ، ثم عاد بعد قليل فى سترة طويلة . وساعده ابوجين المسرور وهو يدور حوله ويحك الارض بقدميه على ارتداء المعطف وخرج معه من البيت .

كان الجو فى الخارج مظلما وان كان اخف ظلمة من المدخل . وبدت فى الظلام بوضوح قامة الدكتور الطويلة المحنية بلحيته الطويلة الضيقة وانفه المعقوف . اما ابوجين ، فقد اصبح ظاهرا منه الآن ، بخلاف شحوبه ، رأسه الكبير وعليه طاقية طلابية صغيرة لا تكاد تغطى يافوخه . وكانت الملحفة تلوح من الامام فقط ، اما من الخلف فقد اختفت خلف شعره المرسل .

ودمدم ابوجين وهو يساعد الدكتور على ركوب العربة :

— ثق يا دكتور اننى سأعرف كيف اقدر شهامتك . سنصل بسرعة . هيا يا لوقا ، يا عزيزى ، انطلق بأسرع ما يمكن ! ارجوك !

وساق الحوذى العربة بسرعة . ساروا فى البداية بحذاء صف من المبانى البائسة على امتداد فناء المستشفى ، وساد الظلام الا فى عمق الفناء ، حيث انبعث ضوء ساطع من احدى النوافذ عبر الحديقة ، ولاحت ثلاث نوافذ فى الطابق الاعلى من مبنى المستشفى اكثر شحوبا من الجو . ثم دلفت العربة فى ظلام كثيف ، وفاحت رائحة رطوبة فطرية وتناهى همس الاشجار . وجفلت الغربان النائمة وسط اوراق الشجر وقد ايقظها ضجيج العجلات واطلقت نعيقا شاكيا قلقا ،

كأنما كانت تعلم ان الدكتور قد مات ابنه وان ابوجين زوجته مريضة . ثم ومضت اشجار متفرقة ثم حرش ، وتلألأت بركة جهمة ارتمت فوقها ظلال طويلة سوداء ، وانسابت العربة فى سهل منبسط . وتناهى نعيق الغربان مكتوما بعيدا من ورائهم ، ثم سرعان ما تلاشى تماما .

ظل كيريلوف وابوجين صامتين طوال الوقت . مرة واحدة تنهد ابوجين بعمق وتمتم :

— يا له من عذاب ! انك لا تحب اقرباءك الى هذه الدرجة الا عندما تواجه بخطر فقدانهم .

وعندما عبرت العربة النهر بهدوء انتفض كيريلوف كأنما افزعته طرطشة الماء وتململ بقلق .

ثم قال بأسى :

— اسمع ، اتركنى ارجوك . سآتى اليك فيما بعد . اريد فقط ان ارسل الممرض الى زوجتى . انها وحدها !

لزم ابوجين الصمت . ومرت العربة فوق الشاطئ الرملى وهى تهتز وتصطك بالاحجار ، ثم واصلت سيرها . واستبدت الوحشة بكيريلوف فنظر حوله بقلق . على ضوء النجوم الشحيح لاح من خلفهم الطريق وصفصاف الشاطئ المتلاشى فى الظلام . والى اليمين ترامى سهل منبسط بلا حدود كالسماء ايضا . وفى اطرافه البعيدة تناثرت اضواء كابية هنا وهناك ، ربما من غازات مستنقعات تحترق . والى اليسار ، بحذاء الطريق ، امتد تل مدغل بالاحراش الخفيفة ، وفوق التل انتصب بلا حراك هلال كبير احمر ، تلفه غلالة ضبابية رقيقة ، وتحيط به سحب صغيرة ، بدت وكأنها ترقبه من جميع الجهات وتحرسه كيلا يغيب .

ولاح في الطبيعة كلها شيء ما ميئوس منه ومريض . وكابدت الارض ، مثل امرأة ساقطة تجلس وحدها في غرفة مظلمة وتحاول الا تفكر في الماضي ، كابدت ضنى ذكريات الربيع والصيف ، وراحت تنتظر في فتور وتبلد مجيء الشتاء المحتم . وحيثما جال البصر تبدت الطبيعة حفرة مظلمة سحيقة الاغوار وباردة ، حفرة لن يستطيع الخروج منها لا كيريلوف ، ولا ابوجين ، ولا الهلال الاحمر . . .

وكلما اقتربت العربة من الهدف ازداد فروغ صبر ابوجين . كان يتململ ، ويقفز واقفا ، وينظر الى الامام من فوق كتفي الحوذي . وحينما توقفت العربة اخيرا عند سلم المدخل المغطى بكسوة مخططة جميلة ، وعندما نظر الى النوافذ المضاءة في الطابق الثاني ، اصبح مسموعا اضطراب انفاسه .

وقال وهو يدخل مع الدكتور الى الردهة ويفرك راحتيه بانفعال .

— لو حدث لها شيء ف . . . لن احتمل . — ثم اضاف وهو يصيخ السمع الى السكون : — ولكني لا اسمع جلبة ، اذن فالامور على ما يرام حتى الآن .

لم تسمع في الردهة اصوات او وقع اقدام ، وبدا البيت كله نائما رغم الانوار الساطعة . واصبح الآن في وسع الدكتور وابوجين ، اللذين لم يريا بعضهما البعض الا في الظلام ، ان يتأمل كل منهما الآخر . كان الدكتور طويلا ، محنى القامة ، مهمل الثياب ، ولم يكن جميل الوجه ، وكانت شفتاه الغليظتان كشفاه الزنوج ، وانفه المعقوف ، ونظرته الذابلة اللامبالية تعبر عن شيء حاد منفر وقاس .

وكان رأسه المشعث ، بصدغيه الغائرين ، والشيب المبكر في لحيته الطويلة الضيقة ، التي كان ذقنه يلوح من بين شعرها ، ولون بشرته الرمادى الشاحب ، وحركاته الخرقاء الحادة . . . كان كل ذلك يبعث بغلاظته على الاعتقاد بأنه عانى من الفاقة والبؤس ، وارهقته الحياة والناس . ولم يكن من الممكن ان تصدق ، عندما تنظر الى قامته الجافة ، ان لدى رجل كهذا زوجة ، وانه يمكن ان يبكى على ابنه المتوفى . اما ابوجين فكان شيئا آخر . كان رجلا متين الجسم ، رصينا ، اشقر ، كبير الرأس ، وكانت تقاطيع وجهه ضخمة ولكنها ناعمة ، ولباسه انيق حسب آخر موضة . ولاح في قامته ، وفي سترته المزررة المحبوكة ، وفي عرفه المسدل ، وفي وجهه ، شيء ما نبيل كما في الاسود . وكان يسير منتصب الرأس ، منفوخ الصدر ، ويتحدث بنغمة «باريتون» لطيفة ، وتجلت في الطريقة التى نزع بها ملحفته وسوى بها شعر رأسه رشاقة مرهفة ، نسائية تقريبا . وحتى شحوبه ، والذعر الطفولى الذى كان يتطلع به الى اعلى الدرج وهو يخلع ملابسه الثقيلة ، لم يفسدا هيئته ، ولم ينتقصا من الشبع والصحة والثقة التى كان جسمه يطفح بها .

وقال وهو يصعد الدرج :

— ليس هناك احد ولا اسمع شيئا . ليس هناك جلبة . استر يا رب !

وقاد الدكتور من الردهة الى صالة كبيرة لاح فيها معزف اسود وتدلت من سقفها نجفة ملفوفة في كيس ابيض . ومن هنا دلفا معا الى غرفة جلوس صغيرة ولكنها مريحة

جدا وجميلة ومعبأة بعتمة وردية لطيفة .

وقال ابوجين :

— اجلس هنا يا دكتور . . سأعود حالا . سأذهب لانظر وانبههم .

وبقي كيريلوف وحده . ويبدو ان فخامة غرفة الجلوس والعتمة المريحة ، ووجوده هو نفسه في بيت غريب غير معروف ، هذا الوجود الذى كان اشبه بمغامرة ، كل ذلك لم يحرك فيه شيئا . جلس فى المقعد وراح يتأمل يديه اللتين كواهما حامض الكربوليك . ولمح اباجورة قانية الحمرة ، وصندوق فيولنشيلو ، ونظر بطرف عينه الى الجهة التى كانت تصدر منها تكتكة ساعة فلاحظ ذئبا محنطا ، وكان مهيبا وشبعان مثل ابوجين نفسه .

ساد الهدوء . . . وفي مكان ما ، فى الغرف المجاورة صاح احدهم بصوت عال : «آه» ، ورن باب زجاجى ، ربما باب صوان ، ثم هدأ كل شيء ثانية . وانتظر كيريلوف حوالى خمس دقائق ، ثم كفّ عن تأمل يديه ، ورفع عينيه الى الباب الذى اختفى ابوجين خلفه .

عند عتبة ذلك الباب وقف ابوجين ، ولكنه كان ابوجين آخر . اختفت من وجهه دلائل الشبع والرشاقة المرهفة ، وشوه وجهه ويديه ووقفته تعبير بشع لا يعرف ان كان من الرعب ام من الالم البدنى المضنى . كان انفه وشفتاه وشواربه وكل ملامحه تتحرك ، وبدا كأنها تريد ان تنفصل عن وجهه ، اما عيناه فكأنما كانتا تضحكان الما . . .

وتقدم ابوجين بخطوات ثقيلة واسعة الى وسط الغرفة ، وانحنى وتأوه وهز قبضتيه .

— خَدَعَتْني ! — صاح مشددا على آخر الكلمة — خدعتنى ! هَرَبتْ ! ادّعت المرض وارسلتنى فى طلب الدكتور فقط لكى تهرب مع هذا المهرج بابتشينسكى ! يا الهى !

اقترب ابوجين من الدكتور بخطوات ثقيلة ، ومد نحو وجهه قبضتيه البيضاوين الطريتين وهو يهزهما ، ومضى يقول :

— هربت ! خدعتنى ! فما الداعى لهذا الكذب ؟ يا الهى ! يا الهى ! ما الداعى لهذا التحايل القذر ، لهذه التمثيلية الشيطانية الافعوانية ؟ ماذا فعلت لها ؟ هربت !

وطفرت الدموع من عينيه . ودار على قدم واحدة ، ومضى يذرع الغرفة . اصبح الآن ، بسترته القصيرة ، وسرواله العصرى الضيق الذى بدت فيه ساقاه نحيلتين بما لا يتفق مع جسمه ، وبرأسه الكبير وعرفه ، اصبح شبيها بالاسد الى حد كبير . واشرق وجه الدكتور اللامبالى بفضول . فنهض وطاف على ابوجين بعينيه . وسأله :

— عفوا ، ولكن اين المريضة ؟

— المريضة ! المريضة ! — صرخ وهو يضحك ويبكى ويواصل هز قبضتيه . — هذه ليست مريضة بل ملعونة ! يا للدناءة ! يا للوضاعة ! الشيطان نفسه لا يمكن ان يهتدى الى شيء احط من ذلك ! ابعدتنى لكى تهرب ، تهرب مع مهرج ، مع بهلوان بليد ، مع عاهر ! يـــا الهى ، كان افضل لو ماتت ! لن احتمل ! انا لن احتمل !

شد الدكتور قامته . وطرفت عيناه وامتلأتا بالدموع ، وتحركت لحيته الضيقة يمينا ويسارا مع فكه .

وسأل وهو يتلفت حوله بفضول :

— عفوا ، كيف هذا ؟ ابنى مات ، وزوجتى تعانى الفجيعة ، وحيدة فى البيت . . . وانا لا اكاد اقوى على الوقوف ، لم انم ثلاث ليالٍ . . . ثم ماذا ؟ يضطروننى الى اللعب فى كوميديا مبتذلة ، لعب دور الديكور ! انا . . انا لا افهم !

بسط ابوجين احدى قبضتيه وقذف على الارض برسالة مجعدة وداس عليها بقدميه كما يداس على حشرة بغية سحقها .

وقال من بين اسنانه المطبقة وهو يهز احدى قبضتيه امام وجهه وبتعبير شخص داس احدهم على اصبع قدمه المريضة :

— وانا لم ار شيئا . . لم افهم ! لم الاحظ انه يزورنا كل يوم ، لم الاحظ انه جاء اليوم فى عربة ! لماذا جاء فى عربة ؟ لم افطن ، يا لى من زكيبة !

ودمدم الدكتور :

— لا افهم . . . ما معنى هذا ؟ هذه سخرية بالناس ، امتهان للعذاب الانسانى ! هذا شىء لا يعقل . . . اول مرة فى حياتى ارى هذا !

هز الدكتور كتفيه واشاح بيديه بدهشة متبلدة لانسان بدأ يفهم لتوه فقط انه اهين اهانة بالغة ، وهو لا يدرى ماذا يقول او ماذا يفعل ، فتهالك على المقعد باعياء .

ومضى ابوجين يقول بصوت باك :

— لنفرض انك لم تعودى تحبيننى واحببت شخصا آخر ، لك الله ، ولكن ما الداعى للخداع ، ما الداعى لهذه الحيلة الدنيئة الغادرة ؟ ما الداعى ؟ وعلام ؟ ماذا

فعلت لك ؟ اسمع يا دكتور ، — قال بحرارة وهو يقترب من كيريلوف . — لقد كنت بالصدفة شاهدا على بلواى . ولن اخفى عنك الحقيقة . اقسم لك اننى احببت هذه المرأة ، احببتها بخنوع كالعبد . من اجلها ضحيت بكل شيء : تخاصمت مع اهلى ، هجرت الوظيفة والموسيقى ، وغفرت لها ما لم اكن استطيع ان اغفره حتى لأمي او اختي . . . لم انظر اليها ابدا نظرة شزرة . . . لم يبدر عنى اى مبرر ، فلماذا هذا الكذب ؟ انا لا اطالبها بالحب . ولكن ما الداعى لهذا الخداع المقرف ؟ اذا كنت لا تحبين فلتقولى ذلك مباشرة ، بشرف ، خاصة وانت تعرفين نظرتي الى هذه الامور . . .

كان ابوجين يفضى بما فى قلبه للدكتور بصدق ، والدموع تملأ عينيه ، وجسده كله يرتعش . كان يتكلم بحرارة ، ضاما كلتا يديه الى قلبه ، ويفشى كل اسراره العائلية دون ادنى تردد ، بل وبدا وكأنه سعيد بأن هذه الاسرار قد انطلقت اخيرا لتخرج من صدره . ولو انه تكلم هكذا ساعة او ساعتين ، ولو انه فضفض عن نفسه لاحس قطعا بارتياح . ومن يدرى ، فلو ان الدكتور اصغى اليه ، وواساه بمودة فربما ، وكما يحدث كثيرا ، اذعن لبلواه دون تذمر ، ودون ان يرتكب حماقات لا داعى لها . . . ولكن الامور سارت بشكل آخر . فبينما كان ابوجين يتكلم تغير الدكتور المهان تغيرا ملحوظا . تراجعت اللامبالاة والدهشة من على وجهه شيئا فشيئا ليحل محلهما تعبير الاهانة المرة والسخط والغضب . اصبحت ملامحه اكثر حدة وخشونة ونفورا . وعندما قرب ابوجين من عينيه صورة امرأة شابة

بوجه جميل ولكنه جاف غير معبر كوجه الراهبة ، وسأله هل تستطيع بالنظر الى هذا الوجه ان تتصور انه يمكن ان يعبر عن الكذب ، قفز الدكتور فجأة ، ولمعت عيناه ، وقال وهو يضغط على كل كلمة بخشونة :

— لماذا تقول لى كل هذا ؟ انا لا ارغب فى سماعه ! لا ارغب ! — صرخ وهو يدق الطاولة بقبضته . — لست بحاجة الى اسرارك المبتذلة ، عليها اللعنة ! اياك ان تقول لى هذه الاشياء الوضيعة ! ام انك تظن اننى لى أُهَنْ بما فيه الكفاية ؟ أننى خادم يمكن اهانته بلا نهاية ؟ نعم ؟

تراجع ابوجين مبتعدا عن كيريلوف وهو يحدق فيه بذهول .

ومضى الدكتور يقول ولحيته تهتز .

— لماذا جئت بـى الى هنا ؟ اذا كنتم من الشبع تتزوجون ، ومن الشبع تركبكم الشياطين فتختلقون الميلودرامات ، فما دخلى انا ؟ ما لى انا بقصصكم الغرامية ؟ دعونى وشأنى ! تمرنوا على المشاجرات النبيلة ، تصوروا انكم اصحاب افكار انسانية ، اعزفوا (ونظر الدكتور الى صندوق الفيولنشيلو) اعزفوا على الكونتراباس ، وعلى البوق ، اسمنوا كالديوك المعلوفة ، لكن اياكم والسخرية بكرامة الناس ! اذا لم يكن فى وسعكم ان تحترموها فاعفوها على الاقل من اهتمامكم !

فسأل ابوجين وهو يتضرج :

— اسمح لى ، ما معنى هذا ؟

— معناه انه من الحقارة والانحطاط ان تهزؤا بالناس الى هذه الدرجة ! اننى طبيب ، وانتم تعتبرون الاطباء ،

والعمال عموما ، الذين لا تنبعث منهم روائح العطور والدعارة ، تعتبرونهم خدما لكم وقليلي الذوق ، حسنا ، فلتعتبروهم كما تشاءون ، لكن احدا لم يعطكم الحق فى ان تجعلوا من شخص يعانى قطعة ديكور !

— كيف تجرؤ على ان تقول لى هذا ؟ — سأل ابوجين بصوت خافت ، واحمر وجهه ثانية من الغضب فى هذه المرة .

— بل كيف جرؤت انت على المجىء بى الى هنا ، لاسمع هذه الاشياء الوضيعة ، وانت تعلم مدى فجيعتى . — صرخ الدكتور ودق الطاولة بقبضته ثانية . — من الذى اعطاك الحق فى السخرية بآلام الآخرين الى هذا الحد ؟

فصرخ ابوجين :

— انت جننت ! ليس هذا كرم اخلاق ! انا نفسى تعيس جدا و . . . و . . .

فضحك الدكتور ضحكة احتقار قصيرة وقال :

— تعيس . . . دع هذه الكلمة فهى لا تخصك . فالعاطلون الذين لا يجدون ما يسددون به كمبيالاتهم يعتبرون انفسهم ايضا تعساء . والديك المعلوف ، الذى يخنقه الدهن ، ايضا تعيس . يا للنفوس الحقيرة !

فصرخ ابوجين محتدا :

— قف عند حدك يا سيد ! مثل هذه الكلمات تستوجب . . الضرب ! فاهم ؟

ودس ابوجين يده فى جيبه بسرعة ، واخرج منه محفظته ، واستل منها ورقتين ماليتين والقى بهما على المائدة .

وقال ومنخاراه يرتعشان :

— خذ ، هذه اتعابك !

فصاح الدكتور وهو يكنس النقود بيده من على الطاولة الى الارض :

— اياك ان تعرض عليّ نقودا ! الاهانة لا يدفع ثمنها نقودا !

وقف ابوجين والدكتور وجها لوجه ، وراحا فى سورة الغضب يكيلان بعضهما للبعض الاهانات الباطلة . ويبدو انهما لم يتفوها فى حياتهما ابدا ، ولا حتى فى الهذيان ، بمثل هذه الكلمات الظالمة والقاسية والخرقاء . لقد تكشفت فى كل منهما بقوة انانية التعساء . فالتعساء انانيون ، شريرون ، ظالمون ، قساة ، واقل من الحمقى قدرة على فهم بعضهم بعضا . التعاسة لا تجمع بين الناس بل تفرقهم ، وحتى فى تلك الاحوال التى قد يخيل لك فيها ان تشابه البلوى ينبغى ان يربط بين الناس ، يرتكب من المظالم والشرور اكثر بكثير مما فى اوساط الهانئين نسبيا .

وصاح الدكتور وهو يختنق :

— لتأمر بتوصيلى الى البيت !

فقرع ابوجين الجرس بحدة . وعندما لم يأت احد تلبية لطلبه قرع الجرس مرة ثانية ثم القى به على الارض فى غضب . وارتطم الجرس بالبساط بصوت مكتوم وصدر عنه انين شاك كأنما لفظ آخر انفاسه . وجاء الخادم .

فانفجر فيه ابوجين وهو يشد قبضتيه :

— اين اختفيتم ايها الملاعين ؟ اين كنت الآن ؟ امش من هنا وقل لهم ان يعدوا العربة لهذا السيد ويعدوا

لى الحنطور ! — وصاح عندما استدار الخادم لينصرف . — انتظر ! اياك ان يبقى الى الغد اى واحد من الخونة فى البيت ! كلكم مطرودون ! سأستأجر غيركم ! ايها الاوغاد !

لزم ابوجين والدكتور الصمت فى انتظار العربات . وعادت الى الاول مظاهر الشبع والرشاقة الرهيفة . واخذ يذرع غرفة الجلوس وهو يهز رأسه برشاقة ويدبر ، فيما يبدو ، امرا ما . لم تخمد سورة غضبه بعد ، ولكنه حاول ان يبدو وكأنه لا يلاحظ عدوه . . . اما الدكتور فكان واقفا ، مرتكزا باحدى يديه على حافة الطاولة وهو ينظر الى ابوجين بذلك الاحتقار العميق الوقح بعض الشىء والقبيح ، الذى لا ينظر به سوى الفاجعة والبؤس عندما يريان امامهما الشبع والرفاهية .

وفيما بعد ، عندما استقل الدكتور العربة ورحل ، ظلت عيناه تنظران بنفس الاحتقار . كان الجو مظلما ، اشد ظلاما بكثير مما كان منذ ساعة . واختفى الهلال الاحمر خلف تل ، وانتشرت السحب التى كانت تحرسه واستقرت بجوار النجوم بقعا داكنة . ودق الحنطور ذو الفوانيس الحمراء بعجلاته على الطريق ولحق بالدكتور وسبقه . كان يركبه ابوجين الذى رحل ليحتج ويرتكب حماقات ما . . .

وظل الدكتور طوال الطريق يفكر لا فى زوجته ولا فى ابنه اندريه ، بل فى ابوجين وسكان البيت الذى تركه منذ قليل . وكانت افكاره ظالمة وقاسية بصورة لا انسانية . كان فى تفكيره يدين ابوجين وزوجته وبابتشينسكى وكل من يعيشون فى العتمة الوردية ويتضوعون عطرا ، وظل طوال الوقت يمقتهم ويحتقرهم الى حد الالم فى القلب . واستقر

فى ذهنه اعتقاد راسخ حول هؤلاء الاشخاص .

وسوف يمر الزمن ، وسوف تمر فجيعة كيريلوف ، بيد ان هذا الاعتقاد الظالم ، غير الجدير بالقلوب البشرية لن يزول ، وسيبقى فى ذهن الدكتور حتى الممات .

١٨٨٧

فى البيت

— جاء رسول من آل جريجوريف يطلب كتابا ، ولكنى قلت انكم لستم فى المنزل . وحمل ساعى البريد جرائد ورسالتين . وبالمناسبة يا يفجينى بتروفيتش ارجو ان تولوا اهتمامكم الى سيريوجا . فقد لاحظت اليوم ، واول امس ، انه يدخن . وعندما بدأت اوبخه سد اذنيه كالعادة واخذ يغنى بصوت عال لكيلا يسمع ما اقول .

كان يفجينى بتروفتش بيكوفسكى وكيل نيابة الناحية ، قد عاد لتوه من جلسة المحكمة وفرغ من نزع قفازه فى غرفة مكتبه ، فنظر الى المربية التى كانت تبلغه هذا التقرير وضحك .

وقال وهو يهز كتفيه :

— سيريوجا يدخن . . . اننى اتخيل منظر هذا الصغير والسيجارة فى فمه ! ولكن كم عمره ؟

— فى السابعة . قد يبدو لكم هذا غير جدى ، ولكن التدخين فى سنه عادة سيئة ومضرة ، والعادات السيئة ينبغى القضاء عليها فى بدايتها .

— انت على حق تماما . ومن اين يحصل على التبغ ؟

— من درج مكتبكم .

— حقا ؟ فى هذه الحالة ارسليه اليّ .

وبعد انصراف المربية جلس بيكوفسكى فى المقعد امام مكتبه ، واغمض عينيه ، وراح يفكر . ولسبب ما رسم فى خياله صورة لابنه سيريوجا وفى فمه سيجارة ضخمة طويلة ، وتلفه سحب دخان السجائر ، فجعلته هذه الصورة الكاريكاتيرية يبتسم . وفى الوقت نفسه اثار وجه المربية الجاد المهموم فى نفسه ذكريات الماضى البعيد ، المنسي تقريبا ، عندما كان التدخين فى المدرسة او فى غرفة الاطفال يثير فى نفوس المدرسين والآباء رعبا غريبا ، غير مفهوم تقريبا . كان ذلك رعبا بالفعل . وكانوا يضربون الاولاد بقسوة ، ويفصلونهم من المدرسة ، ويفسدون عليهم مستقبلهم ، رغم ان احدا من المدرسين او الآباء لم يكن يعلم بالضبط ما هو الضرر من التدخين وما هى الجريمة فى ذلك . وحتى اذكى الاشخاص لم يترددوا فى مكافحة الرذيلة التى لم يكونوا يفهمونها . وتذكر يفجينى بتروفيتش ناظر مدرسته ، ذلك العجوز المثقف جدا والطيب القلب والذى كان يتملكه الرعب الى درجة الشحوب عندما يضبط تلميذا يدخن ، فيجمع على الفور مجلس المربين ويحكم على المذنب بالفصل . يبدو ان تلك هى طبيعة قانون الحياة المشتركة : فكلما ازداد الشر غموضا اصبحت مقاومته اكثر ضراوة وفظاظة .

وتذكر وكيل النيابة اثنين او ثلاثة من المفصولين ، وتابع مجرى حياتهم بعد ذلك ، فلم يستطع ان يمنع نفسه من التفكير بأن العقاب كثيرا ما يعود بشر اكثر من الجريمة نفسها . فالجسم الحيّ يملك القدرة على التكيف السريع والتعود والتأقلم مع اى وسط ، والا لكان على الانسان

ان يشعر فى كل لحظة بمدى انعدام الحكمة فى اساس نشاطه الحكيم ، وبضآلة الحقيقة المستوعبة والثقة ، حتى فى تلك الانشطة المسئولة وذات الآثار الخطيرة كالنشاط التربوى ، والقانونى والادبـى . . .

اخذت مثل هذه الافكار الخفيفة الغائمة ، والتى لا تراود الا الذهن المتعب ساعة الراحة ، تدور فى رأس يفجينى بتروفتش . كانت تظهر من حيث لا يعرف ولسبب لا يدريه ، وتبقى فى رأسه قليلا ، فيبدو وكأنها تزحـــف فوق المخ دون ان تغوص عميقا فيه . وبالنسبة للاشخاص الذين يتوجب عليهم ان يفكروا بطريقة رسمية ، وفى اتجاه واحد لساعات طويلة وربما لايام ، تمثل مثل هـــذه الافكار المنزلية الحرة نوعا من الراحة والاستجمـــــام اللذيذ .

كانت الساعة حوالى التاسعة مساء . وفوق غرفة المكتب ، فى الطابق الثانى ، وراء السقف ، كان شخص ما يسير من ركن لركن ، واعلى من ذلك ، فى الطابق الثالث تردد عزف ثنائى على البيانو . واضفت خطوات ذلك الشخص الذى كان ، حسبما بدا من مشيته العصبية ، يعذبه التفكير ، او يعانى من الم فى اسنانه ، والانغام الرتيبة ، اضفت على هدوء المساء جوا ناعسا يبعث على الاستسلام للتفكير الكسول . وعبر غرفتين تناهى حديث المربية مع سيريوجا فى غرفة الاطفال .

واخذ الصبـى يغنى :

— با . . . با وصل ! با . . . با وصـ . . . ـل ! با . . . با . . . با !

وصرخت المربية بصوت رفيع كطائر مذعور :

Votre père vous appellé, allez vite!* انني اخاطبك !

وقال يفجيني بتروفتش لنفسه : «ولكن ماذا اقول له ؟»

وقبل ان يهتدى الى شيء دخل غرفة المكتب ابنه سيريوجا ، الصبي ذو السبعة اعوام . كان شخصا لا يمكن الحكم على جنسه سوى من ملبسه . . . قليل الحجم ، شاحب الوجه ، هشا . . . كان ذابل الجسم مثل نبات دفيئة ، وبدا كل شيء فيه رقيقا وناعما جدا : حركاته ، وشعره المجعد الخصلات ، ونظرته ، وسترته المخملية .

وقال بصوت ناعم وهو يعتلي ركبتي ابيه ويقبله في عنقه بسرعة :

— مرحبا يا بابا ! هل دعوتني ؟

فاجاب وكيل النيابة وهو ينحيه عنه :

— اسمح لي ، اسمح لي يا سيرجي يفجينيتش ** . قبل القبلات ينبغي علينا ان نتحدث ، ونتحدث بجدية . . . انني غاضب منك ولم اعد احبك . نعم ، فلتعلم يا اخي انني لا احبك ، وانك لست ابني . . . نعم .

تطلع سيريوجا الى ابيه باهتمام ، ثم حول نظره الى الطاولة وهز كتفيه .

---

* والدك يدعوك ، هيا بسرعة (بالفرنسية في الأصل) .

** المخاطبة بالاسم الكامل واسم الاب تستخدم مع الكبار للاحترام . ويريد الاب هنا ان يضفي على حديثه مع ابنه الصغير طابع الجدية . **المعرب** .

ثم سأل بدهشة وعيناه تطرفان :

— وماذا فعلت لك ؟ انا لم ادخل مكتبك اليوم ولا مرة ، ولم المس شيئا .

— اشتكت لى نتاليا سيميونوفنا الآن من انك تدخن . . . هل هذا صحيح ؟ هل تدخن ؟

— نعم ، دخنت مرة . . . هذا صحيح !

فقال وكيل النيابة عابسا ليخفى ابتسامته :

— انظر ، ها انت فوق ذلك تكذب . لقد رأتك نتاليا سيميونوفنا تدخن مرتين . اذن فأنت قد ضبطت متلبسا بثلاثة اعمال سيئة : فأنت تدخن ، وتأخذ تبغا ليس لك من المكتب ، وتكذب . ثلاثة ذنوب !

فقال سيريوجا متذكرا بينما ابتسمت عيناه :

— آه ، نعم ! هذا صحيح ، صحيح ! انا دخنت مرتين : اليوم ومن قبل .

— هل رأيت ؟ اذن مرتين وليس مرة واحدة . . . انا غير راض عنك ابدا ، ابدا ! كنت صبيا طيبا من قبل ، اما الآن فأرى انك فسدت واصبحت سيئا .

وسوى يفجينى بتروفيتش ياقة سيريوجا وفكر :

«ماذا اقول له بعد ؟»

ثم استطرد يخاطبه :

— نعم ، هذا امر سيئ . لم اكن اتوقع ذلك منك . فأولا ، لا يحق لك ان تأخذ تبغا ليس ملكك . من حق كل انسان ان يستخدم فقط ما يملكه ، اما اذا استولى على ما ليس له فهو . . . فهو انسان سيئ ! (وفكر يفجينى بتروفتش : «ليس هذا هو المطلوب قوله !») فمثلا نتاليا

سيميونوفنا عندها صندوق ملابس . انه صندوقها ، ولا يحق لنا ، اقصد انا وانت ، ان نمسه ، لانه ليس صندوقنا . اليس كذلك ؟ وانت لديك لعب وصور . . . وانا لا استولى عليها ، اليس كذلك ؟ ربما كنت اريد ان استولى عليها . . . ولكنها ليست لى ، بل لك !

فقال سيريوجا وقد رفع حاجبيه :

— خذها اذا كنت تريد ! لا تخجل يا بابا من فضلك ، خذها ! هذا الكلب الاصفر على مكتبك هو كلبي ، ولكنى لا اقول شيئا . . فليبق على مكتبك !

فقال بيكوفسكى :

— انت لا تفهمني . هذا الكلب انت اهديتنيه ، فهو الآن ملكى ، وبوسعى ان افعل به ما اريد . ولكنى لم اعطك التبغ ! التبغ ملكى انا ! (وفكر وكيل النيابة : «ليس هذا ما ينبغى ان اوضحه ! ليس هذا ابدا !») ولو اردت انا ان ادخن تبغا ليس لى ، فعليّ قبل كل شيء ان استأذن . . .

اخذ بيكوفسكى يشرح لابنه ما معنى الملكية ، وهو يشبك العبارة بالعبارة فى كسل ويتصنع لهجة الاطفال . وكان سيريوجا يصغى اليه باهتمام وهو يحدق فى صدره (كان يحب التحدث مع ابيه فى اوقات المساء) ، ثم اتكأ على طرف المكتب وزر عينيه القصيرتى النظر محدقـــا فى الاوراق والمحبرة . وطافت نظراته على المكتب ثم توقفت على زجاجة صمغ عربـى .

وسأل فجأة وهو يقرب الزجاجة من عينيه :

— بابا ، ممّ يصنع الصمغ ؟

فأخذ بيكوفسكى الزجاجة منه ووضعها فى مكانها ، واكمل :

— وثانيا انت تدخن . . . وهذا شىء سيىء جدا ! فاذا كنت انا ادخن فهذا لا يعنى ابدا ان التدخين مسموح به . انا ادخن واعرف ان ذلك ليس من الحكمة ، واوبخ نفسى ولا احبها بسبب ذلك . . . (وفكر بيكوفسكى : «يا لى من مرب مكار !») . — التبغ ضار جدا بالصحة ، ومن يدخن يموت مبكرا . والتدخين ضار بصفة خاصة بالصغار امثالك . فصدرك ضعيف ، وانت لم تصبح قويا بعد ، والتدخين يصيب الضعفاء بالسل وغيره من الامراض . عمك اجناتى مثلا مات بالسل . لو لم يكن يدخن فربما عاش حتى اليوم .

تطلع سيريوجا مفكرا الى المصباح ، وتحسس الاباجورة باصبعه وتنهد .

وقال :

— كان عمى اجناتى يعزف جيدا على الكمان ! كمانه الآن عند آل جريجوريف !

واتكأ سيريوجا ثانية على طرف المكتب واستغرق فى التفكير . وعلى وجهه الشاحب استقر تعبير وكأنما كان يصغى او يتابع سير افكاره الخاصة . وبدا فى عينيه الواسعتين اللتين لا تطرفان حزن او شىء اشبه بالذعر . ربما كان يفكر الآن فى الموت الذى اختطف منذ زمن قريب امه وعمه اجناتى . فالموت يحمل الى العالم الآخر الامهات والاعمام ، بينما يبقى اولادهم وكماناتهم على الارض . ويعيش الموتى فى السماء ، فى مكان ما قرب النجوم ، وينظرون من هناك

الى الارض . ترى هل يتحملون الم الفراق ؟

وفكر يفجيني بتروفتش : «ماذا اقول له ؟ انه لا يصغي اليّ . يبدو انه لا يعير اهمية لا لذنوبه ولا لحججى . كيف اقنعه ؟»

ونهض وكيل النيابة واخذ يذرع غرفة المكتب . وراح يفكر :

«فى الماضى ، على ايامى ، كانت هذه المسائل تحل بمنتهى البساطة : كانوا يجلدون الصبى المتلبس بالتدخين . وكان الجبناء وضعفاء القلوب يقلعون فعلا عن التدخين . اما الاكثر شجاعة وذكاء فكانوا ، بعد العلقة ، يخبئون التبغ فى رقبة الحذاء العالى ويدخنون فى الحظيرة . وعندما يضبطون الصبى فى الحظيرة ويجلدونه ثانية ، كان يذهب الى شاطئ النهر ليدخن . . . وهكذا دواليك حتى يكبر . كانت امى تغدق عليّ النقود والحلوى حتى لا ادخن . اما الآن فتعتبر هذه الوسائل تافهة ولا اخلاقية . فالمربى الحديث ، وقد تسلح بالمنطق ، يحاول ان يجعل الطفل يتقبل المبادئ الخيرة لا بدافع الخوف او الرغبة فى التميز او طمعا فى مكافأة ، بل عن وعى» .

وبينما كان يتمشى ويفكر ، اعتلى سيريوجا الكرسى الموضوع بجوار المكتب وبدأ يرسم . وحتى لا يلوث الاوراق الرسمية ويعبث بالمحبرة وضعت على المكتب رزمة من الورق المقصوص خصيصا له وقلم ازرق .

وقال وهو يرسم بيتا ويلعب حاجبيه :

— جرحت الطباخة اليوم اصبعها عندما كانت تخرط الكرنب . وصرخت عاليا لدرجة اننا خفنا جميعا وركضنا

الى المطبخ . اما غبية ! نصحتها نتاليا سيميونوفنا بأن تبلل اصبعها بالماء البارد ، لكنها اخذت تمصه . . . كيف يمكن ان تضع فى فمها هذا الاصبع القذر ؟ اليس هذا عيبا يا بابا ؟

ثم روى بعد ذلك انه اثناء الغداء اتى الى الفناء عازف جوال ومعه فتاة كانت تغنى وترقص على انغام الموسيقى .

وفكر وكيل النيابة : «ان لديه تيار افكاره الخاصة ! لديه فى رأسه عالمه الصغير الخاص ، وبطريقته الخاصة يعرف ما هو المهم وغير المهم . ولا يكفى للاستحواذ على انتباهه وادراكه ان تتصنع لهجته ، وانما ينبغى كذلك ان تعرف كيف تفكر بطريقته . كان من الممكن ان يفهمنى تماما لو اننى بالفعل كنت آسفا على التبغ ، لو اننى غضبت وبكيت . . . ولهذا فالامهات لا غنى عنهن فى التربية لانهن قادرات على الاحساس بما يحس به الاطفال ، وعلى البكاء والضحك معهم . . . ولن تصل الى شىء بالمنطق والوعظ . حسنا ، فماذا اقول له ؟ ماذا ؟»

وبدا ليفجينى بتروفتش غريبا ومضحكا انه ، وهو القانونى المحنك ، والذى قضى نصف عمره فى التمرس بشتى انواع المنع والانذار والعقوبة ، اصبح مرتبكا تماما ولا يعرف ماذا يقول للصبى .

واخيرا قال :

— اسمع ، اعطنى كلمة شرف بأنك لن تدخن بعد الآن .

فقال سيريوجا مغنيا ، وهو يضغط بشدة على القلم وينحنى فوق الرسم :

— كلـ . . مة شر . . ف ! كلـ . . مـ . . ة شر . . ف ! رف . . رف . . .

وسأل بيكوفسكى نفسه : «وهل هو يعرف ما معنى كلمة شرف ؟ كلا ، اننى مرب سيـىء . لو ان احدا من المربين او من زملائى القضاة اطل الآن فى رأسى لاعتبرنى خرقة ، بل وربما اتهمنى بالافراط فى التحذلق . . . ولكن المشكلة ان كل هذه القضايا الخبيثة تحل فى المدرسة او المحكمة على نحو ابسط بكثير مما فى البيت . فأنت هنا تتعامل مع مخلوقات تحبها بجنون ، والحب يفرض متطلباته ويعقد المسألة . لو لم يكن هذا الصبـى ابنى ، لو كان تلميذى او احد المتهمين لما ترددت هكذا ، ولما تشتتت افكارى ! . .»

جلس يفجينى بتروفتش الى المكتب وتناول احد رسومات سيريوجا . كان الرسم يصور منزلا بسقف معوج ودخانـا يتصاعد من المدخنة حتى طرف الورقة على شكل تعرجات حادة كالبرق . وبجوار المنزل وقف جندى يحمل بندقية بحربة على شكل رقم (4) ، وبنقطتين بدلا مـــــن العينين .

وقال وكيل النيابة :

— الانسان لا يمكن ان يكون اعلى من المنزل . انظر . . السقف لديك يصل الى كتف الجندى .

وتسلق سيريوجا ركبتيه وظل يتحرك طويلا ليتخذ وضعا مريحا .

وقال بعد ان تأمل رسمه :

— لا يا بابا ! لو رسمت الجندى صغيرا فلن تظهر عيناه .

فهل كان عليه ان يجادله ؟ لقد اقتنع وكيل النيابة من واقع ملاحظاته اليومية لابنه ان لدى الاطفال ، مثلما لدى الاقوام المتوحشة ، نظرتهم الفنية الخاصة ومتطلباتهم المتميزة التى تستعصى على فهم الكبار . وربما لو راقب احد الكبار سيريوجا بانتباه لبدا له صبيا شاذا . فقد كان يعتبر من الممكن والمعقول ان يرسم الناس اعلى من المنازل ، ويعبر بالقلم ، الى جانب الاشياء ، عن احاسيسه الخاصة . فقد كان يصور مثلا انغام الاوركسترا على شكل بقع دخانية دائرية ، ويصور الصفير على شكل خيط لولبى . . . كان الصوت فى مفهومه يرتبط ارتباطا وثيقا بالشكل واللون ، فعندما يلون الحروف كان دائما يصبغ حرف (اللام) باللون الاصفر ، وحرف (الميم) باللون الاحمر ، وحرف (الالف) باللون الاسود ، وهلم جرا .

والقى سيريوجا بالرسم وتململ فى جلسته ثانية متخذا وضعا مريحا ، ثم راح يعبث بلحية ابيه . فى البداية مسدها بعناية ، ثم فرق شعرها واخذ يمشطه ليجعله مثل السوالف .

ودمدم :

— الآن اصبحت تشبه ايفان ستيبانوفتش . اما الآن فتشبه . . . بوابنا . بابا ، لماذا يقف البوابون بجوار الابواب ؟ لكى يمنعوا اللصوص من الدخول ؟

احس وكيل النيابة بأنفاس سيريوجا على وجهه ، وكان خده يلمس شعره بين الحين والحين ، فاحس فى قلبه

بدفء ونعومة ، كأنما لم تكن يداه فحسب بل وروحه كلها تستلقى على مخمل سترة سيريوجا . وحدق فى عينى الصبـى الواسعتين السوداوين ، فخيل اليه انه قد اطلت عليه من الحدقتين الواسعتين امه وزوجته وكل من احبهم فى يوم ما .

وقال فى نفسه : «فلتحاول اذن ان تجلده . . . هيا ابتكر عقابا لو استطعت ! كلا ، اين نحن من المربين . قبلا كان الناس بسطاء ، يفكرون اقل ، ولذلك كانوا يحسمون القضايا بجرأة . اما نحن فنفكر اكثر من اللازم ، والمنطق قد اغرقنا تماما . . . كلما كان الانسان اكثر تطورا وتفكيرا وغوصا فى دقائق الامور ، اصبح اقل جرأة واكثر وسوسة ، واشد وجلا فى التصدى للمسألة . وبالفعل ، لو امعنا التفكير ، فأية شجاعة وثقة فى النفس ينبغى ان تكون لدى المرء لكى يقدم على تعليم الآخرين ، والحكم عليهم ، وتأليف الكتب السميكة . . .» .

ودقت الساعة العاشرة .

فقال وكيل النيابة :

— حسنا يا بنى ، حان وقت النوم . ودّعنى وانصرف .

فعبس سيريوجا وقال :

— لا يا بابا . سأبقى قليلا . احك لى شيئا . احك لى حكاية !

— طيب ، لكن بعد الحكاية تذهب الى الفراش فورا .

كان من عادة يفجينى بتروفتش فى الامسيات الخالية ان يحكى الحكايات لسيريوجا . ومثل معظم الاشخاص

العمليين لم يكن يحفظ قصيدة شعر واحدة ، ولا يذكر حكاية واحدة ، ولهذا كان يلجأ الى الارتجال فى كل مرة . وفى العادة كان يبدأ بالعبارة التقليدية : «كان يا ما كان ، فى سالف العصر والاوان» ، ثم يحشد كمًّا من الهراء البرىء ولا يعرف ابدا عندما يبدأ كيف سيكون وسط الحكاية ونهايتها . كان يعتمد على الحظ والبديهة فى رسم الصور والاشخاص والظروف . اما الموضوع والموعظة فينبثقان تلقائيا ، دون علاقة بارادة الراوى . وكان سيريوجا يهوى كثيرا هذه القصص المرتجلة ، ولاحظ وكيل النيابة انه كلما جاء الموضوع بسيطا دون تعقيد ، كان تأثيره على الصبى اقوى .

وبدأ يحكى وقد رفع نظره الى السقف :

— اسمع . . . كان يا ما كان ، فى سالف العصر والاوان ، كان هناك ملك عجوز عجوز ، بلحية شيباء طويلة و . . . وبشوارب هائلة . وكان يعيش فى قصر زجاجى يلمع ويتلألأ فى الشمس مثل قطعة كبيرة من الجليد النقى . اما القصر يا اخى فكان وسط حديقة ضخمة ، حيث كانت تنمو ماذا ؟ . . اشجار البرتقال . . والكمثرى . . . والكرز . . . وتزهر ازهار الاقحوان ، والورود ، والسوسن ، وتنشد الطيور الزاهية الالوان . . . نعم . . . وكانت تتدلى من الاشجار اجراس زجاجية صغيرة ، وعندما تهب الريح ، ترن بصوت رقيق ، يخلب الالباب . فالزجاج يصدر صوتا ارق وانعم من المعدن . . . حسنا ، وماذا كان هناك ايضا ؟ كانت النافورات تتدفق فى الحديقة . . . اتذكر النافورة التى رأيتها فى دار خالتك سونيا الريفية ؟ مثلها بالضبط كانت النوافير فى حديقة الملك ، ولكنها اكبر بكثير ، وكانت تيارات الماء المتدفقة

منها تصل الى قمة اعلى شجرة حور . . .

وفكر يفجينى بتروفتش قليلا ثم استطرد :

— وكان لدى الملك العجوز ابن وحيد ، هو وريث العرش والمملكة . كان صبيا صغيرا هكذا مثلك . وكان ولدا طيبا . لم يكن يتدلل ابدا ، وكان ينام مبكرا ، ولا يلمس شيئا على المكتب . . . وعموما كان ولدا شاطرا . لم يكن يعيبه الا شيء واحد : لقد كان يدخن . . .

اصغى سيريوجا بتركيز وهو يحدق فى عينى ابيه بعينين لا تطرفان . ومضى وكيل النيابة يحكى وهو يفكر : «وماذا بعد ؟» وبعد ان لت وعجن كثيرا ، كما يقال ، انهى الحكاية هكذا :

— ومن التدخين مرض ولى العهد بالسل ومات وهو فى العشرين من عمره . واصبح الملك العجوز ، المريض المهدم ، بلا معين . ولم يعد هناك من يرعى شئون المملكة ويحمى القصر . فجاء الاعداء وقتلوا الملك العجوز ، وهدموا القصر ، ولم يعد فيه الآن كرز او طيور او اجراس . . . هكذا يا اخى . . .

بدت هذه النهاية ليفجينى بتروفتش نفسه مضحكة وساذجة ، الا ان الحكاية بمجملها تركت فى نفس سيريوجا اثرا قويا . وعاد الحزن وشيء اشبه بالرعب يلف عينيه . وظل حوالى دقيقة يحدق فى النافذة المظلمة وهو مستغرق فى التفكير ، ثم انتفض وقال بصوت متهدج :

— لن ادخن مرة ثانية . . .

وبعد ان ودع اباه وانصرف لينام ، اخذ الاب يذرع الغرفة بهدوء من ركن لركن وهو يبتسم .

وفكر فى نفسه : «قد يقال ان ما أثّر عليه هو الجمال والشكل الفنى . فليكن ، ولكن هذا ليس بشىء مطمئن . انه مع ذلك ليس وسيلة حقيقية . . . لماذا ينبغى تقديم الموعظة والحقيقة ليس بصورتهما المجردة ، النيئة ، بل بالخلطات ، وبقشرة سكرية مذهبة كحبات الدواء ؟ ليس هذا طبيعيا . . . انه خداع ، تزوير . . تحايل . . .»

وتذكر القضاة المحلفين ، الذين لا بد ان تُسمعهم «خطبة عصماء» ، وعامة الناس الذين لا يستوعبون التاريخ الا من خلال الملاحم والسير والروايات التاريخية ، وتذكر نفسه ، هو الذى استقى خبرة الحياة لا من المواعظ والقوانين ، بل من الحكايات والروايات والاشعار . . .

«ينبغى ان يكون الدواء حلوا ، والحقيقة جميلة . . . وهذه النزوة قد اباحها الانسان لنفسه منذ عهد آدم . . . وعموما . . . ربما كان كل ذلك طبيعيا وهكذا ينبغى للامور ان تكون . . . وهل تخلو الطبيعة من الخداع المفيد والاوهام . . .» .

وشرع يعمل ، بينما ظلت الافكار المنزلية الكسولة تهوم فى رأسه طويلا . ولم تعد انغام العزف تسمع ولكن ساكن الطابق الثانى ظل يخطو من ركن لركن . . .

فولوديا

في يوم أحد صيفي ، وفي حوالي الساعة الخامسة مساء كان فولوديا ، الفتى ذو السبعة عشر عاما ، القبيح الوجه ، العليل والخجول ، جالسا في عريشة بحديقة دار آل شوميخين الريفية ، مستسلما للضجر . وجرت أفكاره المقبضة في ثلاثة اتجاهات . فأولا : كان عليه غدا ، الاثنين ، ان يؤدى امتحان الرياضيات . وكان يعرف أنه اذا لم يوفق غدا في حل المسألة التحريرية ، فسوف يفصلونه لانه قضى سنتين في الصف السادس ، وكانت درجة أعمال السنة في الجبر لديه ٢٣/٤ * . وثانيا : كان وجوده عند آل شوميخين ، هؤلاء الاغنياء مدعي الارستقراطية يثير في نفسه شعورا مستمرا بالمهانة . كان يخيل اليه ان مدام شوميخينا وبنات اخواتها ينظرن اليه والى maman نظرتهن الى الأقارب الفقراء والطفيليين ، وأنهن لا يحترمن maman

---

* وفق نظام التعليم الروسي كانت النهاية العظمى للدرجات هي خمس درجات ، والحاصل على أقل من ٣ درجات يعتبر راسبا . **المعرب** .

ويسخرن منها . وذات مرة سمع صدفة مدام شوميخينا وهى تتحدث فى الشرفة مع ابنة خالتها آنّا فيودوروفنا وتقول ان maman ما زالت تتصابى وتتزوق ، وأنها لا تسدد ابدا خسائرها فى اللعب ولديها ولع بأحذية الغير وتبغهم . وكان فولوديا يتوسل كل يوم الى maman ألا تذهب الى آل شوميخين ، ويوضح لها الدور المهين الذى تلعبه عند هؤلاء السادة ، وكان يحثها ويتطاول عليها ، ولكن هذه المرأة المدللة الطائشة ، التى بددت فى حياتها ثروتين ، ثروتها وثروة زوجها ، والميالة دوما الى المجتمع الراقى ، لم تكن تفهمه ، فكان على فولوديا أن يصحبها مرتين فى الأسبوع الى الدار الريفية المقيتة .

وثالثا : لم يكن فى وسعه أن يتخلص لحظة واحدة من شعور غريب غير مريح ، كان جديدا عليه تماما . . . فقد خيل اليه أنه قد وقع فى حب آنّا فيودوروفنا ، ابنة خالة مدام شوميخينا وضيفتها . كانت سيدة نشطة ، عالية الصوت ومازحة ، فى حوالى الثلاثين ، عفية ، قوية ، وردية البشرة ، ذات كتفين مستديرتين ، وذقن مستدير سمين ، وابتسامة دائمة على شفتيها الدقيقتين . لم تكن جميلة او صبية ، وكان فولوديا يدرك ذلك جيدا ، ولكنه لسبب ما لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيها والنظر اليها ، عندما كانت ، وهى تلعب الكروكيت ، تهز كتفيها المستديرتين وتحرك ظهرها الأملس ، او عندما كانت تتهالك فى المقعد بعد ضحك طويل وركض على السلم ، وتغمض عينيها وهى تلهث مدعية انها تشعر فى صدرها بالضيق والاختناق . وكانت متزوجة . وكان زوجها ، وهو معمارى رصين ، يحضر

مرة فى الاسبوع الى الدار الريفية ، فيشبع نوما ، ثم يعود أدراجه الى المدينة . وقد بدأ هذا الشعور الغريب يراود فولوديا عندما وجد نفسه ، بلا سبب ، يمقت هذا المعمارى ، وفى كل مرة يرحل فيها هذا الرجل الى المدينة يحس بالفرح .

وها هو الآن ، وهو جالس فى العريشة يفكر فى امتحان الغد وفى maman التى يسخرون منها ، يشعر برغبة قوية فى رؤية نيوتا (هكذا كان آل شوميخين يدعون آنـــا فيودوروفنا) ، وفى سماع ضحكها وحفيف فستانها . . . ولم تكن هذه الرغبة تشبه ذلك الحب النقى ، الشاعرى ، الذى كان يعرفه من الروايات ويحلم به كل مساء عندما يأوى الى الفراش ؛ بل كانت رغبة غريبة ، غير مفهومة ، يخجل منها ويخشاها ، كأنها شىء قبيح للغاية وملوث ، من الصعب أن يعترف به حتى لنفسه . . .

وقال لنفسه :

— ليس هذا حبا . لا أحد يقع فى حب سيدات فى الثلاثين ومتزوجات . . . هذه مجرد قصة غرامية صغيرة . . . نعم قصة غرامية . . .

وبينما مضى يفكر فى هذه القصة الغرامية تذكر خجله الذى لا يقهر ، وخلو وجهه من الشارب ، وامتلاءه بالنمش ، وعينيه الضيقتين ، ووضع نفسه فى الخيال بجوار نيوتا ، فبدا له اجتماع هذا الزوج مستحيلا . عندئذ سارع الى تخيل نفسه جميلا ، جريئا ، حاضر البديهة ، متأنقا حســب آخر موضة . . .

وفى قمة أحلامه ، وهو جالس فى زاوية العريشة المظلمة متكورا يحدق فى الارض ، تردد وقع خطوات خفيفة .

كان أحدهم يسير فى الممر على مهل . وسرعان ما خفتت الخطوات ولاح شيء أبيض عند مدخل العريشة .

وسأل صوت نسائى :

— هل يوجد هنا أحد ؟

وعرف فولوديا هذا الصوت فرفع رأسه مذعورا .

— من هنا ؟ — سألت نيوتا وهى تدخل العريشة . — آه ، أهو أنت يا فولوديا ؟ ماذا تفعل هنا ؟ تفكر ؟ كيف يمكن ان تفكر ، تفكر ، تفكر طول الوقت . . . بهذه الطريقة ستصاب بالجنون !

نهض فولوديا ونظر الى نيوتا مرتبكا . كانت عائدة لتوها من السباحة . وتدلت على كتفها ملاءة وفوطة ، وبرزت من تحت منديل رأسها الحريرى الابيض خصلات شعرها المبتلة الملتصقة بجبينها . وفاحت منها رائحة رطبة منعشة ، رائحة النهر وصابون زيت اللوز . وكانت تلهث من السير السريع . وكان زر بلوزتها العلوى مفكوكا فرأى فولوديا عنقها وصدرها .

وسألت نيوتا وهى تشمل فولوديا بنظرتها :

— ما لك ساكت ؟ ليس من الأدب أن تصمت عندما تكلمك سيدة . يا لك من عجل يا فولوديا ! دائما تجلس صامتا وتفكر ، كأنك أحد الفلاسفة . ليس فيك حيوية او نار أبدا ! حقا انت كريه . . . فى مثل سنك ينبغى ان تعيش ، وتقفز ، وتثرثر ، وتغازل النساء ، وتعشق .

حدق فولوديا فى الملاءة التى تثبتها ذراع بيضاء ممتلئة ، وراح يفكر . . .

وقالت نيوتا باستغراب :

— انه ساكت ! هذا غريب فعلا . . . اسمع ، كن رجلا ! حسنا ، ابتسم على الاقل ! أف ، يا لك من فيلسوف كريه ! — وضحكت . — أتدرى يا فولوديا لماذا أنت عجل هكذا ؟ لأنك لا تغازل النساء . فلماذا لا تغازلهن ؟ صحيح ليس هنا آنسات ، ولكن لا شيء يمنعك من مغازلة السيدات ! لماذا لا تغازلني مثلا ؟

أصغى فولوديا وأخذ يحك صدغيه بتفكير صعب متوتر .

واستطردت نيوتا تقول وهى تنزع يده عن صدغه :

— المتكبرون وحدهم هم الذين يصمتون ويحبون العزلة . أنت متكبر يا فولوديا ! لماذا تنظر الي شزرا ؟ من فضلك انظر مباشرة فى وجهى ! هيا ، هيا يا عجل !

وقرر فولوديا أن يتكلم . ورغبة منه فى أن يبتسم أرعش شفته السفلى وطرف بعينيه ، ومد يده ثانية الى صدغه .

ودمدم :

— أنا . . . أنا أحبك !

رفعت نيوتا حاجبيها بدهشة وضحكت .

وغنت مثل مغنيات الاوبرا عندما يسمعن شيئا فظيعا :

— ما الذى أسمعه ؟ كيف ؟ ماذا قلت ؟ أعد . . أعد . . .

فأعاد فولوديا :

— أنا . . . أنا أحبك !

وتقدم نصف خطوة نحو نيوتا مسلوب الارادة وهو لا يفهم ولا يدرك شيئا ، وأمسك بذراعها فوق المرفق . وغامت عيناه ودمعتا ، وتركز العالم كله فى فوطة كبيرة فاحت منها رائحة النهر .

وسمع ضحكا مرحا وصوتا يقول :

— برافو ، برافو ! لماذا سكت ؟ أنا أريدك ان تتكلم ! هيا !

وعندما رأى فولوديا أن نيوتا لا تمنعه من الامساك بذراعها تطلع الى وجهها الضاحك ، ثم احاط خصرها بذراعيه بطريقة فجة غير مريحة ، والتقى ساعداه خلف ظهرها . كان ممسكا بها من خصرها بكلتا يديه ، بينما رفعت هى ذراعيها الى قفاها فلاحت غمازتان فى مرفقيها ، واخذت تسوى شعرها تحت المنديل وتقول بصوت هادئ :

— ينبغى يا فولوديا أن تكون ماهرا ، مهذبا ، رقيقا ، ولن تستطيع ان تكون كذلك الا تحت تأثير الصحبة النسائية . أوه ، ولكن ما هذا الوجه المقبض . . الشرير . ينبغى أن تتكلم ، وتضحك . . . نعم يا فولوديا ، لا تكن فظا ، فأنت شاب وما زال أمامك الوقت لتتشبع من الفلسفة . هيا دعنى ، سأذهب ! قلت لك دعنى !

وخلصت خصرها بسهولة ، وخرجت من العريشة وهى تدندن بلحن ما . وبقى فولوديا وحده . سوى شعره وابتسم ، وذرع العريشة عدة مرات من ركن لركن ، ثم جلس على الاريكة ، وابتسم مرة اخرى . كان يشعر بخجل لا يطاق ، حتى انه دهش من ان الخجل البشرى يمكن ان يبلغ هذه الدرجة من الحدة والقوة . ومن الخجل راح يبتسم ويتمتم بكلمات غير مترابطة ويشيح بيديه .

كان خجلا من انه عومل منذ لحظات كما يعامل الاطفال ، كان خجلا من وجله ، والاهم من ذلك ، لأنه تجاسر على تطويق خصر امرأة فاضلة متزوجة ، بالرغم

من انه لا عمره ، ولا مميزاته الخارجية ، ولا وضعه الاجتماعى ، لم تكن تعطيه ، كما بدا له ، اى حق فى ذلك .

وهب واقفا ، وخرج من العريشة ، ومضى دون ان يتلفت الى داخل الحديقة بعيدا عن الدار .

وفكر وهو يمسك برأسه : «أوه ، لو نرحل بسرعة من هنا ! يا الهى ، بسرعة !»

كان القطار الذى ينبغى ان يستقله فولوديا مع maman يتحرك فى الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين . وبقى الى موعد القطار حوالى ثلاث ساعات ، ولكن فولوديا كان يود بكل سرور لو رحل الى المحطة الآن ، دون انتظار maman .

وقبيل الساعة الثامنة توجه الى الدار . واكتسبت هيئته كلها طابع الحزم : فليكن ما يكون ! وقرر ان يدخل الدار بجرأة ، وينظر فى العيون مباشرة . ويتكلم بصوت عال مهما كان الامر .

عبر الشرفة ، والصالة الكبيرة ، وحجرة الجلوس ، وهناك توقف قليلا ليسترد أنفاسه . ومن هنا سمع اصوات السيدات وهن يتناولن الشاى فى غرفة الطعام المجاورة . كانت مدام شوميخينا و maman ونيوتا يتحدثن عن شىء ما ويضحكن .

وأصاخ فولوديا السمع .

كانت نيوتا تقول :

— صدقننى ! . . أنا لم أصدق عينىّ ! عندما أخذ يبوح لى بحبه ، بل وتصورن ، أحاط بخصرى ، لم أعرف فيه فولوديا القديم . وبالمناسبة ، انه مهذب !

عندما قال انه يحبني كان في عينيه شيء وحشي ، كما في عيون الشركس .

وتأوهت maman :

— معقول ؟ — وأغرقت في ضحك طويل . — معقول ؟ كم يذكرني بأبيه .

وهرول فولوديا راجعا ، وأفلت من الدار الى الهواء الطلق .

وقال في نفسه وهو يتمزق ويشيح بيديه ويحدق في السماء برعب : «كيف يجرؤن على الكلام عن ذلك علانية ! يتحدثن علانية ، بأعصاب باردة . . . و maman تضحك . . . maman يا الهي ، لماذا وهبتني هذه الأم ؟ لماذا ؟»

ومع ذلك كان عليه ان يذهب الى الدار ويدخل مهما كان الأمر . وذرع الممر عدة مرات حتى هدأ قليلا ثم دخل الدار .

وسألته مدام شوميخينا بصرامة :

— لماذا لا تأتي لشرب الشاي في الموعد ؟

فدمدم دون أن يرفع عينيه :

— آسف . . . أنا . . . ينبغي أن أرحل . maman ، الساعة بلغت الثامنة !

فقالت maman ساهمة :

— اذهب أنت يا عزيزي . . سأبقى للمبيت عند ليلي . وداعا يا صديقي . . . دعني أباركك . . .

ورسمت عليه علامة الصليب ، وقالت بالفرنسية لنيوتا :

— انه يشبه ليرمونتوف قليلا * . . . أليس كذلك ؟

ودعهن فولوديا كيفما اتفق ، دون أن ينظر الى وجوههن ، وخرج من غرفة الطعام . وبعد عشر دقائق كان فى الطريق الى المحطة ، وكان سعيدا بذلك . لم يعد يشعر بالرهبة او الخجل ، وأحس بأنفاسه تتردد بخفة وطلاقة .

وعلى بعد نصف كيلومتر من المحطة جلس على حجر بقرب الطريق وراح يتطلع الى الشمس التى اختفت الى اكثر من نصفها وراء جسر الخط الحديدى . وفى المحطة أشعلت المصابيح هنا وهناك ، وومض ضوء أخضر غائم وحيد ، ولكن القطار لم يظهر بعد . كان فولوديا مرتاحا الى جلوسه هكذا دون حراك وهو يصغى الى اقتراب المساء شيئا فشيئا . وتجلى ظلام العريشة ، ووقع الخطوات ، ورائحة النهر ، والضحك والخصر . تجلى كل ذلك فى مخيلته بوضوح مذهل ، ولم يعد كل ذلك مخيفا وكبير الاهمية كما كان من قبل . . . .

وفكر فى نفسه : «هراء . . . لم تنزع يدى ، بل وضحكت عندما أمسكت بخصرها ، اذن فقد أعجبها ذلك . لو ضايقها ذلك لغضبت منى . . .»

وأحس فولوديا الآن بالأسى لأنه لم يكن جريئا كما يجب هناك فى العريشة . وأسف على انه يرحل هكذا ،

---

* ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ — ١٨٤١) شاعر روسى كبير ، خلف بوشكين على عرش الشعر . وله ايضا رواية نثرية مشهورة «بطل من هذا الزمان» . **المعرب** .

بطريقة غبية ، واصبح واثقا من انه لو تكررت هذه الفرصة لكان اكثر جرأة ، ولنظر الى الامور نظرة أبسط .

حسنا ، ليس من الصعب ان تتكرر الفرصة . فآل شوميخين يتنزهون طويلا بعد العشاء . ولو ذهب فولوديـا للنزهة مع نيوتا فى الحديقة المظلمة فستكون تلك هى الفرصة !

وقال فى نفسه : «سأعود ، وغدا أرحل بقطار الصباح . . . سأقول اننى تأخرت عن القطار» .

وعاد . . . كانت مدام شوميخينا و maman ونيوتا واحدى بنات الاخوات جالسات فى الشرفة يلعبن الورق . وعندما كذب فولوديا مدعيا انه تأخر عن القطار ، أبدين قلقهن خشية أن يتأخر غدا عن موعد الامتحان ، ونصحنه أن يستيقظ غدا فى وقت مبكر . وطوال فترة لعبهن جلس غير بعيد ، وهو يتطلع الى نيوتا بنهم وينتظر . . . واكتملت فى رأسه الخطة : سيقترب من نيوتا فى الظلام ، ويمسك بيدها ، ثم يعانقها . ولا حاجة لأن يقول شيئا ، لأن كل شىء سيكون مفهوما لكليهما دون كلمات .

ولكن السيدات لم يذهبن للتنزه فى الحديقة بعد العشاء وواصلن اللعب . ولعبن حتى الواحدة صباحا ، ثم تفرقن للنوم .

وقال فولوديا لنفسه بأسى وهو يأوى الى الفراش : «ما أغبـى هذا كله ! لكن لا بأس ، سأنتظر الى الغد . . . غدا مرة أخرى فى العريشة . لا بأس . . .»

لم يحاول أن ينام ، بل جلس فى الفراش ، محيطا ركبتيه بذراعيه ، وأخذ يفكر . كان التفكير فى الامتحان كريها . وقد قرر بينه وبين نفسه انهم سيفصلونه حتما ،

وانه ليس في هذا الفصل أي شيء مروع . بالعكس ، كل شيء ممتاز جدا . فغدا سيكون طليقا كالطائر ، وسيرتدى الملابس المدنية ، وسيدخن علنا ، وسيتردد على هذه الدار لكي يغازل نيوتا في أي وقت يشاء . لن يعود تلميذا ، بل «شابا محترما» . وما عدا ذلك ، أي ما يسمى بال«كارير» والمستقبل ، فأمره واضح : سيتطوع للخدمة ، او يعمل في البرق ، او حتى في صيدلية ، حيث يترقى الى وظيفة محضِّر أدوية . . . فما أكثر الوظائف . . . ومرت ساعة ، وأخرى وهو جالس يفكر . . .

وقبيل الثالثة صباحا ، عندما بدأ ضوء الفجر يلوح ، صرّ الباب بحذر ودخلت maman الغرفة .

وسألت وهى تتثاءب :

— ألست نائما ؟ نم ، نم ، سأخرج حالا . . . فقط سآخذ قطرات . . .

— ولماذا تحتاجين اليها .؟

— لِيلي المسكينة عندها تشنج . نم يا بنى ، عندك امتحان غدا . . .

واخذت من الصوان قارورة بها قطرات ما ، واقتربت من النافذة وقرأت المكتوب عليها ثم خرجت .

وبعد دقيقة سمع فولوديا صوتا نسائيا يقول :

— يا ماريا ليونتيفنا ، هذه ليست القطـــــــرات المطلوبة !

هذه قطرات السوسن ، وليلي تريد المورفين . هل ابنك نائم ؟ اطلبـى منه أن يبحث عنها . . .

كان ذلك صوت نيوتا . وسرت البرودة فى جسد فولوديا .

واسرع يرتدى سرواله ، ثم القى بالمعطف على كتفيه واتجه الى الباب .

وكانت نيوتا توضح لأمه همسا :

— مفهوم ؟ المورفين ! مكتوب عليها باللاتينى . أيقظى فولوديا وسوف يعثر عليه . . .

فتحت maman الباب فرأى فولوديا نيوتا . كانت فى تلك البلوزة التى ذهبت فيها للحمام . ولم يكن شعرها مصففا بل تناثر على كتفيها ، وكان وجهها ناعسا ، أسمر فى العتمة . . .

وقالت :

— ها هو فولوديا مستيقظ . فولوديا ، ابحث يا عزيزى عن المورفين فى الصوان . مصيبة لِيلي هذه . . . دائما يحدث لها شىء ما .

ودمدمت maman بكلمات ما ، وتثاءبت وانصرفت .

وقالت نيوتا :

— هيا ابحث ، ما لك واقف ؟

اتجه فولوديا نحو الصوان ، وجثا على ركبتيه وراح يفتش بين القوارير وعلب الادوية . كانت يداه ترتعشان ، وأحس فى صدره وجوفه بشىء ، وكأنما تدفقت فى احشائه كلها أمواج باردة . وشعر بالاختناق والدوار من رائحة الأثير وحامض الكربوليك وشتى الأعشاب الطبية التى كان يقلبها دون أى داع بيدين مرتعشتين فتتبعثر منه بسبب ذلك .

وفكر : «يبدو ان maman ذهبت . هذا حسن . . . حسن . . .»

وسألت نيوتا بنبرة ممطوطة :

— هل ستنتهى قريبا ؟

— حالا . . ها هو المورفين على ما أظن . . . — قال وهو يقرأ كلمة «morph...» على احدى القوارير . — تفضلى !

كانت نيوتا واقفة بالباب ، بحيث كانت احدى ساقيها فى الطرقة والاخرى فى غرفته . وسوت شعرها الذى كان من الصعب تسويته لغزارته وطوله ، ونظرت الى فولوديا نظرة شاردة . وبدت لفولوديا فى هذه البلوزة الفضفاضة ، وبوجهها الناعس ، وبشعرها المهدل ، فى هذا الضوء الشحيح المتسرب الى الغرفة من السماء التى أبيضت وان لم تنرها الشمس بعد ، بدت له جذابة ، باهرة . . . كان مفتونا ، وبدنه كله يرتعش ، وتذكر باستمتاع كيف احتضن هذا الجسد الخلاّب فى العريشة . ومد لها الدواء قائلا :

— كم انت . . .

— ماذا ؟

ودخلت الغرفة .

وسألت وهى تبتسم :

— ماذا ؟

كان صامتا يتطلع اليها ، ثم تناول يدها كما فى العريشة . . . أما هى فنظرت اليه وهى تبتسم وتنتظر : وماذا بعد ؟

وهمس :

— أنا أحبك . . .

كفت عن الابتسام ، وفكرت قليلا ، ثم قالت :

— مهلا ، يبدو أن أحدا قادم . آه من هؤلاء التلاميذ ! — قالت فى شبه همس وهى تمضى الى الباب

وتطل فى الطرقة . — كلا ، لا احد هناك . . .

وعادت . . . .

ثم خيل لفولوديا أن الغرفة ، ونيوتا ، والفجر ، وهو نفسه . . كل ذلك تركز فى احساس واحد بسعادة حادة غير عادية ، لا مثيل لها ، تستحق من أجلها ان تدفع كل عمرك وتتحمل العذاب الأبدى ، ولكن ما أن مر نصف دقيقة حتى اختفى كل ذلك فجأة . لم يعد فولوديا يرى سوى وجه بدين دميم شوهه تعبير اشمئزاز ، وفجأة أحس هو ايضا بالقرف مما حدث .

وقالت نيوتا وهى تنظر الى فولوديا بتقزز :

— ينبغي عليّ ان أذهب . يا لك من دميم ، بائس . . . اخص . . . فرخ بط قبيح !

وكم بدا بشعا لفولوديا الآن شعرها الطويل ، وبلوزتها الفضفاضة ، وخطواتها ، وصوتها ! . .

وقال لنفسه بعد أن ذهبت : «فرخ بط قبيح . . . حقا أنا قبيح . . . كل شىء قبيح» .

كانت الشمس فى الخارج قد بزغت ، وصدحت الطيور . وتناهت من الحديقة خطوات البستانى وصرير عربته اليدوية . . . وبعد ذلك بقليل تردد خوار البقر وأنغام زمارة الراعى . وكان ضوء الشمس وتلك الاصوات تنبىء بوجود حياة طاهرة ، أنيقة ، شاعرية فى مكان ما فى هذه الدنيا . ولكن أين هى ؟ لم يتحدث عنها الى فولوديا أحد ، لا maman ولا كل اولئك الاشخاص المحيطين به .

وعندما أيقظه الخادم ليلحق بقطار الصباح تصنع النوم . . .

وقال فى نفسه : «فى داهية ، فليذهب كل شىء

الى الشيطان ! »

ونهض من فراشه فى الحادية عشرة . وفكر وهو يمشط شعره امام المرآة ويتطلع الى وجهه الدميم الشاحب من السهاد :

«صحيح تماما . . . فرخ بط قبيح» .

وعندما رأته maman وجزعت من عدم ذهابه الى الامتحان قال لها فولوديا :

— غبت فى النوم يا maman . . . لكن لا تقلقى ، سأقدم شهادة طبية .

واستيقظت مدام شوميخينا ونيوتا قبيل الساعة الواحدة . وسمع فولوديا كيف فتحت مدام شوميخينا نافذتها بصخب بعد ان استيقظت ، وكيف نادت على نيوتا بصوتها الأجش فردت هذه بضحك مجلجل . ورأى الباب يفتح فيتقاطر من غرفة الجلوس الى مائدة الافطار صف طويل من بنات الاخوات والطفيليات (وفى حشد الأخيرات كانت maman) ، ولمح وجه نيوتا المغسول الضاحك ، وبجواره ظهرت لحية المعمارى الذى وصل لتوه وحاجباه الاسودان .

كانت نيوتا فى تايير اوكرانى لم يكن لائقا بها ابدا بل جعل منظرها أخرق . وكان المعمارى يلقى نكات مبتذلة وسطحية أما الكستليتة التى قدمت فى الافطار فقد بدا لفولوديا أن فيها بصلا زائدا . وبدا له ايضا أن نيوتا تضحك بصوت عال عن عمد وتنظر نحوه لكى تفهمه بذلك أن ذكرى ليلة الأمس لا تسبب لها أى قلق ، وأنها لا تشعر بوجود فرخ البط القبيح على المائدة .

وقبيل الساعة الرابعة رحل فولوديا مع maman الى المحطة . وأثارت الذكريات القذرة ، والسهاد ، والفصل

المنتظر من المدرسة ، وتأنيب الضمير . أثار كل ذلك في نفسه غيظا ثقيلا قاتما . وتطلع الى صفحة وجه maman الهزيل وأنفها الصغير ومعطفها المشمع الذى اهدته لها نيوتا ، ودمدم :

— لماذا تضعين البودرة ؟ هذا لا يليق فى مثل سنك ! أنت تتزوقين ولا تسددين خسائرك فى اللعب ، وتدخنين سجائر الآخرين . . هذا كريه ! أنا لا احبك . . لا أحبك !

كان يهينها ، بينما راحت تدير عينيها بخوف ، وتشيح بيديها وتهمس بذعر :

— ما هذا يا صديقى ؟ يا الهى ، سيسمعك الحوذى ! اسكت والا سمعك الحوذى ! انه يسمعك !

ولكن فولوديا مضى يقول وهو يختنق :

— لا أحبك . . لا أحبك ! أنت منحلّة ، بلا قلب . . اياك ان تلبسى هذا المعطف ! أتسمعين ؟ والا سأمزقه اربا . . .

فبكت maman مستعطفة :

— عيب يا ولدى ! سيسمعك الحوذى !

— وأين ثروة أبــى ؟ أين نقودك ؟ انت بددت كل ذلك ! انا لا أخجل من فقرى ، ولكنى اخجل من ان لى أما مثلك . . . عندما يسألنى رفاقى عنك أحمر خجلا . . .

كان عليهما ان يستقلا القطار لمسافة محطتين حتى المدينة . ووقف فولوديا طوال الطريق فى شرفة العربة وجسده كله يرتعش . لم يشأ أن يدخل العربة ، فقد جلست هناك أمه التى كان يمقتها . وكان يمقت نفسه ومفتشى القطار

ودخان القاطرة ، والبرد الذى عزا اليه رعشته . . . وكلما ضاقت، نفسه ، ازداد احساسه بأنه توجد فى مكان ما فى هذا العالم ، وعند اناس ما ، حياة نقية ، سامية ، دافئة ، انيقة ، مليئة بالحب والرقة والمرح والانطلاق . . . أحس بذلك فاستبدت به كآبة شديدة ، حتى ان أحد الركاب نظر اليه نظرة فاحصة وسأله :

— ماذا ، يبدو أن اسنانك تؤلمك ؟

كانت maman وفولوديا يعيشان فى المدينة عند ماريا بتروفنا ، وهى سيدة من النبلاء كانت تستأجر شقة كبيرة وتؤجرها من الباطن للسكان . وكانت maman تستأجر غرفتين ، احداهما ذات نوافذ وبها سريرها ولوحتان باطارين مذهبين معلقتان على الجدران ، كانت غرفتها ، ومن داخلها غرفة صغيرة مظلمة يقطنها فولوديا . وكانت هنا كنبة ينام عليها ، وفيما عدا الكنبة لم يكن هنالك اى اثاث . كانت الغرفة كلها غاصة بسلال الملابس وعلب القبعات وبمختلف انواع المتاع القديم الذى كانت maman تحتفظ به لسبب ما . وكان فولوديا يحضر دروسه فى غرفة أمه او فى «الغرفة المشتركة» . . هكذا كانوا يسمون الغرفة الكبيرة التى كان كل السكان يجتمعون فيها اثناء الغداء او فى اوقات المساء .

وعندما عاد فولوديا الى البيت استلقى على الكنبة وتغطى بالبطانية ليكبح ارتجاف بدنه . وذكرته علب القبعات والسلال والمتاع القديم بانه ليس لديه غرفته الخاصة ، ملجأه الذى يمكن ان ينتحى فيه بعيدا عن maman وضيوفها وعن الاصوات التى كانت تتناهى الآن من «الغرفة المشتركة» . وذكرته الحقيبة المدرسية والكتب المتناثرة فى الاركان بالامتحان

الذى تغيب عنه . . . ولسبب ما ودون مناسبة تذكر (منتون) حيث كان يعيش وهو فى السابعة من عمره مع المرحوم والده . وتذكر (بياريتس) * ، والفتاتين الانجليزيتين اللتين كان يركض معهما على رمال الشاطئ . . . واراد ان يسترجع فى ذاكرته لون السماء والمحيط ، وارتفاع الامواج ، ومزاجه آنذاك لكنه لم يتمكن من ذلك . ومضت الفتاتان الانجليزيتان فى مخيلته بصورة حية مجسدة ، اما الاشياء الاخرى فاختلطت وتبخرت فى اضطراب . . .

«كلا ، الجو هنا بارد» ، ـــ فكر فولوديا ، ثم نهض فارتدى المعطف واتجه الى «الغرفة المشتركة» .

كانوا هناك يشربون الشاى . وجلس الى السماور ثلاثة اشخاص : maman ، ومدرسة الموسيقى ، وهى عجوز ترتدى عوينات باطار من عظم السلحفاة ، وأفجوستين ميخايليتش ، كهل فرنسى بدين للغاية ، يعمل فى مصنع عطور .

وقالت maman :

ـــ انا لم أتغد اليوم . ينبغى ارسال الخادم لشراء خبز .

فصاح الفرنسى :

ـــ يا دونياشا !

واتضح أن ربة البيت أرسلت الخادم فى أمر ما .

فقال الفرنسى وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

* منتون وبياريتس مدينتان ساحليتان فى فرنسا . **المعرب** .

— أوه ، هذه بسيطة جدا . أنا سأذهب واشترى لك الخبز . أوه ، هذه بسيطة !

وضع سيجاره ذا الرائحة القوية الكريهة فى مكان ظاهر ، وارتدى قبعته وخرج . وما أن خرج حتى اخذت maman تروى لمدرسة الموسيقى كيف كانت فى ضيافة آل شوميخين وكيف استقبلوها هناك بحفاوة .

وقالت :

— ان لِيلي شوميخينا قريبتى . . . المرحوم زوجها ، الجنرال شوميخين كان ابن عم زوجى . أما هى فكانت قبل الزواج البارونة كولب .

فقال فولوديا بعصبية :

— Maman ، هذا ليس صحيحا ! لماذا تكذبين ؟

كان يعرف جيدا أن maman تقول الحقيقة ، ولم يكن فى حديثها عن الجنرال شوميخين والبارونة كولب كلمة كذب واحدة ، ولكنه مع ذلك أحس أنها تكذب . بدا الكذب فى طريقة كلامها وفى تعابير وجهها ، وفى نظرتها ، فى كل شىء .

وكرر فولوديا ، ودق الطاولة بقبضته بشدة حتى أن الاواعى اهتزت ، وانسكب الشاى من فنجان maman :

— انت تكذبين ! لأى داع تتحدثين عن الجنرالات والبارونات ؟ كل هذا كذب !

ارتبكت مدرسة الموسيقى وسعلت فى منديلها متظاهرة انها شرقت ، بينما بكت maman .

وفكر فولوديا : «الى أين أذهب ؟»

كان فى الخارج منذ قريب ، أما الاصدقاء فيخجل

من الذهاب اليهم . ومن جديد تذكر بلا مناسبة الفتاتين الانجليزيتين . . . وذرع «الغرفة المشتركة» من ركن لركن ثم دلف الى غرفة أفجوستين ميخايليتش . وهنا فاحت بشدة روائح الزيوت العطرية وصابون الجليسرين . وعلى الطاولة وعلى رفوف النوافذ ، بل وحتى على الكراسى اصطفت كمية لا حصر لها من القوارير والاكواب والكؤوس بسوائل مختلفة الالوان . وتناول فولوديا جريدة من على الطاولة ونشرها وقرأ الاسم : Figaro * . . . وفاحت من الجريدة رائحة قوية لطيفة . ثم أخذ من على الطاولة مسدسا . . .

وفى الغرفة المجاورة كانت مدرسة الموسيقى تطيب خاطر maman :

— كفى ، لا تلقى بالا ! انه ما زال صغيرا ! الفتيان فى سنه دائما يتجاوزون الحدود . ينبغى التسليم بذلك .

فقالت maman بصوت منغم :

— لا يا يفجينيا أندرييفنا ، لقد فسد جدا . ليس هناك كبير يحكمه ، وأنا ضعيفة ولا استطيع ان افعل شيئا . كلا ، اننى تعيسة !

وضع فولوديا فوهة المسدس فى فمه ، وتحسس فيه شيئا يشبه حرك الزناد او القفل فضغط عليه باصبعه . . . ثم تحسس بروزا آخر ، وضغط مرة أخرى . ثم اخرج المسدس من فمه ، ومسحه بذيل معطفه ، وتفحص القفل . لم يسبق له ابدا أن أمسك بسلاح فى يديه . . .

---

* صحيفة الفيجارو الفرنسية . **المعرب** .

وقال لنفسه مخمنا :

— يبدو ان هذا ينبغى رفعه . . . نعم ، يبدو هكذا . . .

ودخل أفجوستين ميخايليتش «الغرفة المشتركة» مقهقها ، وراح يتحدث عن شيء ما . ووضع فولوديا المسدس فى فمه مرة اخرى وضغط عليه بأسنانه ، وداس باصبعه على شيء ما . ودوت طلقة . . . اصطدم شيء ما بقفا فولوديا بقوة رهيبة ، فوقع على الطاولة وغاص بوجهه فى الكؤوس والقوارير مباشرة . ثم رأى المرحوم أباه فى قبعة اسطوانية بشريط أسود عريض ، لابسا ثياب الحداد على سيدة ما فى (منتون) ، رآه يحتضنه فجأة بكلتا ذراعيه ، ثم يسقطان معا فى هاوية سحيقة مظلمة للغاية .

ثم اختلط كل شيء واختفى . . .

١٨٨٧

الهارب

كانت تلك عملية طويلة . ففى البداية سار باشكا مع أمه تحت المطر ، تارة عبر حقل محصود ، وتارة فى الغابة ، حيث كانت الاوراق الصفراء تلتصق بحذائه ، سار حتى لاح الفجر . ثم وقف زهاء ساعتين فى المدخل المظلم ينتظر فتح الباب . لم يكن المدخل رطبا وباردا كما فى الخارج ، بيد ان رذاذ المطر كان يتطاير الى هنا عند هبوب الريح . وعندما اكتظ المدخل شيئا فشيئا بالبشر ، دفن باشكا المحشور وجهه فى معطف شخص ما كانت تنبعث منه بشدة رائحة سمك مملح ، ونعس . وها هو المزلاج يصر ، ويفتح الباب على مصراعيه ، فيدخل باشكا مع أمه الى غرفة الاستقبال . وهنا ايضا اضطروا لأن ينتظروا طويلا . كان المرضى جالسين على الأرائك بلا حراك وفى صمت . وتطلع باشكا اليهم ولزم هو الآخر الصمت ، رغم انه رأى الكثير من الاشياء الغريبة والمضحكة . لم يتمالك نفسه مرة واحدة فقط ، عندما دخل الغرفة فتى ما وهو يقفز على ساق واحدة ، فقد شعر باشكا بالرغبة فى ان يقفز هو ايضا . لكز أمه أسفل كوعها وقال وهو يكتم ضحكة فى كمه :

— انظرى يا ماما . عصفور !

فقالت أمه :

— اسكت يا بني ، اسكت !

وظهر الحكيم النعسان فى شباك صغير وقال بصوت أجش :

— تقدموا للتسجيل !

وأسرع الجميع الى الشباك بمن فيهم الفتى النطّاط المضحك . وكان الحكيم يسأل كلا منهم عن اسمه واسم أبيه ، وعمره ، ومحل اقامته ، ومتى مرض وغير ذلك . وعرف باشكا من ردود امه ان اسمه ليس باشكا ، بل بافل جالاكتيونوف ، وان عمره سبع سنوات ، وأنه أمي ، ومريض منذ عيد الفصح .

وبعد التسجيل بقليل كان عليهم ان ينهضوا ، اذ مر الدكتور عبر غرفة الاستقبال مرتديا مريلة بيضاء ومحزوما بفوطة . وحين مر بجوار الفتى النطاط هز كتفيه وقال بنبرة «تينور» منغمة :

— يا لك من أحمق ! حسنا ، ألست أحمق حقا ؟ لقد قلت لك ان تأتى يوم الاثنين وها انت تأتى يوم الجمعة . بالنسبة لى لا يهم حتى لو لم تأت ، ولكن ساقك ستضيع ايها الأحمق !

رسم الفتى على وجهه المسكنة الشديدة وكأنما كان ينوى ان يسأل حسنة ، وطرف بعينيه وقال :

— اصنع معروفا يا ايفان ميكولايفتش !

فقال الدكتور مقلدا لهجته :

— دعك من ايفان ميكولايفتش ! قلت لك يوم

الاثنين وكان يجب ان تسمع الكلام . لست الا احمق . . .

وبدأ استقبال المرضى . كان الدكتور جالسا فى غرفته يستدعى المرضى بالدور . ومن وقت لآخر تتردد من هناك صرخات حادة ، وبكاء أطفال او هتاف الدكتور الغاضب :

— ما لك تصرخ ؟ هل أنا أقطع لحمك ؟ اجلس ساكنا .

وجاء دور باشكا .

وصاح الدكتور :

— بافل جالاكتيونوف !

روعت الأم كأنما لم تكن تتوقع هذا الاستدعاء ، ثم امسكت باشكا من يده وسحبته الى غرفة الدكتور . وكان الدكتور جالسا الى الطاولة وهو يدق بمطرقة صغيرة آليا على دفتر سميك .

وسأل دون ان ينظر الى الداخلين :

— مم يشكو ؟

فأجابت الأم :

— الولد عنده دمل فى كوعه يا سيدى . . . — وارتسم على وجهها تعبير وكأنما كانت حقا فى غاية الحزن بسبب دمل باشكا .

— قلّعيه !

فك باشكا المنديل من حول عنقه وهو يزفر ، ثم مسح أنفه بكمه وراح ينزع معطفه على مهل .

فقال الدكتور بغضب :

— لم تأتي الى هنا للضيافة يا ولية ! ما لك تتلكئين ؟ لست الوحيدة عندى .

فالقى باشكا المعطف على الأرض بعجله وخلع القميص بمساعدة أمه . . . وتطلع اليه الدكتور بكسل وربت على بطنه العارى .

— يا لها من كرش كبيرة ربيتها يا أخى ، — قال الدكتور ثم تنهد . — حسنا ، أرنى كوعك .

تطلع باشكا شزرا الى الطست المملوء بمخلفات الأربطة الدموية ، ثم الى مريلة الدكتور وأجهش بالبكاء .

فقلده الدكتور ساخرا :

— إي . . . . ي . . . ي ! آن الأوان ان تتزوج أيها المخادع ، بينما تبكي ! اخص عليك !

نظر باشكا الى أمه محاولا ألا يبكى ، وتجلى فى نظرته هذه رجاء : «لاتخبرى احدا فى البيت بأننى بكيت فى المستشفى !»

وفحص الدكتور كوعه ، وضغط عليه ثم تنهد ، ومصمص شفتيه ، ثم ضغط عليه مرة أخرى .

وقال :

— تستحقين الضرب يا ولية . لماذا لم تأتي به من قبل ؟ خلاص ضاعت ذراعه ! انظرى يا حمقاء . . مفصله مريض !

فتنهدت الولية :

— أنتم أدرى يا سيدى . . .

— يا سيدى . . . تهملين ذراعه حتى تتقيح ثم تقولين يا سيدى . أى كسّيب هو بدون ذراع ؟ سوف تقضين عمرك كله فى العناية به . أظن لو ظهر فى انفك دمل لهرولت الى المستشفى فورا ، بينما تتركين ذراع الولد تتقيح نصف

سنة . كلكن هكذا .

اشعل الدكتور لفافة تبغ . ومع دخانها المتصاعد راح يوبخ الولية ويهز رأسه على ايقاع اغنية أخذ يدندن بها فى سره وهو يفكر فى شيء طوال الوقت . وكان باشكا يقف امامه عاريا وهو يصغى ويتطلع الى الدخان . وعندما انطفأت اللفافة انتفض الدكتور وقال بنبرة اهدأ :

— طيب ، اسمعى يا ولية . المراهم والنقط لن تجدى شيئا . ينبغى ادخاله المستشفى .

— اذا كان ضروريا يا سيدى فلماذا لا يدخل ؟

— سنجرى له عملية جراحية . — ثم قال مخاطبا باشكا وهو يربت على كتفه . — ابق عندنا يا باشكا . دع أمك ترحل ، أما أنا وأنت يا أخى فسنبقى هنا . الحياة هنا طيبة يا أخي ، آخر حلاوة ! وما أن نفرغ من العمل يا باشكا حتى نذهب لاصطياد الحسّون ، وسأريك الثعلب ! وسنذهب معا لزيارة الجيران ! هه ؟ هل تريد ؟ وستأتى أمك غدا اليك ! هه ؟

ونظر باشكا الى أمه مستفهما ، فقالت :

— ابق يا بنى !

فصاح الدكتور بمرح :

— سيبقى ، سيبقى ! ولا حاجة للكلام ! سأريه ثعلبا حيا ! وسنذهب معا الى السوق لنشترى الحلوى ! خذيه يا ماريا دينيسوفنا الى الطابق الثانى !

بدا الطبيب ، الذى كان اغلب الظن فتى مرحا وطيبا ، مسرورا بهذه الصحبة . وأراد باشكا أن يرضيه ، خاصة وأنه لم يذهب الى السوق فى حياته ، ويود عن

طيب خاطر أن يرى تعلبا حيا ، ولكن كيف يبقى بلا أمه ؟ وبعد أن فكر قليلا قرر أن يرجو الطبيب ان يُبقي أمه ايضا فى المستشفى ، ولكن قبل أن يتمكن من فتح فمه كانت الحكيمة تقوده على الدرج الى الطابق العلوى . وسار يحدق عن يمينه ويساره بفم مفغور . فالدرج والأرضية وعوارض الابواب — وكلها ضخمة مستقيمة ساطعة — كانت مطلية بطلاء أصفر رائع ، وتفوح منها رائحة الزيت النباتى اللذيذة . وفى كل مكان تدلت المصابيح وفرشت مماسح الاقدام ، وبرزت من الجدران الصنابير النحاسية . ولكن باشكا اعجب اكثر شيء بالسرير الذى أجلسوه عليه ، وبالبطانية الرمادية الخشنة . وتحسس بيده الوسائد والبطانية ، وطاف ببصره على العنبر ، وقرر ان الدكتور يحيا حياة لا بأس بها ابدا .

كان العنبر صغيرا لا يضم سوى ثلاثة أسرة ، أحدها خاو ، والثانى شغله باشكا ، أما السرير الثالث فكان يجلس عليه عجوز ما ، بعينين مكئبتين ، وكان يسعل باستمــــرار ويبصق فى كوز . ومن سرير باشكا كان يرى عبر الباب جزء من عنبر آخر بسريرين : على أحدهما ينام شخص شاحب جدا وهزيل ، وعلى رأسه كيس من المطاط وعلى السرير الآخر جلس فلاح مباعدا ذراعيه ، معصوب الرأس ، وكان يبدو قريب الشبه بامرأة .

وبعد أن أجلست الحكيمة باشكا انصرفت ، ثم عادت بعد قليل حاملة كوما من الملابس .

وقالت له :

— هذا لك . البس .

خلع باشكا ملابسه ، وباحساس لا يخلو من المتعة

راح يرتدى الزى الجديد . وعندما ارتدى القميص والسروال والروب الرمادى تطلع الى هيأته بخيلاء ، وفكر فى أنه لا بأس لو يخطر فى القرية بهذا الزى . وتصور فى خياله كيف ترسله أمه الى مزرعة الخضروات على الشاطئ ليجمع أوراق الكرنب للخنزير الصغير . ويسير بينما يحيط به الصبيان والفتيات وينظرون بحسد الى روبه .

ودخلت العنبر ممرضة تحمل فى يديها صحفتين معدنيتين وملعقتين وقطعتى خبز . وضعت احدى الصحفتين امام العجوز والاخرى امام باشكا ، وقالت :

— كل !

نظر باشكا الى الصحفة فرأى فيها حساء كرنب دسما بقطعة لحم ، ففكر ثانية فى ان الدكتور يحيا حياة لا بأس بها ابدا ، وأنه ليس عبوسا أبدا كما بدا له أول الامر . وظل باشكا طويلا يتناول الحساء وهو يلعق الملعقة بعد كل غمسة ، وعندما لم يتبق فى الصحفة سوى قطعة اللحم تطلع خلسة الى العجوز وحسده على انه ما زال يجرع الحساء . وشرع يأكل اللحم وهو يتنهد ، ويحاول أن يطيل فترة تناوله الى اقصى ما يمكن ، لكن جهوده باءت بالفشل ، فسرعان ما اختفى اللحم ايضا . لم تبق سوى قطعة خبز . وليس لذيذا أكل الخبز بدون غموس ، ولكن ما باليد حيلة ، ففكر باشكا قليلا ثم أكل الخبز . وفى تلك اللحظة دخلت الممرضة بصحفتين أخريين . كان فيهما هذه المرة لحم مقلي مع البطاطس .

وسألته الممرضة :

— واين خبزك ؟

وبدلا من الرد نفخ باشكا اوداجه ثم زفر .

فقالت الممرضة مؤنبة :

— لماذا أكلته ؟ فبم ستأكل اللحم المقلي الآن ؟

وخرجت ثم عادت بقطعة خبز اخرى . ولم يكن باشكا قد ذاق اللحم المقلي فى حياته ، وعندما تذوقه الآن وجده لذيذا جدا . واختفى اللحم بسرعة ، وتبقت بعده قطعة خبز اكبر مما تبقى بعد الحساء . وعندما انتهى العجوز من غدائه وضع قطعة الخبز المتبقية فى درج الطاولة . واراد باشكا ان يفعل مثله ، ولكنه فكر قليلا ثم أكل قطعة خبزه .

وبعد أن شبع خرج ليتجول . كان فى العنبر المجاور بالاضافة الى الاثنين اللذين رآهما عبر الباب اربعة اشخاص آخرون . ولم يجذب انتباهه سوى واحد منهم . كان فلاحا طويلا ، نحيفا للغاية ، بوجه مكفهر مشعر . كان جالسا على السرير يومئ برأسه ويلوح بيده اليمنى طوال الوقت كالبندول . وظل باشكا لا يحول عنه بصره طويلا . وبدت له ايماءات الفلاح البندولية المنتظمة أول الامر هزلية ، الغرض منها اثارة الضحك ، ولكنه عندما حدق مليا فى وجهه أحس بالرعب ، وأدرك ان هذا الفلاح مريض مرضا خطيرا . ودخل العنبر الثالث فرأى فلاحين بوجهين أحمرين قاتمين كأنما لوثا بالطين . كانا جالسين على سريريهما دون حراك ، ولاحا بوجهيهما الغريبين اللذين كان من الصعب أن تميز فيهما الملامح ، أشبه بصنمين من آلهة الوثنيين .

وسأل باشكا الممرضة :

— لماذا هما هكذا يا عمتى ؟

— عندهما جذري يا بني .

وعاد باشكا الى عنبره فجلس على السرير وراح ينتظر الدكتور ليذهب معه الى صيد الحسّون او الى السوق . ولكن الدكتور لم يأت . وظهر الحكيم للحظة في باب العنبر المجاور . وانحنى فوق المريض الذي كان على رأسه كيس ثلج وصاح :

— يا ميخايلو !

ولم يتحرك ميخايلو النائم . فأشاح الحكيم بيده وانصرف . وراح باشكا ، في انتظار الدكتور ، يتأمل جاره العجوز . كان العجوز لا يكف عن السعال والبصق في الكوز . وكان سعاله طويلا متحشرجا . وأعجب باشكا بشيء مميز في العجوز : فعندما كان يسعل ويشهق ، يصفر شيء ما في صدره ويصدح بشتى النغمات .

وسأله باشكا :

— ما هذا الذي يصفر عندك يا جدى ؟

ولم يرد العجوز بشيء . وانتظر باشكا قليلا ثم سأله :

— وأين الثعلب يا جدى ؟

— أيّ ثعلب ؟

— الحي .

— وأين يمكن أن يكون ؟ في الغابة !

مر زمن طويل ولم يأت الدكتور بعد . وحملت الممرضة الشاى ووبخت باشكا لأنه لم يُبق على الخبز للشاى . وجاء الحكيم مرة أخرى وأخذ يوقظ ميخايلو . ومال الجو الى الزرقة وراء النوافذ ، واشعلت مصابيح العنابر ، ولم يظهر الدكتور . أصبح الوقت متأخرا للذهاب الى السوق او صيد الحسون . فتمدد باشكا على السرير وأخذ يفكر . تذكر

الحلوى التى وعده بها الدكتور ، ووجه أمه وصوتها ، والعتمة فى بيتهم والفرن والجدة يجوروفنا التى لا تكف عن التذمر . . . وفجأة شعر بالسأم والحزن . وتذكر ان أمه ستأتى غدا اليه وتأخذه فابتسم وأغمض عينيه .

وأيقظه حفيف . كان هناك أحد يمشى فى العنبر المجاور ويتحدث بصوت خافت . وفى ضوء اللمبات السهّارى وقناديل الايقونات كانت ثلاثة أشباح تتحرك بجوار سرير ميخايلو .

وقال أحدهم :

— هل نحمله بالسرير أم بدونه ؟

— بدونه . لن تمر بالسرير . ايه ، مات فى وقت غير مناسب ، عليه الرحمة !

أمسك احدهم ميخايلو من كتفيه والآخر من قدميه ورفعاه : وتدلت ذراعا ميخايلو واطراف روبه بتراخ . أما الشخص الثالث — وكان ذلك الفلاح الذى يشبه المرأة — فقد رسم علامة الصليب ، ثم خرج ثلاثتهم بميخايلو من العنبر وهم يدقون باقدامهم فى اضطراب ويدوسون على اطراف روبه .

وتردد فى صدر العجوز النائم صفير وصدح متعدد النغمات . وأصاخ باشكا السمع ، وتطلع الى النوافذ المظلمة ثم قفز من السرير فى ذعر .

وتأوه بصوت غليظ :

— ما . . . ا . . . ما ! . .

ودون ان ينتظر ردا انفلت الى العنبر المجاور . وهناك كان ضوء القناديل واللمبة السهّارى لا يكاد يشق الظلام .

وجلس المرضى على اسرتهم مضطربين لموت ميخايلو . وظهروا بهيئاتهم المشعثة وفي اختلاطهم بالظلال أعرض وأطول وبدا كأنهم يزدادون ضخامة . وعلى آخر سرير في الركن ، حيث الظلمة أحلك ، جلس ذلك الفلاح يومئ برأسه ويهز يده .

انطلق باشكا على غير هدى فاقتحم عنبر المجدورين ، ومن هناك الى الطرقة ، ومن الطرقة اندفع الى غرفة كبيرة ، حيث كانت ترقد وتجلس في الاسرة مخلوقات رهيبة بشعر طويل ووجوه عجائز . وبعد أن ركض باشكا عبر القسم النسائي وجد نفسه مرة أخرى في الطرقة ، ورأى حاجز السلم المعروف فانحدر الى أسفل . وهنا عرف غرفة الاستقبال التي جلس فيها صباحا ، فراح يبحث عن باب الخروج .

صر المزلاج ، وهبت دفقة هواء بارد ، فانطلق باشكا الى الفناء وهو يتعثر . لم يكن في ذهنه سوى فكرة واحدة : أن يهرب ! ولم يكن يعرف الطريق ، لكنه كان واثقا من أنه لو جرى فسيصل حتما الى دارهم ، الى أمه . وكان الليل غائما ، ولكن ضوء القمر لاح خلف السحب . وركض باشكا من المدخل الى الامام مباشرة ، ودار حول الحظيرة فاصطدم بحرش خاو . وقف قليلا وفكر ، ثم اندفع عائدا الى المستشفى ، ودار حولها ، وتوقف ثانية مترددا : فمن خلف مبنى المستشفى لاحت صلبان المقابر البيضاء .

وصاح :

— ما . . . ا . . . ما !

وركض عائدا .

www.liilas.com/vb3 **مرعي** me3refaty.blogspot.com

وبينما كان يجرى مارا بمبان مظلمة جهمة راى نافذة مضيئة .

بدت هذه البقعة الحمراء الساطعة فى الظلام مخيفة ، ولكن باشكا الذى جن رعبا ولم يعد يدرى الى أين يجرى ، اتجه نحوها . وكان بجوار النافذة مدخل ودرج وباب رئيسى بلوحة بيضاء . ارتقى باشكا الدرج ركضا ونظر فى النافذة فتولته فجأة فرحة واخزة غامرة . لقد رأى فى النافذة الدكتور المرح الطيب جالسا الى المكتب يقرأ كتابا . ومد باشكا يديه نحو الوجه الأليف وهو يضحك من السعادة ، واراد أن يصرخ ، الا ان قوة مجهولة كتمت انفاسه وأهوت على ساقيه ، فترنح وسقط على الدرج مغشيا عليه .

عندما أفاق كان الضوء منتشرا ، وبجواره سمع الصوت المعروف جدا ، الصوت الذى وعده أمس بالسوق والحسون والثعلب ، يقول :

— يا لك من أحمق يا باشكا ! ألست أحمق حقا ؟ تستحق الضرب . . . فعلا تستحق الضرب .

١٨٨٧

محتويات

انطون بافلوفيتش تشيخوف	٥
فرحة	٢٥
الكبش والآنسة	٢٩
المغفلة	٣٣
وفاة موظف	٣٧
الصبى الشرير	٤٢
جهاز العروس	٤٦
ابنة ألبيون	٥٥
البدين والنحيف	٦٣
دموع لا يراها العالم	٦٨
الحرباء	٧٦
القناع	٨٣
حلة النقيب	٩٢
عند زوجة رئيس النبلاء	١٠٢
تواريخ حية	١٠٩
الدبلوماسى	١١٤
المتمارضون	١٢١
البربوط	١٢٧
الصياد	١٣٧
مع سبق الاصرار	١٤٥

الصول بريشيبييف	١٥٣
العازف الأجير	١٦١
زودّها	١٧٠
المصيبة	١٧٧
الاطفال	١٨٧
وحشة	١٩٦
هرج	٢٠٦
انيوتا	٢١٨
مزحة	٢٢٦
أجافيا	٢٣٣
الذئب	٢٥٠
السعيد	٢٦١
فى البيت الريفى	٢٦٩
مغنية الكورس	٢٧٧
المعلم	٢٨٦
الزوج	٢٩٨
توافه الحياة	٣٠٦
كلخاس	٣١٥
الخطيب	٣٢٥
تحفة فنية	٣٣١
فانكا	٣٣٨
الاعداء	٣٤٥
فى البيت	٣٦٦
فولوديا	٣٨١
الهارب	٤٠٢

انطون تشيخوف

مؤلفـــات مختـــارة في ٤ مجلدات

يسر دار «رادوغا» ان تصدر هذه المجموعة من «المؤلفات المختارة» للكاتب الروسى العظيم انطون تشيخوف (١٨٦٠ — ١٩٠٤) فى اربعـة مجلدات .

ويضم المجلد الاول القصص القصيرة التى كتبها تشيخوف فى الفترة من ١٨٨٠ الى ١٨٨٧ . ويضم المجلد الثانى الروايات والقصص القصيرة التى كتبت من ١٨٨٧ الى ١٨٩١ ، اما المجلد الثالث فيضم الروايات والقصص القصيرة التـى كتبت فى الفترة من ١٨٩٢ الى ١٩٠٣ . كما خصص المجلد الرابع لاعمال تشيخوف الدرامية .

ويحتوى كل مجلد على صور فوتوغرافية ورسوم لكبار الفنانين الروس والسوفييت .

دار «رادوغا» . موسكو

يتضمن المجلد الاول من «المؤلفات المختارة» لانطون تشيخوف قصصا قصيرة كتبها الاديب فى مرحلة مبكرة من مراحل ابداعه (١٨٨٠ — ١٨٨٧) . وهى قصص مرحة فكاهيـة لتشيخوف الشاب مثل «الصبـــى الشرير» و «زوّدها» و «فى البيت الريفى» و «تحفة فنية» . كذلك يتضمن المجلد اروع قصص الكاتب الساخرة ، المعروفة على نطاق واسع ، مثل «موت موظف» و «البدين والنحيف» و «الحرباء» و «الصول بريشيبييف» .

ولكن المركز الرئيسى فى المجلد تشغله تلك القصص التى يتجلى فيها حب الكاتب العميق للناس الكادحين ، وتعاطفه الحار مع اولئك الذين يهينهم «ســــــادة الحياة» الاقوياء المتخمون ، مثل قصص «العازف الاجير» و «المصيبة» و «وحشـة» و «هرج» و «فانكا» .

وتستهل المجلد ذكريات الكاتب الكبير مكسيم جوركى عن تشيخوف .

انطون تشيخوف

١